

معهد الدراسات الإسلامية

=====



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٧٧٦

ابن عمّار

عصره وحياته وشعره

رسالة أعدها

أحمد محمد أحمد الشريف

لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية



٧٧٦

ياشـراف

فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد الشراصي

الأستاذ بجامعة الأزهر ومعهد الدراسات الإسلامية

١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م
=====

// تقدير واعتراف //

إني مدين بواجب الشكر والتقدير لأستاذي الفاضل الدكتور/
أحمد الشرباصي ، الذي أشرف على هذه الرسالة منذ أن كانت
فكرة حتى ظهرت إلى حيز الوجود ، فقد زودني بتوجيهات سديدة
وملاحظات قيمة ولم يكن مشرفا فحسب بل كان أستاذا مخلصا
وناصحا أميناً .

كما إني مدين بالشكر إلى مدير مكتبة الجامعة الأردنية
والعاطلين عليها لما قدموه لي من تسهيلات ذات قيمة كبيرة
سهلت إنجاز هذه الرسالة .

أنا ابن عمار لا أخفى على بشرٍ

إلا على جاهلٍ بالشمس والقمرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

"مقدمة"

=====

كان لخروج العرب من الأندلس بعد حوالي ثمانية قرون صدى حزين في قلوب العرب والمسلمين، وما زالت جروح الأندلس تذكرنا بهذا الفردوس المفقود . وبما صنعه العرب من حضارة عريقة في ميادين الأدب والفن والعمارة . وللأسف إن هذا التراث الأدبي الرائع قد فقد إثر هذه النكبة . فقد استبد التعصب بالمسيحيين المنتصرين ففدروا بالمسلمين واستباحوا حرمااتهم ، وأحرقوا الكتب النفيسة التي هي عبارة الفكر العربي في عدة قرون . وما بقي من التراث الأندلسي تبدد بين مكتبات العالم العامة . والمكتبات الخاصة ، وبعضه لحقه التلف نتيجة الإهمال .

وقد قدر لبعض المستشرقين البحث والتنقيب عن هذا التراث الأدبي فنشر كل من دوزي وغرسيه غومس ونيكل وليفي بوفيسال كثيرا من الآثار القيمة وتناولوا كثيرا من الموضوعات بالتفصيل مما لفت نظر الباحثين العرب إلى غزارة هذا التراث فاتجهوا إلى أسبانيا بقصد البحث والتنقيب وبرز منهم الأساتذة الدكتور حسين مؤنس ومحمد عبدالله عنان وإحسان عباس . وإن الذي يقارن بين الجهود التي تبذل الآن وبينها منذ بضع عشرات من السنين ليرى مدى التقدم الهائل الذي أحرزه نشر هذا التراث الأندلسي ، فهناك نصوص كثيرة كانت تعتبر في حكم المفقودة أخرجت إلى النور أخيرا ، وأخرى طُبعت من قبل ، غير أن المشور على مخطوطات جديدة مكن من إعداد نشرات لها أصوب وأجود ، وكل ذلك يبشر بالخير ويدعو للتفاؤل ، لا سيما وإن اشتغال كثير من علمائنا المجهودين بالشرق بإنتاج أهل المغرب والأندلس بعد أن كان في السنوات الأخيرة مجهولا قليل الحظ من العناية سيكون فاتحة خير على مستقبل العلاقات بين جناحي العالم العربي الكبير مشرقه ومغربيه .

وهذه الخواطر من الدوافع التي حملتني على أن أختار لبحثي موضوعا من هذه الموضوعات. وقد دفعني إلى الكتابة عن " ابن عمّار " عوامل عدة ، ذلك أنه من ناحية يعدّ من أهم الشعراء في عصره (عصر ملوك الطوائف) في القرن الخامس الهجري ، (الحادي عشر الميلادي) ، حيث ازدهرت الحركة الأدبية بعد ركود في عهد الفتح والولاة .

ولأنه من ناحية ثانية ، بحاجة إلى دراسة تميّط اللثام عن حياته المضطربة الحافلة بالتشرد أحيانا والمغامرات أحيانا أخرى ، وقد أدى به دهاؤه وطموحه إلى مسد منافسيه الذين أوقعوا بينه وبين صديق عمره " المعتمد " مما حمّله على قتله بيديه .

ولعل العامل الأهم ، هو ما يمتحننا شعره من أحاسيس عميقة بالحياة والإنسان ، وحسبي دليلا على ذلك ، ما أستشعره أشتاء مطالعتي لقصائده من اندماج تام بينها وبين النابض بالحركة ورسم الصور المبتكرة من البيئة في محيطه الأندلسي المشرق ومن مجالس لهوّه وأنسه حتى يمكن القول إن أكثر شعره منتزع من حياته ، فهو صورة حية لحياة ابن عمّار في بؤسه ونعيمه ومسراته وأحزانه .

فهو شخصية فذة متعددة الجوانب والاهواء ومن أبرز الشعراء في عصره . فضلا عن أنه اشتغل بالشؤون السياسية فوصل إلى الصدارة فقد كان سفيرا ووزيرا ورئيسا للوزراء .

لقد صادق كثيرا من ملوك عصره فخف على قلوبهم واستولى على أعينهم فأحضره مجالس أنسهم وسمرهم وحظي بمكانة مرموقة في ظل المعتمد بن عباد حتى ارتبط اسمه باسمه .

ففي دراستنا لهذا الشاعر دراسة لهذه الجوانب المتعددة في حياته والقاء الضوء على الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية لهذا العصر الزاهر في عهد ملوك الطوائف .

وقد حرصت على تقديم " ابن عمّار " إنسانا كبقية البشر ، له محاسنه

ومثاليه ، فلم أحاول أن أسبغ عليه ثوبا براقا من العظمة والمجد ، كما لم أتجه إلى النيل منه والخط من قدره ، وإنما حاولت تصويره كما هو ، معتمدا أولا على شعره ، وثانيا على ما وردنا من أخبار وثيقة عن حياته فحرصت على أن أعيش معه في طفولته المشرقة وصباه المعسر الكئيب ، وانتقلت معه في كفاحه من أجل الحياة إلى حين ارتقائه سلم المجد وبلوغه ذروة العظمة والسلطان ، ثم تابعت بعد ذلك في انحداره الفظيع إلى درك الذل والأسر حتى بلوغه نهايته المفجعة .

ولهذا جعلت دراستي في ثلاثة أبواب رئيسية ، الباب الأول : دراسة عصره دراسة دقيقة تتيح لنا معرفة الأحداث السياسية السائدة فيه ثم معرفة الحياة الاجتماعية والأدبية التي ازدهرت في عصر شاعرنا ابن عمّار .

الباب الثاني :

دراسة حياته دراسة شاملة منذ مولده في شنبوس وتلقيه دراسته الأولى في قرطبة ثم نشأته في شلب وتنقلاته بين ممالك الأندلس حتى استقر به المطاف في بلاط بني عباد في إشبيلية وتعرضه للأحداث الحاصفة في حياته والتي أدت إلى محنته ومصيره المحتوم .

الباب الثالث :

تناولت فيه شاعرية ابن عمّار وفنونه من وصف ومدح وهجاء واستمطاف ثم أنهيته ببيان الخصائص الفنية لشعره .

وقد بذلت جهدا كبيرا في دراستي عن ابن عمّار وقد كانت الصعوبة

في الحصول على مصادر هذا العصر الذي أدرسه وأهمها ما يزال

مخطوطا . على أن الجزء الذي حصلت عليه منها - بالتصوير أو النسخ -

كان ذا عون كبير في تصوري للعصر ، وتزويدي بالمادة التي ساعدتني في

كشف الغموض الذي أحاط بشاعرنا هذه السنين الطويلة .

ولعل ما شجعني على البحث أني وجدت لابن عمّار ديوانا جمعه

السرقسطي ولكنه مفقود مما دفعني إلى أن أبذل جهدا أكبر

وأبحث عن شعره في عشرات المجلدات القديمة والحديثة، الأدبية منها والتاريخية، حتى وقمت يدي على كتاب محمد بن عمار للدكتور صلاح خالص وقد جمع فيه شعر ابن عمار باسم ديوان ابن عمار وطبعه في بغداد سنة ١٩٥٧ م.

وقد رجعت في كتابة هذا البحث إلى مصادر بعضها يعد أوليا لدراسة الأدب الأندلسي ، وبعضها يقل عن هذه قليلا أو كثيرا في الأهمية ، وأهمها :

١ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة :

تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني ، المتوفي سنة ٥٤٢ هـ وقد نعى المؤلف كما يقول لنا في هذا الكتاب نحو الثعالبي في كتابه يتيمة الدهر .
ولذلك يقسم كتابه إلى أربعة أقسام ، كما قسم الثعالبي كتابه إلى أربعة أقسام أيضا ، وهو يقسم باعتبار الأقاليم ، فجعل القسم الأول لأهل حضرة قرطبة وما يماقها ، والقسم الثاني لأهل الجانب الغربي من الأندلس ، وذكر أهل حضرة إشبيلية وما اتصل بهامن بلاد ساحل البحر ، والقسم الثالث لأهل الجانب الشرقي من الأندلس ، والقسم الرابع أفرد له لمن طرأ على هذه الجزيرة في المدة المؤرخة من شاعر أو كاتب .

وقد أخرجت لنا جامعة القاهرة القسم الأول من الذخيرة مطبوعا طبعا أنيقا في مجلدين ، وكذلك أخرجت المجلد الأول من القسم الرابع ، أما القسم الثاني فقد ظل مخطوطا بدار الكتب المصرية ، حتى أخرجه لنا الدكتور إحسان عباس وطبعه في مجلدين سنة ١٩٧٨ م وقد اعتمدنا على هذا القسم عند الحديث عن حياة شاعرنا وأدبه .

٢ - البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشي :

تأليف العلامة ، أبي عبدالله محمد المراكشي ، المعروف بابن عذارى المراكشي ، الذي كان على قيد الحياة سنة ٦٣١ هـ ، وهذا الكتاب ثلاثة أجزاء وقد انتفعنا بالجزء الثالث الذي يشمل تاريخ الأندلس في عصر الطوائف عند الحديث عن الحياة السياسية في عصره .
وقد نشره المستشرق العلامة ليفي برونفسال سنة ١٩٣٠ ، أما الجزء الثاني فقد رجعنا إليه في التمهيد وعند الحديث عن عوامل الانحلال والتفكك ، وقد نشره المستشرق دوزي في مطبعة بريل بمدينة لايدن سنة ١٨٤٨ م ، ١٨٤٩ م ثم أعيد طبعه بمطبعة المناهل ببيروت سنة ١٩٥٠ م

٣ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب :

تأليف الشيخ الفقيه محي الدين بن محمد عبدالواحد المراكشي ، ألفه استجابة لرغبة أحد فضلاء زمانه الذي لم يذكر لنا اسمه وضمنه أخبار الأندلس وسير ملوكه ، وذكر من لقيه أو روى عنه من الشعراء والعلماء ، فالمعجب من الكتب القيمة في دراسة الأندلس وقد اعتمدنا عليه عند الحديث عن علاقة ابن عمار بالمعتمد وسفارة شاعرنا لدى المسيحيين على عهد الألفونس .

٤ - أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الإحتلام من ملوك الإسلام :

تأليف ذي الوزارتين محمد بن عبدالله السلماني المعروف بلسان الدين بن الخطيب ، المتوفي سنة ٧٧٦ هـ ، أخرج لنا ليفي برونفسال القسم الثاني منه ، وهو دراسة قيمة لمصر ملوك الطوائف .

٥ - قلائد المقيان :

تأليف أبي نصر الفتح بن محمد بن عبدالله بن خاقان ، المتوفي سنة ٥٣٥ هـ أو ٥٢٩ هـ ، قسمه إلى أربعة أقسام ، وهذا الكتاب

معلومات شيقة عن ابن عمار ، ونبد من أشعاره التي كانت تصدر عنه في مختلف المناسبات ، ولو أن ابن خاقان عرض لنا صورة عن أدباء وشعراء الأندلس في أسلوب غير هذا الذي التزم فيه السجع السقيم ، والقول الغريب ، لكان كتاب قلائد العقيان قطعة فنية رائعة ، ولكنه تكلف فيه ما تكلف من الغموض في القول حتى أن القارئ لقلائد العقيان لا يكاد يفهم منه شيئا .

٦ - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب :

تأليف العلامة ، أحمد بن محمد المقرئ ، ويكاد يكون أكبر موسوعة أدبية تحدثت عن الأندلس في عصورها المختلفة ، وهذا الكتاب حافل بالمعلومات في كل ما يختص بالأندلس ، فقد أودعه صاحبه كل ما حفظه أو وقف عليه من تاريخ وجغرافية ، وشحنه بمقتطفات شعرية ، وأخرى نثرية . وكان كل ذلك في غير تناسب ولا تناسق ، فبينما نزاه يحدثك عن حياة الزهد والتصوف إذا به ينقلك بمناسبة أو غير مناسبة إلى الحديث عن حياة اللهو والطرب ، ومجالس الأئس . وقد طبع عدة مرات في أوروبا ومصر وبيروت .

ويعتبر من أهم المصادر التي اعتمدنا عليها في نظم الحكم بالأندلس والحياة الاجتماعية فيها .

وقد لاقت كثيرا من المشقة والعناء في البحث فان معظم المصادر مسجوعة وكثيرا ما يطفئ السجع والمحسنات البديعية على المعنى فيلتبس على الباحث وقد ينقلب الأمر إلى نوع من الإنشاء الحافل بالمبالغات التي يضيفها المؤلفون على كل شاعر أو كاتب .

مثال : ما أورده ابن بسام عند حديثه عن ابن عمار " إن شعره غرب وشرق وأشأم في نغم الحداة وعلى السنة الرواة وأعرق لا جرم فإنه كان شاعرا إذا مدح استزل العصم وإن هما أسمع الصم " (١)

(١) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، قسم ٢ مخطوط

وهثال آخر لما أورده ابن خاقان في قلائد العقيان عند حديثه عن ابن عمار قال :

" مقذف حصي القريض وحماره ، ومطلع شموسه وأقماره ، الذي بحث الإحسان عرفا عاطرا ونفسا ، وأنبته في شفاه الأيام لعسا ، أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، ثم كسا بعد اشراقا ونورا ، فأصبح راقى منبر وسرير ، ولمح ما شاء بطرف غير ضير ، هيا له السعدان عمر ريعا محيلا ، وصور في صورة الحقيقة مستحيلا " (١). وحسبنا هذه الأمثلة للدلالة على السجع السقيم . وتظهر مشقة البحث إذا علمنا أن أوسع ترجمة لشاعرنا وردت في الذخيرة وهي لا تتجاوز بضع صفحات ولكنني استطعت أن أقيم لشاعرنا ترجمة ضافية استبطنناها من دراستنا لرجال عصره ولمن كانت له علاقة وثيقة بهم . ومع هذا فلا تزال هناك جوانب في حياة هذا الشاعر الكبير تحتاج إلى معاودة الدراسة والبحث خاصة إذا ظهرت مخطوطات جديدة تزودنا بالمزيد عن بعض جوانب حياته الفاضلة ، فالشعر الأندلسي بحر لا ينضب يجد فيه الخواص لذة ومتعة برغم ما يعترضه من صعوبة الفصوص فيه .

الباب الأول

=====

= عصره =

= تمهيد =

= تسمية الأندلس

= نظرة عامة لحال الأندلس قبيل قيام دول الطوائف

تسمية الأندلس

=====

لم تعرف شبه الجزيرة التي تشمل حاليا دولتي أسبانيا والبرتغال باسم الأندلس ، قبل أن تعرف المسلمين ، وإنما عرفت في أقدم عصورها باسم إيبيرية نسبة إلى الإيبيريين الذين كانوا من أقدم من سكن هذه البلاد من البشر . ثم عرفت شبه الجزيرة بعد ذلك باسم أسبانيا . وهذا الاسم قد أطلقه الرومان على شبه الجزيرة حين حكموها ، وقد استنبطوه من تعبير فينيقي ، كان الفينيقيون قد أطلقوه من قبل على الشاطئ الذي نزلوا به من تلك البلاد ، حين اتصلوا ببعض جهاتها قبل الرومان ، وهذا التعبير الفينيقي i-schephanim يعني " شاطئ الأرناب " ويقال في تحليل آخر إن الفينيقيين قد صادفوا كثيرا من الأرناب على الشاطئ الإيبيري الذي نزلوا به . (١)

كذلك كان الجزء الجنوبي من أسبانيا يسمى " بتيكا " وكان ذلك في العهد الروماني ، ثم سمي " فندليسيا " حين سكنه الوندال بعد الرومان ، وهم الذين هاجموا أسبانيا ومروا بها مهاجرين إلى أفريقيا الشمالية في مبدأ القرن الخامس الميلادي . (٢)

إن يقال إن هؤلاء الفنداليين عند قطعهم جبل طارق سمي باسمهم ، وقيل له فندلس ، وقد حافظ هذا المرفأ على هذا الاسم حتى جاء المسلمون فأطلقوا على شبه الجزيرة جميعا اسم الأندلس ، وظل موء رخوهم وجغرافيوهم وسائر علمائهم يستعملون هذه التسمية ويفضلونها حين يريدون شبه الجزيرة الإيبيرية .

وأرجح الآراء أن هذا الاسم قد أخذته المسلمون من " وندلس " وهو اسم لبعض القبائل الأوروبية الشمالية ، التي أغارت في أوائل القرن الخامس

(١) أحمد هيكل : الأثب الأندلسي ، ص ٣ / إشبيلية في القرن الخامس

الهجري ص ١٩٠ .
(٢) جهود الركابي : في الأثب الأندلسي ص ٩ / عبدالعزيز عتيق :

الأثب العربي في الأندلس ، ص ١٠

الميلادى على ممتلكات الرومان ، وكان هؤلاء ال "وندلس" أو كما تعود كثير من الباحثين تسميتهم بالوندال كانوا قد وصلوا إلى جنوب أسبانيا وسموه قندليسيا نسبة إليهم . (١)

فلما جاء المسلمون فيما بعد وعرفوا ما كان من أمر ال "وندلس" بتلك البلاد سموها "بلاد الأندلس" فكأنهم أضافوا تلك البلاد إلى هؤلاء الذين حكموها من قبل واشتهر أمرهم بها ، وكل الذى فعله المسلمون من تغيير في اسم "وندلس" هو همز الصوت الأول ، ومن هنا أصبحت الكلمة "أندلس" بدلا من "وندلس" .

وقد بقي اسم الأندلس الذى أطلقه المسلمون على شبه الجزيرة ، ولم يخرج بخروجهم ، ولكنه قد أصاب شيئا من التطور في لفظه ، وشيئا من التطور كذلك في معناه ، أما اللفظ فقد أصبح في اللغة الأسبانية "أندلثيا" ، بدلا من أندلس وأما المعنى فقد صار جنوب شبه الجزيرة فقط ، بعد أن كان شبه الجزيرة جميعا . (٢)

وكثيرا ما يطلق على الأندلس اسم "جزيرة الأندلس" والواقع أنها شبه جزيرة ، وإنما سميت بالغلبة ، كما سميت جزيرة العرب (٣) ولا بد لإكمال الحديث أن نذكر أن بعض المؤرخين القدامى قد أوردوا تعليقات أخرى لتسمية شبه الجزيرة الإيبيرية باسم الأندلس فمن ذلك ما نقله المقرئ عن ابن سعيد من أن تلك البلاد سميت بأندلس ابن طوخال بن يافث بن نوح لأنه نزلها (٤)

وليس يخفى ما في رأى ابن سعيد من تحليل أسطوري أبعد ما يكون عن الحقيقة ، ومن المؤرخين العرب القدامى الذين اهتموا إلى التحليل

(١) جودت الركابي : في الألب الأندلسي ، ص ١ / عبدالعزيز عتيق :

الألب العربي في الأندلس ص ١٠

(٢) أحمد هيكل : الألب الأندلسي ، ص ٤

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٣

(٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ١٢٤

العلمي الصحيح ، أحمد بن محمد الرازي الذي نقل عنه المقرئ قوله
 " وأول من سكن الأندلس على قديم الأيام قوم يعرفون بالأندلس
 معجمة الشين ، بهم سمي المكان فعرب فيما بعد بالسین غير المعجمة (١)
 فهذا تحليل يطابق أحدث التعليقات العلمية المبنية على أسس تاريخية ،
 وإن كان الرازي قد حسب أن هؤلاء الناس كانوا أول من سكن البلاد ،
 وشبهه بالتحليل الأسطوري الذي ذكره ابن سعيد لإطلاق كلمة
 الأندلس على شبه الجزيرة ، ما ذكره بعض المؤرخين القدامى في
 سبب إطلاق كلمة أسبانيا على تلك البلاد ، فقد ذكر أنها سميت بهذا
 الاسم لأن عجم روما قد ملكوها ، وكان ملكهم أشبان بن طيطش ،
 وباسمه سميت الأندلس أشبانيا (٢)

فالصحيح أن الكلمة قد أطلقها الرومان على تلك البلاد ، ولكن لا
 أخذنا من اسم ملكهم أشبان الذي لا يعرف التاريخ عنه شيئا ، بل
 أخذنا من عبارة فينيقية معروفة كان الفينيقيون قد أطلقوها على الساحل
 الإيبيري حين نزلوا به ، وقد جرى على الألسن استعمال كلمة
 الأندلس معرفة بالألف واللام غير أن البعض يستعملونها مجردة من
 أداة التعريف وبخاصة في الشعر ، ومن ذلك قديما :

سألت القوم عن أنس فقالوا : بأندلس ، وأندلس بميد
 ومنه حديثا قول شوقي :
 من لِنِضْوٍ يَتَنَزَّى أَلْمَا بَرَّحَ الشَّوْقُ بِهِ فِي الْفَلَسِ
 حَنَّ لِلْبَانِ وَنَاجَى الْعَلْمَا أَيْنَ شَرْقِ الْأَرْضِ مِنْ أُنْدَلَسِ ؟ (٣)

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٣٠

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٣١

(٣) عبدالعزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ، ص ١١

عرض إجمالي لحال الأندلس قبيل قيام دول الطوائف

=====

فتح العرب بلاد الأندلس للإسلام في شهر رمضان سنة ٩٢ هـ
(١) فنزلت جيوش العرب والبحر الأندلس تحت إمارة قائد

عظيم هو طارق بن زياد .

وفي أقل من سنتين ، منذ ابتداء الفتح غدت الأندلس حتى حدود
جبال البرانس (٢) خاضعة لسلطان الإسلام .

استطاعت هذه الاندفاع القوية والغزو الشجاع الذي قاده طارق

ابن زياد وسيدته " موسى بن نصير " وابنه عبدالمعز بن موسى " أن

يمكن لسلطان بني أمية ، ويجعل لهم دولة بالأندلس ، ولو ترك طارق

وموسى بن نصير لنجها في تدوين أوروبا حتى يصل إلى دار الخلافة

عن طريق القسطنطينية ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك استدعاهما (٣)

قبل أن يتمتا خططهما ومهما تكن الأسباب والدواعي التي حدثت بالخليفة

إلى استدعائهما فإنه لا شك أن رجوعهما يمد كارثة على مستقبل الإسلام .

وأتاح الفرصة للأسباب أن يتنفسوا الصعداء ويستعيدوا قوتهم التي طردت

المسلمين فيما بعد من الأندلس .

وقد ولي الأندلس منذ سنة ٩٥ هـ - ١٣٨ هـ ثمانية عشر واليا من

قبل خلفاء بني أمية في دمشق حيناً ، ومن قبل عاملهم في أفريقية حيناً

آخر .

وأول هؤلاء الولاة الذين لم يكن الواحد منهم يلبث في الحكم

إلا قليلاً عبدالمعز بن موسى بن نصير وآخرهم يوسف بن عبدالرحمن

الفهري الذي تغلب عليه عبدالرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ،

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢١٤ ، ٢٤٢

(٢) جبال البرانس أو البرت هي الجبال الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا وتسمى

أيضاً الحاجز . / ياقوت : معجم البلدان انظر مادة أندلس ص ٢٦٣ /

أبو الفداء : تقويم البلدان ، انظر جزيرة الأندلس ص ١٤٥

(٣) ابن خلدون : المعبر وديوان الصنداء والخبر ، ج ٤ ص ١١٨

وأقام إمارة قرطبة المستقلة تلك التي كان لها شأن كبير وخطير في تاريخ
الأندلس . (١)

وبسبب كثرة هؤلاء الولاة ، ومضاضة بعضهم بعضا على الحكم ، وقصر
مدة ولاية الواحد منهم أصبحت البلاد مسرحا للفتن والاضطرابات ، التي
كان يذكي أوارها ظهور الحصبية القبلية بين العرب في الأندلس .
وكانت القبلية بعينها التي تغلبت على خلفاء بني أمية في دمشق
عندما كانوا يمينون أمراء الأندلس ، وتبعوا لما تطلبه روح الحصبية ووفقا
لهذه الأهواء كان الأمراء يبقون في مناصبهم أو يعزلون منها وفي كثير
من الأحيان يقتلون (٢) .

ولذا كان من الصعب على أي حاكم مهما بلغت قوته أو حكمته أن
يستطيع التوفيق بين ميول وأهواء هؤلاء جميعا ، وبينما كانت المضربة
واليمينية تتنازعان السيادة في الأندلس كان البربر من ناحية أخرى
يشكون من الحيف الذي نزل بهم من العرب وينقمون عليهم سلوكهم
في توزيع الأسلاب والخنائم ، إذ كان البربر يرون أن الأندلس فتحت
بسيوفهم وأريققت فيها دماؤهم ، ومع ذلك فإن العرب تجاهلوا هذه
الحقيقة عند توزيع الخنائم . وكل ما جوزى به البربر هو أن أعطيت لهم
المهضبة الوسطى الجرداء من سهول "استرامادورا" وجبال "ليون" الثلجية ،
بينما أخذ العرب نصيب الأسد ، واستولوا على المقاطعات الغنية في
الأندلس . (٣)

وكان هذا الصراع القبلي الذي شهدته عصر الولاة في الأندلس
مؤسفا حقا ، فقد شغل العرب بأنفسهم وآرائهم عن هدفهم الأسمى ،
هدف نشر الإسلام في البلاد التي عبروا البحر لفتحها .

-
- (١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٨٠
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ص ١١٨ /
ابن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ، ص ١٠
(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ص ١١٨-١١٩

ولم يقلل هذا الصراع من هيبة العرب في أعين أهل البلاد التي فتحوها
فحسب ، وإنما جرأهم عليهم أيضا ، فإذا هم يستجمعون قواهم ، ثم
يحاربوهم وينتزعون منهم البلاد شيئا فشيئا ، كلما سنحت الفرصة لذلك .
هكذا كانت حال الأندلس مختلفة النظام في عهد الولاة أما عهد
الخلفاء الأمويين فإن الحالة لم تتغير كثيرا عما كانت عليه من قبل ،
ذلك أن العرب والبربر كانوا يستطيعون إلقاء أسلحتهم بسبب الأحقاد
الدفينة بينهم .

يضاف إلى ذلك أن المولدين - وهم الأسبان الذين دخلوا الإسلام
حديثا - كانوا في صراع عنيف بين العرب والبربر على السواء تدفعهم
إلى ذلك النعرة القومية . وبينما كانت الأندلس تنعم في عهد عبدالرحمن
الأوسط سنة ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ بنوع من الإستقرار ، إذ تجددت الحركة
القومية ، غير أنها لم تكن صادرة عن المولدين بل إن مبعثها كان من
الأسبان المسيحيين وهم الذين يعرفون في تاريخ الأندلس بالمستعربين ،
وهي التي تعرف بحركة الاستشهاد وتزعمها أسقف قرطبة " يولوجيوس"
ومعه أسقف آخر يسمى " الفارو " وجاء إلى قرطبة سيل لا حد له من
المتطوعين المسيحيين يريدون القتال في سبيل المسيح . ويحملون
حملة شعواء على الإسلام والمسلمين ، وطبيعي أنهم لقوا من عبدالرحمن
جزاء وفاقا وهو الإعدام . وظلت هذه الحركة طيلة عصر عبدالرحمن
الأوسط وشطرا من عصر محمد الأول سنة ٢٣٨ - ٢٧٣ هـ (٨٥٢ -
٨٨٦ م) إلى أن أمر محمد هذا بقمع تلك الحركة بكل شدة وعنف
وقتل زعيمها يولوجيوس أسقف قرطبة سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) وقد بلغ
من قتل في هذه الحركة من المسيحيين أربعة وأربعين قتيلا (١)
وظلت الأندلس مضطربة حتى تولى الحكم " عبدالرحمن الناصر سنة
٣٠٠ - ٣٥٠ هـ (٩١٢ - ٩٦١ م) وكان هذا الأمير شجاعا مفوارا ،

(١) محمد الفندى ، وأحمد الشنتاوى : دائرة المعارف الإسلامية ،

فلم يكد يتولى عرش الأندلس حتى صمم على قمع الثورات التي خضبت أرض الأندلس بالدماء كما عزم على تحطيم الأرستقراطية العربية التي هدّت كيان الأندلس بالفتن الداخلية . ونفذ الخليفة برنامجه كاملاً إذ أنه في السنة الأولى من حكمه استولى على " إستجة " وقلعة " مونتليون " وأجبر البربر في الغرب على الطاعة . ثم سلمت له "إشبيلية " و "قرمونة " وبذلك أسدل الستار على عهد الاضطرابات مؤقّتا . (١)

وهكذا استطاع عبدالرحمن الناصر بفزواته التي دامت إحدى وعشرين سنة ، أن يخضع كل الثوار ويستتزلهم من معاقلهم وأن يعيد للأندلس وحدتها وأمنها واستقرارها .

ولم يقتصر نشاطه على غزواته تلك ، وإنما تجاوز إلى الإصلاحات التي اضطلع بها في شتى الميادين . ولم يشهد التاريخ الإسلامي عصراً أزهى من عصره ، وقد وافته منيته سنة ٣٥٠ هـ وهو في الرابعة والتسعين من عمره (٢)

وتولى الحكم المستنصر الخلافة بعد أبيه الناصر واتخذ جعفر المصحفي حاجباً له ، وجرى على رسم أبيه وطريقته ، حتى ليقال إن سياسته في مجملها كانت امتداداً لسياسة أبيه في الحكم .

وكان عصر الحكم بن عبدالرحمن سنة ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ (٩٦١ - ٩٧٦ م) من أزهى عصور الأندلس وأبهاها من ناحية العلوم والفنون ، ولم يكد يتوفى هذا الخليفة الوديع سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) حتى تولى عرش الأندلس فتى غر هو هشام المؤيد سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) - ٣٩٩ هـ وكان عصره هو العصر الذي نشأت فيه دكتاتورية بني عامر ، التي كانت من

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٩٥ ، ٢٢٣ -
٢٢٤ / دائرة المعارف الإسلامية ج ٢ ص ٨٨ ٦

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ص ١٩٧ - ١٩٩

العوامل التي أطاحت بعرش الأمويين (١) وذلك أن المنصور بن أبي عامر عندما رأى أمامه طفلاً صغيراً على عرش الأندلس تطلع إلى الاستبداد وأخذ بمعاونة السيدة صبح أم هشام يعمل للتخلص من الأشخاص الخطرين الذين كانوا يعترضون سبيله ، وكان عمله موجهاً في أول الأمر إلى صقالية القصر فأوعز إلى رئيسهم جعفر المصحفي فنكبهم وطردهم من القصر ، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون (٢) وبعد ذلك تحول إلى جعفر المصحفي وألقى به في غيابات السجن بتهمة الخيانة العظمى (٣) ثم انقلب على صهره " غالب مولى الحكم " وهو الذي مهد له السبيل لقتل جعفر المصحفي فقتله ومحا أثره .

وبهذه الطريقة تخلص من ابن عبد الودود ، وابن جهور ، وابن ذي النون وغيرهم من رؤساء العرب الذين نجوا من قبل عبد الرحمن الناصر (٤)

وكان لا بد للمنصور من قوة حربية عديدة ليرد بها هجمات المسيحيين في الشمال ، وليقمع بها الفتن في الداخل ولذلك اتجه به تفكيره إلى شمال أفريقية فاستجلب منها البربر من " صنهاجة " و" بني يفرن " و" بني برزال " وغيرهم من قبائل البربر (٥) بهذه القوة العتيدة كان المنصور ينزل الفرع والرعب في قلوب أعدائه في الداخل والخارج ، ففي الداخل تغلب على النزاع العربي وحطم الأرستقراطية العربية ، أما في الخارج فقد اصطدم مع مسيحيي الشمال وانتصر عليهم في عدة مواقع .

ويقال إن المنصور قد غزا اثنتين وخمسين غزوة من سائر أيام ملكه لم تنكسر

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٥٦ / ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ص ١٤٧

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٩ / نفس المصدر ص ١٤٧

(٣) نفس المصدر ج ٤ ص ١٤٧

(٤) نفس المصدر ص ١٤٧

(٥) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣٧٣ - ٣٧٤



له فيها راية ، ولا فل له جيش ولا هلكت له سرية (١)

أصبح المنصور هو الحاكم الأعلى في الأندلس كما أصبح الخليفة
الفتي (هشام الموءيد) في يده كالدمية يحركها كيفما شاء فحجبه
ومنع الناس من الاتصال به .

وهكذا تغلب المنصور على هشام الموءيد ، ومنعه من التصرف
واستولى على الدولة واستقل بالملك ، وبنى لنفسه مدينة سماها
" الزاهرة " ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ، وتسمى الحاجب
المنصور ، ومحا رسم الخلافة بالجمة ، وأمر أن يدعى له على منابر
الأندلس وكتب اسمه على السكة ولم يبق للخليفة هشام إلا السلطانية
الاسمية (٢)

وعلى الرغم أن سلطة المنصور كانت لا تقف عند حد إلا أنه لم يجزؤ
على التفكير في خلع الخليفة والجلوس مكانه على العرش واكتفى بلقب
" الحاجب المنصور " وكانت جميع الأعمال الرسمية تصدر باسم هشام
الموءيد .

وتوفي المنصور سنة ٣٩٢ هـ وخلفه ابنه عبد الملك فجرى على سنة
أبيه في الحجر على الخليفة ومنع الناس من الإتصال به وتلقب
بالمظفر وسيف الدولة . ويرغم أن المؤرخين يصفون أيام عبد الملك
هذا بأنها أعياداً ومواسم فان عصر عبد الملك كانت تتخلله معارضة
صامتة إحتجاجاً على تصرفات بني عامر الذين كان الشعب يمقتهم (٣)
وتوفي عبد الملك سنة ٣٩٩ هـ ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من
عمره . وخلفه أخوه عبدالرحمن بن المنصور ، وكان يلقب بشنجلول
وقد اتبع خطة أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام الموءيد ، وطلب

(١) ابن خلدون : البروديهوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ص ١٤٨ / المقرئ :

نفع الطيب ، ج ١ ص ٣٧٦ ، ٣٧٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٤٧ ، ١٤٨ / ونفع الطيب ، ج ١ ص ٣٧٤

(٣) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٣ - ٢٧

من الخليفة أن يوليه عهده . وكان الخليفة من الضعف بحيث خضع لأوامر عبدالرحمن فأصدر مرسوماً يجعل عبدالرحمن ولياً للعهد ، وكان هذا القرار الذي صدر من هشام بمثابة قبلة هطيرة انفجرت في الأندلس ، فلم يكد عبدالرحمن بن المنصور ينتزع من الخليفة ولاية العهد لنفسه ، ويخرج في إحدى الغزوات في الشمال حتى قامت الثورة في قرطبة ، وكان يتزعمها أمراء من البيت المالكي المحرومون من العرش يعضدهم في ثورتهم القبائل المضرية . وكان على رأس الثائرين محمد بن هشام ابن عبد الجبار بن عبدالرحمن الناصر . وقد أرسل ابن عبد الجبار قوة لمهاجمة قصر الخلافة ، واضطر هشام أن يتنازل عن العرش لابن عبد الجبار ولقب الخليفة الجديد بالمهدي سنة ٣٦٩ هـ (١٠٠٨ م) أما عبدالرحمن بن أبي عامر فإنه لم يكد يرجع من غزوته المشثومة حتى أُلقي القبض عليه ، على مسافة قريبة من قرطبة ، ثم قتل (١) .

وكان أول عمل قام به ابن عبد الجبار أن أخرج هشاماً المؤيد من قصره ، وسجنه في مكان خاص ، ثم أخرج رجلاً ميتاً اختلف في شخصيته وكانت هذه الشخصية تشبه هشاماً المؤيد شبهاً تاماً . وجمع حول الجثة القضاة والعلماء وكبار رجال الدولة ونعاه لهم على أنه هشام المؤيد بعينه قد توفي حتف أنفه ، ولم يكد أهل قرطبة يسمعون بموت خليفته حتى أسرعوا على مختلف طبقاتهم إلى قصر الخلافة حيث أقيمت صلاة الجنازة على روح هشام (٢) .

وكان من الأعمال الطائشة التي أقدم عليها ابن عبد الجبار عندما استتب الأمر له أن جلب سخط البربر الذين كانوا عماد ملكه . وكان

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥٠ - ٧٤ /

ابن خلدون : المعبر وديوان المتبدأ والخبر ، ص ١٤٩ - ١٥٠

(٢) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٧٧

رؤساء البربر قد لحقوا بالمهدى لما رأوا من سوء تدبير عبدالرحمن بن المنصور ، ولكنه لم يحسن معاملتهم ، وأهان بعض رؤسائهم ، وانتهى بهم الأمر بمبايعة رجل آخر من الأسرة الأموية ، وهو سليمان بن الحكم

ابن سليمان بن عبدالرحمن الناصر المطبق بالمستعين سنة ٣٩٩ هـ

(١٠٠٩م) وحاصروا ابن عبدالجبار بقرطبة . فلم يجد ابن عبدالجبار

حيلة يدفع بها دعوى سليمان المستعين سوى إظهار الخليفة المخلوع

هشام المؤيد الذي كان قد زعم أنه مات ، وأجلسه في مكان بارز من

شرفة القصر ، وأرسل إلى القاضي ابن ذكوان فأتاه فبعثه إلى البربر ليقول

لهم ما أنا بقائم دون هشام بن الحكم ونائب عنه كالخليفة والحاجب وهو

أمير المؤمنين ، فمضى ابن ذكوان إلى البربر وأدى لهم رسالته ، فقال له

البربر ، سبحان الله يا قاضي يموت هشام بالأمر وتصلي عليه أنت وغيرك

واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه وجعلوا يتضاحكون فاعتذر ابن ذكوان لهم

من ذلك (١) وظل البربر على تأييدهم لسليمان المستعين ، وانتهى

الصراع بين المهدي والمستعين بتغلب المستعين في النهاية ودخوله

قرطبة بعد مقتل محمد المهدي سنة ٤٠٣ هـ .

ولما دخل سليمان المستعين قصر قرطبة استدعى هشام المؤيد،

وعنفه على موقفه ، فاعتذر هشام المؤيد بأنه مغلوب على أمره ، وقد اختلفت

الروايات في مصير هشام المؤيد ، فيقول البعض أن سليمان أخفاه حينما

ثم قتله وهذا هو الصحيح ، وفي رواية أخرى أنه فر من سجنه إلى مكة

ثم عاد إلى الأندلس حيث أقام بقلعة رباح إلى أن استدعاه القاضي ابو

القاسم بن عباد وبايعه بالخلافة كما سيرد فيما بعد .

وعلى كل حال فابتداءً من هذا التاريخ وهو عام ٤٠٣ هـ (١٠١٣م)

أصبحت شخصية هشام شخصية خرافية ، فكم من مرة سنراه ميتا ثم يبعث

حيا .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٨٩ / ابن بسام : الذخيرة

وكان الذى وطد الأمر لسليمان هم البربر ، ولذلك نراه يعينهم في مناصب الوزراء والحجاب ، وكان من بين قواد جيشه أخوان ينحدران من نسل الأدارسة العلويين وهما : القاسم وعلي ابنا حمود . وقد أحسن سليمان الثان بهذين القائدين فضح عليا حكم سبتة وطنجة وضح القاسم الجزيرة الخضراء ، غير أن علي بن حمود لم يعترف بهذا الجميل ، فلم يكد يرى الأحوال تضطرب على سليمان حتى ثار على ولي نعمته ، وكاتب الموالى العامريين وأخبرهم أن هشاما المؤيد لما كان محاصرا بقرطبة كتب إليه يأمره بإنقاذه من أسر المستعين ويعهد إليه العهد ، وأجمعوا رأيهم على أن يجتمعوا بمالقة ، ومن هناك خرج علي بن حمود بمن معه من البربر والموالى العامريين وهاجم بهم قرطبة التي نادت به خليفة سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٦ م) ، (١)

وكان علي بن حمود يأمل أن يجد هشاما حيا ، فلما دخل القصر هو وخيران العامري وجدده قد توفي . وعلى الرغم من أن سليمان المستعين قد تبرأ من قتل هشام المؤيد إلا أن علي بن حمود قد قتل سليمان بن الحكم ، وقتل أخاه وأباه الحكم بن سليمان بن الناصر ، ولما لم يجد ابن حمود هشاما المؤيد أعلن وفاته وبيع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله ولم تطل مدة علي بن حمود في الخلافة أكثر من سنتين إذ قتله مواليه الصقالبة في الحمام سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٨ م) ثم خلفه أخوه القاسم صاحب الجزيرة الخضراء ولقب بالمأمون وكان حكم هذا الخليفة مشربا بالعدل فحكم قرطبة ما يقرب من سنتين بمنتهى الحكمة والعزم . غير أن تلك المدة لم تكن كافية لإرجاع الأمن إلى نصابه بالأندلس حيث قام نزاع جديد بين الأدارسة إذ بعد عامين من حكم القاسم بن حمود ثار عليه يحيى ابن أخيه سنة ٤١٢ هـ وزحف عليه من مالقة حتى اضطره إلى الفرار من قرطبة ودخل يحيى إليها فبيع بالخلافة وتلقب بالمعتلي (٢)

(١) ابن بسام : الذخيرة قسم ١ ج ١ ص ٢٦ / ابن عذارى المراكشي :

البيان المفرب ج ٣ ص ١١٣ ، ١١٧

(٢) ابن بسام : الذخيرة قسم ١ ج ٢ ص ١٢ - ١٣

أما عمه القاسم فقد لجأ إلى إشبيلية حيث بايعه بها القاضي أبو القاسم بن عباد ثم جمع حوله البربر وجاء بهم لحصار قرطبة فوجد ابن أخيه يحيى قد غادرها إلى مالقة ولذلك لم يجد مشقة في اقتحام قرطبة حيث جددت له البيعة . وبقي القاسم بقرطبة سبعة أشهر تخللتها اضطرابات مروعة وعلى أثرها اتفق القرطبيون على أن يعيدوا الخلافة إلى بني أمية . فطردوا القاسم من قرطبة سنة ٤١٤ هـ فخرج موليا وجهه ثانية نحو إشبيلية مؤملا أن يقابل بها كما قوبل في المرة السابقة ، ولكن ظنه قد خاب . فقد منعه أبو القاسم بن عباد دخولها .

أما أهل قرطبة فقد عهدوا بالخلافة إلى عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار وتلقب بالمستظهر سنة ٤١٤ هـ (١٠٥٣ م) ولكنه لم يبق طويلا حيث أعقبه خليفة آخر هو محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الناصر ويلقب بالمستكفي سنة ٤١٤ هـ - ٤١٦ هـ (١٠٢٣ - ١٠٢٥ م) ولم تطل مدته أكثر من سبعة عشر شهرا ثم خلفه آخر خلفاء بني أمية وهو هشام المعتد بالله سنة ٤١٨ - ٤٢٢ هـ الموافق (١٠٢٧ - ١٠٣١ م) وكان الذي استدعاه إلى عرش قرطبة الوزير أبو الحزم محمد جمهور بن محمد بن جمهور عميد الجماعة .

وبعد سنتين من حكم المعتد بالله ثار عليه جند قرطبة وأخرج من قصره عنوة في أسوأ حال فكان آخر خليفة أموي في قرطبة .

وبغلغ المعتد بالله اضمحل نفوذ قرطبة وسقطت دولة بني أمية فتساقطت أطرافها عن مركز الخلافة كما تتساقط أوراق الخريف .

وسرعان ما عزم أهل قرطبة على إلغاء الخلافة وأعلنوا حكما هو شبه بالحكم الجمهوري في عصرنا الحاضر ، وتزعم هذه الحركة بقرطبة الوزير ابو محمد جمهور بن محمد بن جمهور ثم أعلنت بقية الولايات الأندلسية استقلالها ، وبدأ ذلك العصر المعروف باسم عصر ملوك الطوائف .

الفصل الأول

=====

= الحياة السياسية =

= عوامل الانحلال والتفكك

= بنو جهور في قرطبة

= أسطورة هشام المؤيد

= بنو عباد في إشبيلية

= نظم الحكم في الممالك الأندلسية

عوامل الانحلال والتفكك

=====

لا نكاد نشرف على القرن الخامس للهجرة الموافق للقرن الحادى

عشر الميلادى حتى نرى شمس الخلافة الأموية في الأندلس تغرب

رويدا رويدا في عين حمئة من الفتن والاضطرابات. (١) إذ بموت

المنصور ابن أبي عامر سنة ٣٦٢ هـ ، ومقتل ابنه عبدالرحمن الحاجب

ابن المنصور ، ذهبت الدولة العامرية كأن لم تكن ، ثم عادت السلطة

إلى البيت المرواني ، وتعاقب فيها خلفاء مستضعفون ، إلى أن انتهت

بخلع هشام المعتد بالله سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م ، فكان آخر خليفة

أموى في قرطبة . وبخلع أهل قرطبة له ، انقطعت الدولة الأموية من

الأرض ، وانتشر سلك الخلافة بالأندلس وبانقراض الخلافة الأموية قامت

دول الطوائف من أمراء ورؤساء البربر والعرب والموالي يقتسمون خطط

البلاد ، ويبدأون في تاريخ الأندلس عصرا جديدا هو عصر ملوك

الطوائف (٢)

والواقع أن عصر ملوك الطوائف قد بدأ قبل هذا التاريخ بنحو

عشرين سنة وعلى التحديد بعد زهاب دولة المنصور بن أبي عامر ،

وقيام الصراع بين أمراء المروانيين على الخلافة .

وكان من نتائج هذا الصراع الذى زاد من ضعف الدولة وقُتل

من هيبتها في الداخل والخارج ، أن أغرى الطامعين فيها وجراً هم

عليها ، ومن ثم أخذ يفتنم هذه الفرصة المتاحة كل من يأنس في نفسه

القدرة من رؤساء الطوائف من العرب والموالي ، فيستقل بإمارته ،

ويسمىها دولة ينصب نفسه ملكا عليها ويتخذ من أهم مدينة فيها عاصمة له .

ولم تكن الدولة الأموية تبلغ نهايتها وينفرط عقدها ، حتى استعالت

إلى دول كثيرة صغيرة ، يحكمها ملوك عرفوا في تاريخ الأندلس بملوك

(١) شوقي ضيف : ابن زيدون ، ص ٥

(٢) عبدالعزيز عتيق : الأئب العربي في الأندلس ص ٩٢

الطوائف. ومن دول الطوائف ما دام حكمها نحو قرن وثلاث قرن كدولة بني هود ، وما دام نحو قرن كدولة بني رزين ، وما دام نحو ربع قرن كدولة بني مزين ، أما زمن الحكم في بقيتها فيزيد أو ينقص قليلا عن نصف قرن ، وفيما يلي أهم هذه الدول : (١)

دولة بني هود :

في سرعسطة وما إليها ، ودام ملكها من سنة ٤١٠ / ١٠١٩ م إلى سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) وهي دولة عربية ، ومن أشهر ملوكها المقتدر بالله وكان شاعرا ، وابنه يوسف الموءمن كان عالما بالرياضيات ، وله فيها تاليف ، منها كتاب الاستكمال والمناظر .

بنو زيري :

استقلت في غرناطة سنة ٤٠٣ هـ وهي دولة بربرية ، ظل ملكها إلى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م)

بنو حمود :

وهم ينتمون إلى علي بن حمود الحسني من عقب ادريس ملك فاس وبانيها . وقد عبر علي بن حمود مع البربر من المغرب إلى الأندلس بقصد إقامة دولة علوية فيها ، وهناك دعا لنفسه بالخلافة واستطاع أن يستولي على قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) وأن يقتل خليفة الأمويين سليمان المستمين ، وأن يلي الحكم بعده ويلقب نفسه بالناصر ، ولكن بعد سبع سنين من حكمه رجع الملك إلى بني أمية ، ثم عاد هو فاسترجعه منهم لمدة عامين ، إلى أن قتله صقالبته بالحمام فولني مكانه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون .

وقد تعاقب على الحكم في دولة بني حمود العلوية أحد عشر ملكا ،

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ، القسم الأول ، المجلد الرابع ص ٣٣٦ - ٣٥٠ دولة الاسلام في الأندلس (عصر دول الطوائف) / تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج ١ ص ٣٠ - ٤٨ .

وتنقلوا بين قرطبة وطالقة والجزيرة الخضراء (١) ، ثم انقرضت دولة
الأشراف الحموديين بمقتل آخر ملوكها القاسم الواصل سنة ٤٥٠ هـ
(١٠٥٨ م) ، بعد أن كانوا يدعون الخلافة ، وصارت الجزيرة الخضراء
من بعدهم للمعتضد بن عباد .

وكان إدريس بن يحيى أحد ملوك الحموديين أدبياً جيد الشعر .

بنوعاصر

من أعظم ملوك الطوائف الموالي الحامريون ، وكانت حاضرتهم
بلنسية ، ومنهم زهير الحامري الذي أخرج المؤيد " هشام بن الحكم " من
" المرية " عندما ظهر بعد اختفائه وانقطاع أخباره . وقد حكم بنو
حامر من سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) إلى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) .

بنو الأقطيس

وهم من مشاهير ملوك الطوائف ، وينتمون في الأصل إلى بربر
مكناسة ، وحاضرتهم بطليوس و حكموا من سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) إلى سنة
٤٨٤ هـ (١٠٩٢ م) . ولدولة بني الأقطيس أثر في نهضة العلوم والفنون ،
ومنهم ابن الأقطيس المطبق بالمظفر ، صاحب التاريخ المسمى " بالمظفر " وكان
المتوكل ابنه في بطليوس كالمعتد بن عباد بإشبيلية ، وقد قتل
على يد جيش يوسف بن تاشفين ، ومن قبله قتلوا ولديه وهو ينظر إليهما ،
وفي رثائه ورثاء ملوك بني الأقطيس ، قال ابن عبدون راعيته المشهورة وهي
من غر القصائد الأندلسية والتي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصور ؟

بنو ذي النون

في طليطلة ، ودام ملكهم من سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) إلى سنة
٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وأصلهم من بربر المغرب ، وكانت لهم دولة كبيرة ،
وبلغوا في البذخ والترف الفاية .

بنو عباد

وهم ملوك إشبيلية وغرب الأندلس ، حكموا من سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) إلى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، وكانت دولة بني عباد من أبهج الدول كرما وفضلا وأدبا . ومن ملوكها المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف ، وأكثرهم بلادا . واجتمع له من الشعراء وأهل الأديب ما لم يجتمع لملك قبله من

الملوك

وسنتناول دولة بني عباد بشيء من التفصيل في الصفحات القادمة

حيث قضى شاعرنا فيها معظم حياته ولعب دورا في أحداثها .

بنو جههور

=====

قامت دولتهم في قرطبة بعد سقوط الخلافة الأموية ، وحكموا من سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) إلى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) ، وأول ملوكهم أبو الحزم ابن جههور ، وقد لعب ابن عمّار دورا هاما في أحداثها وخاصة في عهد المعتمد بن عباد عندما أراد ضم قرطبة إلى مملكة إشبيلية .

وسنتناول ذلك بشيء من التفصيل عند الحديث عن حياة ابن عمّار .

وهكذا أثارت الأحداث الخطيرة التي حدثت في أوائل القرن الخامس الهجري في الأندلس ، والتي كان من نتائجها انحلال الخلافة في قرطبة وابتداء فترة ملوك الطوائف ، كثيرا من الدهشة والاستغراب وسبب كثيرا من الجدل والنقاش وما كانت هذه الأحداث التي استمرت قرابة عشرين عاما والتي أطلق عليها المؤرخون المسلمون " اسم الفتنة " (١) لتحصل على ما حصلت عليه من أهمية واهتمام لولا أنها جاءت بعد بلوغ الخلافة في الأندلس ذروة العظمة والمجد ولولا أنها تلت فترة منعة وازدهار سياسي وانتصارات خارجية رائعة واستتباب داخلي تام تقريبا ، فقد أعقبت مباشرة عصر حكم المنصور بن أبي عامر وابنيه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن

شعول الذين كانوا يحكمون البلاد خلف واجهة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن

(١) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام في الأندلس (ص ١١)

الناصر ، هذا العصر الذى يعتبر عصر عظمة المسلمين في الأندلس ومجد هم السياسي والعسكري الزاهر .

كيف جاز لدولة قوية منيعة كتلك التي بناها عبدالرحمن الناصر وسندها الحاجب المنصور وابنه المظفر أن تنهار وتتداعى فجأة ولم يمض على وفاة الأخير غير عامين ، لم يلحظ قبلهما في الدولة أى أثر من آثار الضعف أو علامة من علامات الوهن ، كما يجمع تقريبا معظم المؤرخين . صحيح أن مطالب كثيرة تعزى إلى عبدالرحمن بن أبي عامر الذى خلف أباه عبدالملك المظفر ، ولكن سنتين اثنتين ليستا كافيتين على كل حال لتصدع بناء متين وكيان قوى كالذى بدأ في دولة عبدالرحمن الناصر وخلفائه من بني عامر ، فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة التاريخية الغريبة . إن من المؤكد أن أسباب هذا التصدع لم تكن خارجية ، إذ لم تكن الدولة الإسلامية في الأندلس فريسة عدو خارجي هدد كيانها وصدع أركانها ، إنما انهارت وتداعت نتيجة أسباب داخلية ليس غير ، ولا شك أن هذه الأسباب الداخلية لم تكن وليدة عام أو عامين ، وإنما كانت جذورها تمتد مغلطة في كيان الدولة ، إلا أنها لم تكن ناضجة متبلورة (١) لكي تحدث ما يجب أن تحدثه من نتائج ، أو أن عوامل أخرى أقوى منها ضمنت ظهورها وأوقفت مفعولها ، حتى إذا زالت هذه العوامل أو ضعفت انفسح المجال لأسباب التصدع والإنهيار لتتوالت أكلها وتنتج ثمارها .

لقد كانت القوى الاجتماعية التي استند إليها العامريون غير متماسكة (٢) فالأرستقراطية القرطبية كانت منقسمة على نفسها ففريق التف حول بني عامر ، وفريق تجمع حول بني أمية الذين كانوا ينظرون بغيظ إلى استئثار العامرين بالحكم ، وكانت العامة ، كما هو

(١) محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ١١

(٢) نفس المرجع : ص ١٢

شأنها في أكثر الأحيان بمصر عن الحكام وقد ابتداء موقفها السلبي يتحول إلى تمرد ايجابي عندما ابتدأت تضيق بالبربر من زناته وصنهاجة الذين استقدمهم بنوعام لاستخدامهم محاربين ممتحنين في غزواتهم ضد نصارى الشمال ، فكانت على استعداد للاستجابة لكل دعوة للثورة عند سنوح الفرصة .

أما القوى العسكرية التي كان يعتمد عليها العامريون وجليها من البربر (١) القادمين من أفريقية الشمالية ، فقد بدت هي أيضا بعيدة عن أن تكون موضع ثقة في نزاع داخلي لا ناقة لها فيها ولا جمل لذا لم يكن من المستغرب أن لا يبدى البربر حماسا في الدفاع عن عبدالرحمن بن أبي عامر عندما ثار ضد أمراء بني أمية بقيادة محمد بن هشام بن عبدالجبار المهدي وساندتهم العامة في قرطبة في ثورتهم وفي تنكيلهم بابن أبي عامر . فقد فضل زاوي بن زيري قائد البربر عدم الدخول في نزاع دام للدفاع عن بني عامر وأثر تقديم طاعته للملك الجديد إلا أن البربر لم يستطيعوا الاحتفاظ بموقفهم هذا ، فقد كانوا موضع نقمة العامة واعتداءاتها ، كما لم يحفظوا بتقدير الأمير الجديد ورعايته ، وكتب التاريخ حافلة بالشواهد على هذه الحال ، فاندفعوا لتأييد طامع جديد بالعرش هو سليمان ابن الحكم الذي لقب نفسه بالمستعين وهكذا دخلوا في معركة سافرة مع القرطبيين سالت فيها الدماء ، وانتهبت الأموال وخرّبت المنازل والبيوت ، ومرت عشرون عاما على المصاصة الأندلسية وهي مسرح لهذا النزاع المرير توالى فيه الحديد من الطامعين في العرش ، يسند فريقا منهم القرطبيون ، ويسند الآخريين منهم البربر ، ولم تنته هذه الفتنة إلا بترك البربر لقرطبة والتجأهم إلى منطقة غرناطة حيث أقاموا دولة بتسي زيري (٢) وإلى حصون ومناطق أخرى ظلوا فيها يقاومون من حولهم من أمراء الأندلس إلى أن تداعى حكم أكثرهم تحت ضربات بني عباد بإشيلية .

(١) محمد عبدالله عنان : دولة الاسلام في الأندلس ص ١٢

(٢) نفس المرجع : ص ١٤

أما القرطبيون فقد اتفق وجهاءهم على إدارة شؤنهم بأنفسهم
والمدول عن انتخاب خليفة جديد بعد اختفاء آخر الخلفاء المسمى
هشام المعتد بالله سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) .

إذن من عرضنا للأحداث السابقة يمكننا أن نجل عوامل الانحلال
فيما يلي :

- ١- أن شخصية الشعب بدأت تظهر وتملي إرادتها فتعزل الخلفاء
وتغير الأسرات الحاكمة وتثور مدافعة عن كيائها وإنقاذ مشيئتها .
- ٢ - ظهور الطابع الإقليمي حيث تغلب البربر على بعض الأقاليم
والصقالبة على بعضها وكذلك العرب من مزيين وقحطانيين .
- ٣ - بلوغ التناحر العنصري شأوا من العنف جاء كل حد من دين
أو خلق أو تقاليد .

فإن تحليلاً دقيقاً لهذا المجتمع والعناصر المكونة له والمسيطرة
عليه لا يترك مجالاً للشك في تفككه وعدم تماسكه ، وتاريخ المسلمين في
الأندلس كله شواهد على ذلك .

- ٤ - تطور المجتمع الأندلسي ، فإن خضوع المدن الأندلسية الكبيرة
الحصينة لقرطبة لم يعد ممكناً بعد أن تطورت هذه المدن ونشأت فيها
أرستقراطية محلية مستقرة ، عميقة الجذور ذات حول وطول ، كما لم يكن
لدى قرطبة من القوة ، ما تستطيع فرض سلطانها على هذه المدن ،
فكان طبيعياً استقلال المدن الكبيرة وإصرارها على إدارة شؤنها
بنفسها . وشعورها بإمكانية الاكتفاء بنفسها والاستغناء عن أية سلطة
مركزية ، وهكذا استأثر وجهاء إشبيلية وعلى رأسهم بنو عباد بالحكم
في مدينتهم وفصل مثلهم بنو جمهور في قرطبة وغيرهم من وجهاء المدن
وحكام الحصون كما ذكرنا ، وابتدأ نزاع دام مرهراً بينتلق القوى فيه الضعيف
حتى بدا خطر النصارى في الشمال وتعاضم وأصبح هذا النظام الذي
عرف بملوك الطوائف ، غير قادر على الثبات أمام الوضع السياسي
في أسبانيا لاختلال ميزان القوى فيها ، فكان لا بد أن ينتهي وكان أن

ساعد على إنتهائه تدخل المرابطين في الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى .

ولم يكن هذا الإنحلال السياسي لدولة قرطبة ظاهرة من ظواهر الإنحلال الاجتماعي أو الفكرى ، فقد صاحبه على العكس من ذلك ازدهار فكرى ، بل وتطور اجتماعي نضج على أثره المجتمع الأندلسي واكتسب صفاته المميزة وشخصيته الخاصة .

ولأن يهنا أن نلقي نظرة على المملكتين المرينيتين بقرطبة ولشبيلية حيث طوى شاعرنا ابن عمار فيهما شطرى حياته وأسهم في أحداثهما التاريخية أيما إسهام .

ولسنا بسبيل الدراسة التاريخية الدقيقة لهذه الأحداث لأن هذا يخرج بنا عن منهجنا الأصيل ، وكل ما يهنا هنا أن نعرف كبريات الحوادث ذات الأثر المهم في هذه الفترة وبخاصة ما يمس الشاعر منها في الصميم .

بنو جمهور في قرطبة :

=====

تكتل الشعب القرطبي لدفع الظلم وأذكى فيه هذه الروح زعماءه من علماء الدين ورجال الأدب واستطاعوا أن يستميلوا شابا مخاطرا أمويا اسمه أمية أطمعوه في الخلافة ثم استغلوا اسمه في إسقاط المعتد بالله فلما تم لهم القضاء عليه استطاعوا أن يصرفوا أمية وأعلنوا انتهاء الخلافة الأموية وقيام الحكم الجمهوري بزعامة أبي الحزم بن جمهور ونودي بالارياض والأسواق ألا يبقى أحد من بني أمية بقرطبة ، ولا يكتفهم أحد ، وفر أمية من قرطبة ثم حاول العودة إليها سنة ٤٢٥ هـ فأخرج إليه شيوخها من قتله قبل دخولها ، وبهذا استتب الأمر للحكومة الجمهورية الجديدة .

أبو الحزم بن جمهور :

ولي الحكم بقرطبة في منتصف ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ واستمر حكمه حتى توفي ليلة السادس من محرم سنة ٤٣٥ هـ كما يروى معاصره ابن حيان (١) ولم يكن اختيار أهل قرطبة له اعتباطا فانه كان ينحدر من سلالة نابهة ولي أفرادها الوزارة منذ عهد عبدالرحمن الداخل ، ولهذا سماه ابن الخطيب شيخ الجماعة وبقية الأشراف من بيوت الوزارة (٢) وما زالت الوزارة تنتقل في هذه الأسرة إلى أن استتب له الأمر بقرطبة وقد تتبع ابن الأثير تاريخهم كابرا عن كابر ، وكان ابن جمهور عالما من أجلة العلماء وقد تتلمذ له أبو عبد الله محمد بن عتاب الفقيه وكان يصبر عنه بقوله حدثنا ثقة من الشيوخ الأكابر (٣) واستطاع بلباقته ودعائه أن يجذب إليه القلوب ، وكان بعيد النظر فلم

(١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١ ج ٢ ص ١١٧ / ابن عذاري المراكشي :

البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٥٠ - ١٥٢ ، ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٤٧

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، قسم ٢ ، ص ٥٤٤

يشارك في الفتن المتلاحقة والثورات المتتالية التي نشبت بين العرب والبربر أو بين المؤمنين وبني حمود بل ترك هذه الثورات حتى التهمت زعماءها وهو متمسك بالتصون والعفاف فاتجهت إليه الأبصار والتفت حوله القلوب ركونا أنه بعيد عن المطامع والأهواء وأنه عف اليد واللسان وهنا سنحت أمامه الفرصة ولكنه مبالغته منه في الحرص والحذر لم يفتنهما بل أشار على أهل قرطبة باختيار هشام المعتد بالله وكان على ثقة من أن الأمر سينتهي إليه ولو بعد حين فإذا تعفف عنه زادت الرغبة فيه ، فلما سمى الحكم إليه رفضه أولاً فلما ألح عليه أهل قرطبة في ذلك قبل مباشرة السلطة على أن يكون إلى جانبه في الحكم ابنا عمه محمود بن عباس وعبد العزيز بن حسن فوافقه أهل قرطبة على أن يكون صوتاهما للشورى فقط (١) ويظهر أنهما كانا مظهرين صوريين إلى جواره وإن كان يعملن للناس أنه لا بيت في أمر ولا ينظر في موضوع إلا إذا كان موجها إليهما معه ومتى سئل قال ليس لي عطاء ولا منع هو للجماعة وأنا أمينهم (٢) ولعله كان يشفق أن تقوم ثورة جائحة تلتهمه كما التهمت سواه حيث اشترط في قبول الحكم أن يليه إلى جواره جماعة عينهم (٣) ومن دهاء ابن جهور أنه أمسك زمام الحكم بيد قوية هازمة دون أن يتخذ أي مظهر من مظاهر السلطان ، فلم يتحول عن داره المتواضعة بل جعل نفسه أمينا على الموقف إلى أن يجيء من يتفق الناس على إمارته (٤) وتحقيقا لهذا الغرض رتب الحشم والبوابين على قصور الإمارة ولم يفكر في الانتقال إليها (٥) ولم يقبل أن يكون بيت المال تحت إمرته .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١ ، ج ٢ ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٨٦

(٣) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٢٢ - ٢٥

(٤) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٣٢

(٥) نفس المصدر : ص ٣٢

ولما استتب الأمر لابن جهور قام بإصلاحات عديدة فسم الرخاء واستتب الأمن وتوافد الناس على قرطبة حتى كاد يتم إصلاح ما أفسدته الثورات فيها (١) وهو إلى هذا جم التواضع يشهد الجنائز ويقود المرضى جريا على سنة الصالحين ويؤذن بمسجد الرض ويصلي التراويح . (٢)

ولم تتغير أحواله قبل الحكم ولا بعده ولا بين شبابه وكهولته (٣)

ولم يكن يشغل باله أكثر من غيره إلا أمران أولهما خاص به وهو إنماء ثروته وقد نجح في هذا حتى أصبح أغنى رجل في قرطبة (٤) وقد بالغ في الحصول على هذه الثروة وتتميتها حتى رماه الناس بالبخل الشديد والمنع الخالص للذين لولاهما ما وجد عائبه فيه مطعنا ولا كمل لو أن بشرا يبلغ الكمال (٥) ، أما الأمر الثاني فيتعلق بمصلحة عامة وهي إدارة الطامعين في قرطبة من ملوك الطوائف أو المتطلعين إليها من بقايا بني أمية ، وقد استطاع بحفكته ودهائه أن يعقد صلات ودية مع كثيرين من ملوك الطوائف وطالما سعى في الصلح بين المتنازعين منهم (٦) فإذا أشفق من أحدهم دفعه بغيره . ولم يأمن من جانب الأمويين فقد نفاهم عن قرطبة ودس إلى أمية من قتله حين بلغه سعيه إلى قرطبة (٧) أما أخطر ما شغله فهو ما أسماه المؤرخون أسطورة هشام المزعوم .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١ ج ٢ ص ١١٦ ، ص ١١٧ /

ابن خلدون : ديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ، ص ١٥٩

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٩

(٣) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٨٦ /

ابن الخطيب : أعلام : ج ٢ ص ١٤٨

(٤) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٢٤ ، ص ٢٥

(٥) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٨٦

(٦) نفس المصدر : ص ١٧٢ ، ١٨٧

(٧) نفس المصدر : ص ١٨٧

أبو الوليد بن جهور :

ولد في ذى القعدة سنة ٣٩١ هـ وولي الأمر في محرم سنة (١) ٤٣٥ هـ ، فسار على منهج أبيه في الحكم غير مغل بشيء مما أمضاه فأقر الحكام وذوى المراتب على ما كانوا عليه في أيام أبيه ثم اقتفى آثاره السياسية في درء الحد بالشبهة ما وجد إلى هذا سبيلا محتجا بعدم وجود الإمام المجمع عليه . (٢) وكان متسامحا متساهلا يعطف على الناس ويفسخ لهم صدره ويحاول جهده أن يتجنب الاشتباكات الحربية فأحسن صلاته بالملوك المجاورين وكان يبذل وساطته في الإصلاح بينهم فتوسط في الخلاف الناشب بين المعتضد صاحب إشبيلية والمظفر صاحب بطليوس فاستطاع أن يصلح بينهما سنة ٤٤٣ هـ بعد حروب دامية ، وكانت قرطبة مأوى الأمراء المخلوعين يجدون في ظلالها برد الراحة والأمان وروح المطف والحنان ، ومن أشهرهم ابن سابور أمير أشبونة واليحصبي أمير لبلة وابن أخيه (٣) وكان ابن جهور لرؤساء الطوائف بمنزلة الأب يفصل بينهم في القضايا ويشفع في الحوائج ويصلح بينهم في المنازعات (٤) .

ولكنه كان يواجه خطرا خارجيا يطالعه من ناحية المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة وحليفه هذيل صاحب شنتمية الشرق (السهلة) وكان أبو الحزم بن جهور قد ضمها إلى قرطبة ثم استردها هذيل بمساعدة ابن ذى النون . وقد حاول أبو الوليد بن جهور أن يسالهما فرفضا مسالته بإباء فظلت المناوشات قائمة بين الفريقين وكادت قرطبة تسقط في يد المهاجمين لولا مهاجمة فرديناند الأول ملك قشتالة

(١) ابن بشكوال : الصلة ، قسم ٢ ، ص ٥٤٦

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١ ، ج ٢ ، ص ١١٩

(٣) ابن عذارى المراكشي : البيان المصرب ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ ، ٢٤٠

٢٤١ ،

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٤٨ / ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١

ج ٢ ، ص ١١٧ - ١١٨

وليون لإقليم طليطلة فنجت قرطبة حتى حين (١) وقد وزر له ابن السقاء فأحسن القيام على وزارته وديرها خير تدبير ، ثم شعر ابن جمهور بالضعف فأناب عنه ولديه فعهد إلى عبدالرحمن أمر الجباية والإشراف على أهل الخدمة والتوقيع في الصكوك السلطانية المتضمنة للحل والمقد وجميع أبواب النفقات ، وجعل إلى ابنه الأصغر عبدالملك النظر في الجند وجميع ما يخصهم (٢) ، وقد طفى عبدالملك على سلطان أخيه الأكبر وامتد طغيانه إلى وزير أبيه ابن السقاء ، وكان المعتضد يتشوق إلى قرطبة ، فدرس المعتضد إلى عبدالملك من أغراه بالفتك بابن السقاء ففعل وبهذا أصاب المعتضد عصفورين بحجر واحد فقد أزاح من طريقه ابن السقاء الذي كان يباشر الأمور بحفكة ودهاء وحسن تدبير ثم أفلح في إثارة شيوخ قرطبة وزعمائها على عبدالملك لاغتياله هذا الوزير المحبوب ولإمعانه في الظلم والفسق والفجور ، وكان المأمون بن ذى النون يرقب هذا الموقف بعين نفاذة فرأى أن يسبق ابن عباد إلى احتلال قرطبة فهاجمها سنة ٤٦٢ هـ وملك حصن المدور وضرب الحصار عليها فاستخاف عبدالملك بالمعتمد بن عباد وكان قد ولي الأمر بعد أبيه المعتضد ، فأغاثه وبعد أن دفع شر المأمون استولى على قرطبة بمساعدة أهلها ونفى بني جمهور جميعا إلى جزيرة شلطيخ وكان الشيخ أبو الوليد مفلوجا فمات بعد أربعين يوما من مفاه (٣)

أما أخلاقه فكانت سهلة سمحة وكان إلى هذا صاحب مروءة وأريحية وبخاصة مع العلماء (٤) وكان تقياً ورعاً يقول ابن بشكوال " كان حافظاً للقرآن مجوداً بحروفه كثير التلاوة له معنيا بسماع العلم من الشيوخ

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج ١ ، ص ٤٢ ، ٤٥

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١ ج ٢ ص ١٢٢

(٣) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦١

(٤) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١ ج ٢ ص ١١٨

وروايته عنهم سمع بإشبيلية علما كثيرا ورواه وقرأت تسمية شيوخه المذكورين قبل هذا بخط يده وفيه تسمية ما سمع عنهم ، فرأيت فيها كتبا كثيرة تدل على العناية بالعلم والاهتمام به " (١) وفي عهده حاول ابن المرتضي الأتوي أن يقوم بفتنة بقرطبة فاكتفى بطرده منها دون أن يفتك به ، وفي هذا دليل على ما فطر عليه من أريحية ونبل وإحسان . هذه صورة موجزة لحكم بني جمهور بقرطبة جانبنا فيها التفصيلات المسهبة والخلاف في الروايات المتناقضة واكتفينا بالخطوط الرئيسية ، أما دور ابن عمار فقد لعب فيها دورا مهما عندما حاول طيحه المعتمد ضمها إلى مملكة إشبيلية وسنعود إلى الحديث عن هذا الدور في ترجمتنا لحياته بالتفصيل .

أسطورة هشام الموءيد

=====

ادعى القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد عام ٤٢٦هـ الموافق ١٠٣٥ م أنه عثر على الخليفة الأتوي هشام الموءيد الذي قيل إنه قتل في بداية الفتنة على يد المهدي الناصر ضد بني عامر ولكنه عندما ارتقى سليمان المستعين إلى عرش الخلافة وجد أن هشاما لا يزال حيا فقيل إنه هو الذي قتله ، ولكنه قتله لم يكن علنا أمام الناس ، (٢) وفي رواية أخرى أنه فر متقلا في الأندلس من بلد إلى بلد حتى استقر بقلعة رباح ، وفي رواية ثالثة أنه فر إلى آسيا حيث مات مجهولا بها ، وفي رواية رابعة أنه فر إلى مكة وقاسى الشدائد والأهوال وامتنع المهن اليدوية الحقيرة ثم عاد إلى الأندلس حيث اشتغل بقلعة رباح بعد ٢٢ سنة من اختفائه ، والأرجح أن الذي

(١) ابن بشكوال : الصلة ، قسم ٢ ص ٥٤٦ ، ٥٤٧

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ج ١ ص ١٦ ، ١٧ /

ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠

ظهر بقلعة رباح رجل حصري اسمه خلف الحصري يشبه هشاما تمام
المشابهة ، وقد نفى الأمويون من شيعه هشام ومعه ابن حيان وابن حزم
المؤرخان ما دار حول هشام المزعوم من الروايات والأراجيف (١)
ووجد القاضي ابن عباد في الفصوص الذي أحاط بنهاية هشام فرهمة
نادرة جديرة بأن تنتهز فاستدعى خلفا إلى إشبيلية وبايعه بالخلافة ،
وجعل ابنه اسماعيل حاجبا له وأشهد على صحة أصالة هشام من في بلاطه
من نساء هشام وأقعدته في قصره وأسدل عليه ستارا وأخذ له بيعة
رجال الدولة ومن أبى الشهادة حاط به البلاء فمضهم من يصبح
مقتولا في داره ومضهم من ينفي من بلده (٢) فلما اطمأن لدعوته
أرسل إلى ملوك العرب والصقالبة يدعوهم إلى مبايعته والانضواء تحت
لوائه وكان كثيرون قد ضاقوا ذرعا بالفتن المتلاحقة وأشفقوا من طمع
المسيحيين وضروا البربر فأروا في هذه الدعوة نواة لحلف عربي
صقلي متماسك فاستجاب لهذه الدعوة عبد العزيز أمير بلنسية ومجاهد
أمير دانية وليبب الصقلي صاحب طرطوشة ومحمد بن عبد الله البرزالي
أمير قرمونة اللاجئ إلى إشبيلية . (٣)

وبالرغم أن الشك كان كثيرا في ادعاء حاكم إشبيلية فان الأمراء
الأندلسيين أرسلوا رسلهم للتأكد من شخصيته . وقيل إنه عرض
عليهم في غرفة مظلمة ، وأنه كان شديد الشبه بالخليفة الأموي ، وان
قسما من جوارى القصر القرطبي وعبيده قد شهدوا بأنه هو ، بالرغم
من كل هذه الثقولات والشكوك فقد وجد قسم كبير من ملوك الطوائف
الفرصة سانحة للتخلص من نير بني همود الذي اضطروا إليها اضطرارا .
ويبدو أن أكثرهم اعترفوا ردها من الزمن اسميا بالخليفة المقيم في إشبيلية

(١) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٣١ - ٣٤

(٢) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٠٠

(٣) دوزي : ملوك الطوائف : ص ٣٤

وذكروا اسمه على المنابر ، بل يقال إن احتفالا رسميا جرى في جامع قرطبة نفسه بمناسبة رجوع الخليفة الشرعي والظاهر ما يرويه المؤرخون أن فريقا من الناس صدقوا ادعاءات ابن عباد واعتقدوا بها (١) بل أن مؤرخا كابن فياض كان يعتقد هو أيضا بأن هشاما هذا ما هو إلا الخليفة هشام بن الحكم نفسه .

وما كان يحيى بن حمود يرى تفاقم خطر ابن عباد وخطر دعوته للخليفة المزعوم على مركزه المصنوى والمادى المتضعضع في الأندلس ، حتى قرر وضع حد لخطرهما وإزالتهما من الوجود .

أما أهل قرطبة فانهم تلقوا خبر دعوة هشام مقرونا بالفرح غير أن زعيمهم أبا الحزم محمد بن جمهور لما جاءته كتب ابن عباد تطلب منه الدخول في طاعة هشام امتنع عن ذلك وحذر أهل قرطبة من تموهيات ابن عباد ، فما كان من ابن عباد إلا أن جرد حملة على قرطبة فقام ابن جمهور بالدفاع عنها وظل ابن عباد طيلة يومه محاصرا لها ولما أعياه الانتظار فك الحصار عن قرطبة ورجع إلى إشبيلية ومع ذلك لم يكف عن أذى أهل قرطبة ومناوأتهم ، ويظهر أن أبا حزم محمد بن جمهور رأى أن يتحاشى الاصطدام مع ابن عباد في الوقت الذي كان فيه يحيى بن حمود الأندلسي فاغرا فاه يريد أن يبتلع قرطبة ، لذلك بادر بالإعتراف بهشام وجدد له البيعة في قرطبة ، فالحقيقة أن ابن جمهور كان يرى في هذه الدعوة قضاء على سلطانه بقرطبة وبخاصة إذا انتقل إليها الخليفة المزعوم فضايق بهذه الدعوة ذرعا ولكنه اضطر إلى مجاراتها مؤقتا لأسباب نستطيع أن نرجعها إلى أنه كان يخشى دعوة بني حمود الملوية فأراد دفعها بدعوة أموية ، ثم إنه كان يعمل دائما أنه حاكم مؤقت يباشر السلطة حتى يجتمع الناس على إمام وقد

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٩٨

جاء الإمام ، ومنها أن شيوخ قرطبة وأعلامها كانوا يؤيدون هذه الدعوة ويرون فيها ضما للشمل ورأيا للصدع ، ومنها أن ابن عباد كان مستعدا لتأييد هذه الدعوة بحد السلاح وقد ضايقه تردد ابن جمهور في الاستجابة لدعوته .

إزاء هذه العوامل جميعا اعترف ابن جمهور بدعوة هشام على مضض سنة ٤٣٩ هـ فتلقى أهل قرطبة هذا الاعتراف منه بالاستهزاء والفرح على الرغم من تحذير ابن جمهور لهم (١) ثم وقف متربصا وترك أعداءه يأكل بعضهم بعضا وأخيرا أفلح في اقناع أهل قرطبة بأن هشاما دعي مزيف فلما استجابوا له نقض بيعة وسب من سببه (٢) ويروى أشباخ أن القاضي ابن عباد أعلن في أخريات حياته أن هشاما قد مات وعهد إليه بولاية عهده (٣) وهو ادعاء سبق أن نادى بمثله علي بن حمود سنة ٤٠٧ هـ (٤) ولكننا نعلم أن حياة هشام المزعوم امتدت بعد وفاة القاضي ابن عباد وحكم ابنه المعتضد حتى ألفاها الأخير سنة ٤٥١ هـ (٥) ، ونعلم إن كثيرين من شيوخ قرطبة لم يوافقوا ابن جمهور على نقض بيعة هشام المزعوم ففروا إلى إشبيلية ومنهم أبو بكر عبدالله القرشي التميمي أحد المفتين بقرطبة ممن له وجهة بها وكان أحد الدعاة للشبيه الدعي القائم بها باسم هشام المخلوع ومن شهد على عينه ،

ويروى أشباخ أن هذه الدعوة أثارت في قرطبة قلاقل وثورات ضد حكم جمهور وشغل جمهور بقمعها (٦) إلى أن توفي سنة ٤٣٥ هـ

(١) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٣٥

(٢) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٠١

(٣) أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٤٣

(٤) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٢٠ ، ١٢١

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٤٩

(٦) أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٤١

بنو عباد في إشبيلية

=====

أسرة عريقة بالأندلس تنتمي إلى قبيلة لخم اليمنية ويذكر المؤرخون أنهم من سلالة ملوك الحيرة وأن كان دوزي يشك في هذه النسبة الملكية ويراهما من صنع الشعراء بإيعاز بني عباد (١) وقيد جدهم عطاف إلى الأندلس على رأس كتيبة من الجند في جيش بلج بن بشر القشيري ثم استقر به المقام على ضفاف الوادي الكبير بالقرب من إشبيلية ومن أشهر حفدته إسماعيل بن محمد وكان قائدا في حرس الخليفة هشام الثاني ، ثم صار إماما لمسجد قرطبة ثم ولاة المنصور بن أبي عامر خطة القضاء بإشبيلية واشتهر بالفقه والورع حتى كان يرفض قبول هبة من وزير أو سلطان (٢) وكان آية من آيات الله علما ومعرفة وأدبا وحكمة فسمى مدينة إشبيلية من سطو البربر (٣) وكان واسع الثروة وافر الجاه كريم اليد " واسع البر بالمشاركة آوى إليه صنوف الجالية من قرطبة عند احتدام الفتنة " (٤) وأنفق عليهم من ماله الخاص ف جذب إليه كثيرا من الأتباع والأصدقاء (٥) وما زال يصرف الأمور بلباقة ودهاء حتى أصيب بمرض في عينيه لم يستجز معه الحكم بين الناس فولي ابنه أبا القاسم القضاء واقتصر على تدبير الرأي حتى توفي في العام نفسه سنة ٤١٤ هـ (٦)

(١) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٢٠

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم ٢ ، ص ١٥٢ /

دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٢٠ - ٢١

(٣) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٩٤

(٤) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٦

(٥) عبدالسلام الطود : بنو عباد بإشبيلية ، ص ٣٨

(٦) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٩٤

القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد :

=====

يعتبر مؤسس الأسرة الحاكمة بإشبيلية ، ورث أباه في علمه وأدبه ومنصبه وجاعه ولكنه كان أنانيا فآثر عليه قومه غيره في القضاء فتوسل بالقاسم بن حمود لتولي هذا المنصب فاصطنعه بعد مهلك أبيه ورد عليه ميراثه في قضاء بلده بعد بَعْدَه عنه مدة وحصل منه بمنزلة الثقة فخانه بخون الأيام عند ادبارها وصدّه عنها لما فر من قرطبة مغلوباً (١) مع أن القاسم بن حمود كان حسن الظن به ولكنه أثار الإشبيليين على القاسم وأفسد عليه قائده بإشبيلية وأغلق المدينة في وجهه حينما فر إليها من قرطبة مهزوما وأسرانيه بإشبيلية وسأوه فيها حتى صرفه عنها (٢) ولما أمنت إشبيلية عرض أهلها الحكم على القاضي وكان أوسعهم ثراء حيث بلغت ثروته ثلث أراضي إشبيلية (٣) فأعلن أنه لا يستطيع أن يقبل الحكم إلا إذا أشرك معه فيه أناسا يختارهم بنفسه دهاء منه وحنكة فأجابوه إلى رغبته (٤) وكان يهدف من وراء هذا إلى أن يضم إليه ذوى العصبية ببلده ليأمن انتفاضتهم وليدفع عائلة بني حمود ومن والاهم من البربر . فاختار لمصنوته أبا الإصبع عيسى بن حجاج الحضرمي ومحمد بن يريم الألهاني وأبا محمد عبد الله بن علي الهوزاني ، ومحمد بن محمد بن الحسين الزبيدي وآخرين غيرهم (٥) وقد قلده أبو الحزم بن جمهور في هذا الاتجاه ،

ويقرأ شباخ أن جماعة من الزعماء الأقوياء عاونوه في مشروعه فأقطعهم بعض أراض على أن يؤدوا إليه الجزية وهكذا وثق علاقته بهم وضمهم إلى

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٣٦

(٢) عبد السلام الطود : بنو عباد بإشبيلية ، ص ٤٠

(٣) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ١٩

(٤) عبد السلام الطود : بنو عباد بإشبيلية ، ص ٤١ ، ٤٢

(٥) نفس المرجع ص ٤٢

جانبه (١) واستطاع بعد أن استقر له الأمر أن يتخلص من معاونيه ويستبد بالحكم (٢) واستغل ثروته الطائلة في شراء عدد ضخم من المصاليك وديهم على القتال واجتذب إليه عددا وافرا من الجند المرتزقة بأجور عالية فانضوى تحت لوائه عدد كبير من العرب والبربر بل انضم إليه بعض المحترفين من جند المسيحيين والفرنجة وتوافد عليه المحاربون من النوبة وبلاد السودان وكذلك اللاجئون السياسيون والمجرمون الفارون فكان من الجميع جيشا مدريا سنده في الأزمات (٣) ولما استفحل خطر بني حمود سالمهم وقدم إليهم ابنه عبادا رهينة (٤) وقامت بينه وبين البربر مناوشات حول قرطبة انتهت بمصرع ابنه وقائد جنده إسماعيل سنة ٤٣١ هـ (٥) واستغل أسطورة هشام ليضم إليه الإمارات الأندلسية العربية والصقلية ليكسر بها شوكة البربر ، وتوفي القاضي أبو القاسم سنة ٦٣٣ هـ (٦) وله شعر رقيق سرده ابن بسام في الذخيرة . (٧)

-
- (١) أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج ١ ص ٣٨
 (٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ج ١ ص ١٩
 (٣) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٢٥
 (٤) عبدالسلام الطود : بنو عباد بإشبيلية ص ٤٤ /
 ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢
 (٥) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٠٣
 (٦) ابن خلدون : الصبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ١٥٦
 (٧) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ج ١ ، ص ٢٣

المعتضد بن عباد
:=====

ولد أبو عمرو عباد بن محمد يوم الثلاثاء من الأسبوع الأخير من محرم سنة ٤٠٧ هـ في مدينة باجة وكان يلقب في أول شأنه بفخرالدولة (١) ثم تولى الحجابة فلقب بالحاجب وهو لقب لم يمنح في عصر بني عباد إلا للامراء من البيت المالک ، فقد كان القاضي أبو القاسم عندما استدعى هشام الحصري لمبايعته في إشبيلية ، قد أسند حجابة هشام لابنه إسماعيل ولما سقط إسماعيل هذا ميتا في المعركة التي نشبت بينه وبين البربر أسند القاضي حجابة هشام إلى ابنه الثاني أبو عمرو عباد بن محمد سنة ٤٣٣ هـ (٢) وبنيفي ألا يفرب عن بالنأ أن وظيفة الحاجب في الأندلس كانت تشبه إلى حد كبير وظيفة رئيس الوزراء في عصرنا الحاضر (٣) .

ولقد تولى أبو عمرو حكم إشبيلية بعد وفاة أبيه سنة ٤٣٣ هـ وفي هذا الوقت كان أمراء الأندلس يتهافتون على الألقاب السلطانية ويتباهون بها قال أمرهم إلى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء وترفعوا إلى طبقات السلطنة وذلك لما في جزييتهم من أسباب الترف والضخامة التي تتوزع على طوك شتى وتنهض بهم للمباهاة .

وعلى ذلك عمل أبو عمرو على أن يختار لنفسه لقباً يميز به بين أمراء الأندلس من ذوى الألقاب فاختار لقب المعتضد بالله تشبهاً بالمعتضد العباسي .

وقد تدرب على يد أبيه وشب في مهاد الفتن والدسائس فوضع لبانها وكان مستمداً بفطرته للسير في هذا الطريق حيث كان حقوداً غادراً

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٤٠

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ج ١ ص ٢٢٠ ، ٢٣٠ / شكيب أرسلان :

الحلل السندسية ج ١ ص ٢٥٠

(٣) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ١ ص ٢٥٠

لثيما ظلوما جبارا قاسيا سفاكا للدماء مدنا للخمر جامع الشهوة (١)
ولكنه كان على الرغم من هذه الخلال " قد أوتي من جمال الصورة
وتمام الخلقة وفخامة الهيئة وثقوب الذهن وحضور خاطر وصدق
الحس ما فاق به على نظرائه، ونظر في الأدب مع ذلك قبل ميل
الهوى به إلى طلب السلطان " (٢). وكان المعتضد يقول الشعر
ويتذوقه كما كان ينفق الأموال بسخاء على شعرائه وندمائهم الذين
يشيدون بذكره (٣) وكان يوم الاثنين من كل اسبوع هو اليوم الذي
خصصه لمجالس الشعراء ومطارحتهم القريضة ، وقد شجع الأثباء
والشعراء وخصص لهم دارا في قصره سميت دار الشعراء كما أنشأ
منصبا جديدا سمي صاحبه رئيس الشعراء . وقد عني المعتضد ببناء
القصور الفخمة والقلاع المنيعة وبذل الأموال في اقتناء الملابس الفاخرة
وامتلاك الفلطان الذين كانوا زينة الدنيا في ذلك العصر . ومع
أنه كان لا ييغل بشيء في سبيل ازدهار الدولة إلا أن استهتاره
بالدين جعله يترك المساجد خرابا خلافا لما جرت به سنن المسلمين
من العناية بالمساجد وعماراتها ليذكر فيها اسم الله . (٤)
وعلى الرغم من أن المعتضد كان مفرطاً بزوجه الأميرة ابنة
مجاهد العامري صاحب دانية ، فإنه كان يحتفظ في قصره بسرب
من الحظايا يبلغ عددهن سبعين جاربه (٥) ويقول دوزي " ومن
القريب أن هذا القاسي الجبار مع ما كان يلقيه في قلوب حرمه
وجواريه الحسان من الفزع والرعب بنظراته المفزعة المروعة كان ينظم في
من يقع في حبالهن من أولئك الفيد الحسان أشمارا تجمع إلى الرقة
والسلاسة اللذة والمتعة . (٦)

- (١) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٩٥ ، ٩٦
- (٢) ابن عذارى المراكشي : البيان المشرب ج ٣ ص ٢٠٧
- (٣) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ج ١ ص ٢٨
- (٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم ٢ ص ١٥٦
- (٥) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ج ١ ص ٢٩
- (٦) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ١٠٤

أما قسوته البالغة وشغفه بسفك الدماء فقد أثرت عنه فيهما أعاجيب
 قد تصل به إلى درجة أمرار الشذوذ فقد غدر بكثيرين من وزرائه
 وخاصته مثل الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حبيب الملقب بحبيب ،
 وهو الذي كان أبوه القاضي قد اختاره ليتولى وزارته بدلا من الوزراء
 الذين شرد بعضهم وقضى على البعض الآخر ، وبقي حبيب هذا
 وزيرا للقاضي أبي القاسم ، ومن بعده وزيرا للمعتضد إلى أن عصف
 بحياته (١) ومثل الوزير أبي عامر بن مسلمة حيث دعاه إلى قصره
 واغتاله وادعى أن قدمه زلت فسقط في بحيرة القصر ففرق (٢) وأبي
 حفص بن الحسين الهوزني وهو من أعرق الأسر بإشبيلية وأفقه علماء
 الحديث بها ، عاد من الحج فقر به المعتضد وجعله مستشارا له ثم
 استدعاه ذات ليلة وأمر غلامين بقتله فلما ترددا قام هو إليه وقتله
 بيده ودفنه بثيابه وقلنسوته ومال عليه التراب من غير غسل ولا صلاة (٣)
 وينقل لنا المؤرخون صورا قاتمة عن حياة المعتضد ومن أغرب ما
 يحكى عنه أنه كان لا تلبس له الخمر إلا إذا كان يطل من إحدى
 شرفات قصره على حديقة بشاطيء نهر يمر تحت قصره . وكانت هذه
 الحديقة مرصعة بجماجم الموتى محلاة بالذهب والأحجار الكريمة فكانت
 تلقي الرعب والفرع في قلوب بطانته .
 ولعله اقتدى في ذلك بمحمد المهدي الذي كانت بقصره حديقة
 مروعة بروؤوس الخارجين عليه . (٤)

وكانت للمعتضد بجانب هذه الحديقة خزانة كان يمتز بها ويعدّها
 من أنفس ذخائره كانت تحتوى على رؤوس أعدائه مثل محمد بن عبد الله
 البرزالي وابن خزرون وابن نوح الدمري وغيرهم مقرونة برأس خليفتهم

(١) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ١١٨

(٢) عبد السلام الطود : بنو عباد بإشبيلية ، ص ٦٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٨ / ابن بشكوال : الصلة ، قسم ٢ ، ص ٤٠٢

(٤) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ج ١ ، ص ٢٧

يحيى بن علي بن حمود وكان المعتضد يبالغ في تطييبها وتعطيرها حتى تحتفظ بملامحها ، ويقول ابن حيان (١) ولما فتح المرابطون إشبيلية وخلع المعتضد حدث أنه وجد له جوالق مطبوع عليها فظن أن ذلك مال وذخيرة فإذا هو مملوء رءوسا فأعظم ذلك وهاله أمره ودفع كل رأس منها إلى من كان بقي من عقبهم بالحضيرة . فدفع برأس يحيى بن حمود يومئذ إلى بعض ولده فدفعه .

وروى أنه استضاف بقصره بإشبيلية أمراء "رندة" و"تاكرنا" و"مورو" و"اركش" من حكام الأقاليم المجاورة ثم أعد لهم حماما وأغلقه عليهم فماتوا خنقا واحتراقا ثم استولى على إماراتهم (٢) وأمر ابنه إسماعيل بمهاجمة قرطبة فلما نكل عن أمره وتمرد عليه قبض عليه وقتله بيديه واستبد به الغضب فأخذ يقتل شركاءه وينكل بأصدقائه حتى بخدمه ونساء قصره (٣) ولم تكن قسوته مقصورة على الخاصة بل شملت العامة أيضا وله في ذلك نوادر غريبة (٤) لا نرى الإطالة في سردها .

ومهما كان في هذه الروايات من مبالغات فلا شك أنه كان مجهولا على القسوة مفطورا على حب الإنتقام .

وقد طوى حياته في حروب متوالية قلما باشرها بنفسه بل كان يكتفي برسم الخطط ويترك لأبنائه أو قواده تنفيذها (٥) فقد هارب الهرزالي أمير قرمونة وقتله ثم ضمها إليه (٦) وابن طيفور حاكم مرتولة

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ /

ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٥٠

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٧٠ - ٢٧١ / ابن خلدون :

المعبر وديوان الصبئ والخبر ، ج ٤ ص ١٥٧

(٣) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٤٤ / دوزي :

ملوك الطوائف ، ص ١٤١ - ١٤٢

(٤) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ج ١ ص ٢٦ ، ٢٧ / ابن الأبار :

الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٤٢

(٥) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ١٠٥

(٦) نفس المصدر ، ص ١١٨

فانتزعها منه (١) وشن حربا عنيفة على المظفر بن الأقطس حاكم بطليوس
وحليفه يحيى أمير لبلبة وضمها إلى ملكه (٢) وحارب ابن مزين أمير شلب
حتى ضمها إليه وأغار على خصمه اللدود باديس وحاصر مالقة بقيادة ابنه
المعتد حتى كادت تسقط في يده لولا تهاون المعتد وغفلته، وكان
المعتد يفتك بابنه لولا ضراسته إليه بقصيدة عصماء. واستعمل التهديد
والحيله فضم إليه ولية وشنتمرية الغرب والجزيرة الخضراء (٣)
أما موقفه من المسيحيين الشماليين فإنه كان يتهيب الاصطدام بهم
ويرهب بأسهم فسالمهم ودفع إليهم الجزية في بعض السنين حينما حاصروا
إشبيلية (٤) وبهذا سلم من شرهم وتفرغ لأعدائه فألقى الرعب في قلوبهم ،
واستطاع بدعائه أن يوقف أطماع المسيحيين في بلاده .
أما عن علاقته بهشام المؤيد فقد رأى المعتد من الحبث بعد
الانتصارات التي أحرزها على أعدائه سواء في ميدان الحرب أو في
السياسة أن يبقى متمسكا ببيعة هشام في الوقت الذي أصبح فيه أغلب
أمراء الأندلس خاضعين لسلطوته وسلطانه ، وإلا فما المانع من أن
يصبح المعتد خليفة للمسلمين بدلا من ذلك الخليفة الذي صنعه
بيده وحمل أمراء الأندلس على مبايعته .
وعلى ذلك جمع المعتد وزراء وكبار رجال دولته في سنة ٤٥١ هـ
ونعى لهم الخليفة هشام وذكر لهم أن الخليفة قد توفي منذ زمن
بعيد من فالج أصابه ولم يستطع أن ينموا لهم في الوقت الذي كان
فيه في حرب حياة أو موت مع أعدائه . أما اليوم وقد كتب له النصر
على أعدائه فلم يبق هناك ما يبرر إخفاء موت الخليفة هشام ولم ينس
المعتد أن يذكر لهم أن الخليفة قبل موته أوصى له بولاية العهد

(١) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ١١٨ / ابن خلدون : ج ٤ ص ١٥٨

(٢) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٠-٢١٢ ،

ص ٣٠٠ ، ٣٠١

(٣) نفس المصدر ص ٢٩٨ ، ٢٩٩

(٤) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ١٧١ ، ١٧٢

وأنه تنفيذا لوصية الراحل فقد كتب إلى أمراء الأندلس الذين كانوا تابعين للخليفة هشام أن يبايعوه خليفة عليهم .

بهذه الميتة اختتمت حياة هشام الخيالية التي حيرت عقول أهل الأندلس وكانت أن تحير عقولنا معهم أيضا . ويقول بعض مؤرخي الأندلس تعليقا على وفاة هشام هذه : « هارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الثالثة وعساها أن تكون إن شاء الله الصارقة فكم قتل وكم مات ثم انتفض من التراب ومزق الكفن قبل نفخة الصّور ووقعت الواقعة » قال بعضهم فيه :

ذاك الذي مات مرارا ودفن فانتفض التراب ومزق الكفن (١)

فقد كان قد مات في يد أول خالعه محمد بن هشام بن عبد الجبار ثم نشر بيد واضح الصقلي فتى محمد بن أبي عامر وملك مدة ثم قتله خالعه الثاني سليمان المستعين صاحب البرابرة ودفنه خفية ثم أبرز صداه علي بن حمود الحسني ، الطالب بثأره ودفنه الدفنة التي خلناها حقيقية إلى أن نجا حيا بإشبيلية بعد حقب فبنى هنالك ملكا ودال قرنا إلى أن وقعت عليه هذه الميتة الثالثة فما نقول في الفرق بين هاتين الموتتين المتواليتين إذا كان ميتها واحدا وليس إلا السيوف عليها أدلة ، غير اخلاص الدعاء لكلمة المسلمين في الائتلاف لما فيه الملاح ؟ (٢)

وأخيرا توفي المعتضد نتيجة ذبحة صدرية (٣) ولعل لإفراطه في الطلعات وانغماسه في الحياة الصاخبة أثرا في هذه العلة . وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة ٤٦١ هـ (٣) عن عمر يناهز

(١) عبد السلام الطود : بنو عبد بإشبيلية ، ص ١٠٩

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ج ١ ص ٣٧ ، ٣٨ / ابن عذارى :

البيان المغرب ج ٣ ، ص ٢٤٩

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٤ / ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ص ٢٤

سبعاً وخمسين سنة وثلاثة شهور وتسعة أيام ، كما روى معاصره ابن حيان (١) وللمعتضد شعر كثير جمعه ابن أخيه إسماعيل في ديوان شعري ، وشعره يدل على نزعاته الحسية العنيفة ومجالس لهوه وسمره ومواطن فخره وزمونه ، فجاء في معان أمدته بها الطبيعة . وبلغ فيه الإرادة ، واكتتبه الأتباء للبراعة (٢) ولم تنته حياته حتى أسس أقوى مملكة للمسلمين في الأندلس .

المعتد بن عباس
:
=====

ولد أبو القاسم محمد الظافر المعتد على الله بمدينة باجة سنة ٤٣٢ هـ (٣) وظهر على مسرح السياسة عندما اكتسح والده الإمارات الغربية سنة ٤٤٣ هـ ، إن أسند إليه والده ، " اونية ، وشلطيش ، " وشنتمرية ، ولما سقطت ولاية شلب سنة ٤٥٥ هـ أضافها المعتضد إلى ولده المعتد أيضا ، وفي هذه المدينة عاش شاعرنا ابن عمار مع المعتد حيث كان وزيرا له . ولعب ابن عمار دورا مهما في الحياة السياسية والأدبية . وعندما قتل المعتضد ولده الحاجب إسماعيل استدعى ولده الثاني المعتد وأسند إليه حجابته وعهد إليه بقيادة الجيش . (٤) وفي اليوم الثاني لوفاة المعتضد احتفل بتنصيب المعتد ملكا على إشبيلية وجميع الإمارات الخاضعة لها .

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٥٣

(٢) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٤٢ / ابن يسام :

الذخيرة ، قسم ٢ ج ١ ، ص ٢٨

(٣) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٥٣

(٤) عبد السلام الطود : بنو عباس بإشبيلية ص ١١٢ - ١١٣

واشتهر المعتمد بذكائه وغبارة أدبه وجزالة شعره (١) وكان كريما جوادا كثير الندى (٢) يشجع الشعر والشعراء ولذلك كانت حضرته ملقى الرجال وموسم الشعراء وقبلة الآمال ومألف الفضلاء حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء كما كان يجتمع ببابه وتشتمل عليه حاشيتا جنابه (٣) .

ولم يكن المعتمد يتولى عرش إشبيلية حتى أعاد إليها كل أولئك الذين غضب عليهم والده من قبل ، وبذلك كسب عطف بعض رعاياه . وكان شغوبا بمجالس الطرب والآنس ، وقد نقل لنا ابن خاقان (٤) أوصافا لمجالس المعتمد هذه فقال " أخبرني زخر الدولة أنه دخل على المعتمد في داره المزينة والزهر يحسد أشراف مجلسه والدر يحكي امساق تأنسه وقد رددت الطير شدوها ، وجددت طربها وشجوها والخصون قد التفت بسندسها والأزهار تحيي بطيب تنفسها والنسيم يلهم بها فتضعه بين أجفانها ، وتودعه أحاديث آذارها ونيسانها ، وبين يديه فتى من فتياه يتثنى تشتي القضيبي ويحمل الكأس في راحة أبيه من الكف الخضيب ، وقد توشح وكان الثريا وشاحه وأنار وكان الصبح بين محياه كان اتضاحه فكلما ناولته الكأس خامر مسوره وتخيل أن الشمس تهديه نوره " فقال المعتمد :

لله ساق مهفوف غنج قام ليسقي فجاء بالمعجب

أهدى لنا من لطيف حكمته في جامد الماء نائب الذهب

وكان المعتمد لا يستوزر وزيرا إلا إذا كان شاعرا أدبيا ، ومن وزرائه الذين هم من هذا الطراز أبو الوليد بن زيدون الشاعر المشهور ، والوزير أبو بكر بن عمار فهذان الوزيران هما " فرسا رهان ورضيعا لبان في التصرف في فنون البيان ، وهما كانا شاعري ذلك الزمان " (٥)

(١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ج ١ ص ٤١

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ٢ ص ٥٤

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ص ٢٤

(٤) قلائد العقيان : ص ٩

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٤٢٥

وفي إشبيلية سحر شاعرنا ابن عمار المعتمد وأخذ بلبه فكان لا يفارقه
ليل نهار ، ولما خرج المعتمد إلى شلب واليا عليها من قبل أبيه
أخذ معه صديقه ابن عمار واتخذوه وزيرا ومشيرا . (١)

أما شعره فيمتاز بالركة والعدوية كما يمتاز بالعاطفة القوية التي
تنبعث من صدر كليم محزون مستدر الدموع وخاصة في شطر حياته
الأخير بعد خلمه ونفيه ، وعلى الرغم من هذا كله كان واسع الآمال
بعيد الصامح تدرب على الحكم وعلى قيادة الجيوش بنفسه في حياة
أبيه ، وولى الحكم في مستهل الثلاثين من عمره (٢) وإلى هذا
يشير ابن زيدون في تمزيته له في أبيه بقوله : (٣)

وما أعطت السبعون قبل أولى الحجا من الإرب ما أعطتك عشوك والعشر
ويعد المعتمد قطب الرchy في أحداث عصره ، فقد اتسمت مملكته حتى
شملت إشبيلية وقرطبة قاعدة الخلافة القديمة والجزيرة الخضراء ومرسية ،
ولكنه كان يوءى الجزيرة مثل سائر ملوك شبه الجزيرة وأمرائها .

وقد كانت نهايته على يد الأمير يوسف بن تاشفين من أفجع
النهايات ، وشعره الذى يصور فيه نكبته من أفجع الشعر حقا !

فقد أطاح بحكم المعتمد ونفاه وسجنه وقيدته وعامله أسوأ معاملة ، ولم
يكن في هذه المعاملة محمود الطريقة ولا سديد الرأي ، وقد نشأ
يوسف في الصحراء ، وعاش عيشة فيها شطف وخشونة ، وربما دلت
معاملته للمعتمد على ما في طبيعته من غلظة ، وما في خلقه من جفوة ،
برغم ما اشتهر به من التقوى ونفاد الفطنة .

لذا نرى أن يوسف بن تاشفين قد بالغ في الإساءة إليه ، ولم يكن
هناك ما يسوغ كل هذه القسوة والإمعان في إنلال ملك فقد ملكه
وأصبح مهيب الجناح .

(١) سنن فصل الحديث عن علاقة شاعرنا بالمعتمد عند الحديث عن حياة ابن

عمار فيما بعد . (٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ٢ ص ٥٣

(٣) ديوان ابن زيدون : ص ٥٧٣

ويصف لنا الفتح في القلائد حالة المعتمد في سنواته الأخيرة بقوله
 " ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات ، وجلده يتردد بين النكبات والعثرات ،
 ونفسه تنقسم بالأشجان والحسرات ، إلى أن شفته منيته ، وجاءته بها
 أميته ، فدفن بأغمت ، وأريج من تلك الأزمات ، وعطلت المآثر من
 حلالها ، وأفردت المفاخر من علاها ، ورفعت مكارم الأخلاق ، وكسدت
 نفائس الأعلاق ، وصار أمره عبوة في عصره ، وصاب عبوة في مصره " (١)
 وتوفي المعتمد في السجن بأغمت (٢) لإحدى عشرة ليلة خلت من
 شوال سنة ٤٨٨ هـ ، وقيل في ذي الحجة ، ونودي بالصلاة على
 الغريب بعد عظم سلطانه وجلال قدره .
 وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ والسير بلمع أخباره وأحوال دولته
 وشعره . والمأساة التي ختمت بها حياته ستظل تجتذب أنظار
 الشعراء والنقاد وسائر غواة الأدب .

(١) ابن خاقان : قلائد المعقيان ، ص ٣٠

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٣٧

نظم الحكم في الأندلس :

=====

ونعني بها النظم الحكومية السائدة في العصر الذي نتحدث عنه وعلاقة القائمين على هذه النظم بطبقات الشعب ومصلحة المحكومين ،

الحاكم :

لما انقسمت الأندلس إلى طوائف واستقل كل أمير بإقليمه تسمى بالوزير أو الحاجب أو الأمير أو الملك ، فعنه تصدر جميع الأوامر وطاعته فرض على كل فرد من رعاياه (١) .

وقد خاطب ابن عمار المعتضد بلقب الملك في أول قصيدة مدحه بها :
ملك اذا ازدهم الطوك بمورد ونحاه لا يردون حتى يصدرا (٢)
ومن هذا نرى الألقاب لم تكن محددة تحديدا رقيقا ، ونلاحظ أن نظام الحكم بقرطبة وإشبيلية كان جمهوريا في مبدئه ثم انقلب إلى ملكي وراثي كما ذكرنا فيما سبق ، وكان الرأي العام يتدخل أحيانا في عزل الحاكم وتولية حاكم آخر ، كما لاحظنا في المرحلة السابقة لقيام بني جهور بقرطبة . فقد أسقط أهل قرطبة عبدالرحمن بن المنصور (٣) وأعادوا الأمر إلى بني أمية ثم عزلوا بعض حكامهم وولوا آخرين ثم أسقطوا أسرتهم وبايعوا أسرة بني حمود (٤) ثم عزلوا هذه الأسرة نهائيا وبايعوا ابن جهور في حكومة شورية (٥)
فحملوا ابن جهور على الاعتراف بهشام الدعي على الرغم منه . وكانت قوة الرأي العام تتمثل في الفقهاء ورجال الدين .

(١) عبدالسلام الطود : بنوعباد بإشبيلية ، ص ٢١٤

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة " ١ "

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٤٠٢

(٤) نفس المصدر ص ٤٠٧

(٥) نفس المصدر ص ٤١٣

الحاجب

كان الملك يميز من بين هيئة وزرائه شخصا فيقره إليه ويسميه بالحاجب ، وكانت مهمته أن يحجب الملك عن الخاصة والعامة ، ويتردد بين الملك وبين وزرائه . وفي عصر ملوك الطوائف الذي عاشه ابن عطار ارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف أنفسهم ينتحلون لقبها ونقشت أسماءهم على السكة وكان أعظمهم ملكا بعد انتقال ألقاب الملك وأسمائه ، لا بد له من ذكر الحاجب (١) وأصبحت الحجابة في عصر بني عباد من ألقاب الشرف لا تسند إلا للأمرء . من البيت المالک ، وكان أول حاجب في دولة بني عباد هو إسماعيل بن القاضي أبو القاسم انتدبه أبوه لحجابة هشام العصري لما استجلبه إلى إشبيلية ، فكان إسماعيل يقف على باب هشام ليكون واسطة بينه وبين من يرغب في مقابلته ، وعندما سقط إسماعيل في حومة الوغى أسند القاضي الحجابة إلى ابنه الثاني أبي عمرو محمد المعتضد ، أما في عهد المعتضد فقد أسند الحجابة إلى ابنه إسماعيل فلما قتله استدعى المعتضد ابنه الثاني محمد الظافر (المعتمد فيما بعد) وأسند إليه الحجابة ، وفي عصر المعتمد تطورت الحجابة ، إذ أصبحت حقا مشاعا بين أبناء المعتمد الكثيرين ، سراج الدولة ، فالظافر ، ومعتمد الدولة ، والرشيد ، كلهم كانوا يحملون لقب الحاجب . ومن كل ذلك يتبين لنا أن لقب الحاجب أصبح لا يزيد عن كونه لقبا فخريا يمنح لجميع الأمرء من البيت المالک ويشبه رئيس الديوان أو وزير القصر في عصرنا الحاضر .

الوزير

صار اسم الوزارة عاما على كل من يجالس الملوك ويختص بهم ، وكان

(١) ابن خلدون : (المقدمة) ص ١٨٩ - ١٩٠ / المقرئ :

نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٢

يعاون الملك في أداء مهمته طائفة من الوزراء يختارهم للمجالسة والتشاور ، وقد أفرد ملوك الأندلس لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيرا وللترسيل وزيرا ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا وللنظر في أحوال الثغور وزيرا وجعل لهم بيتا يجلسون فيه قُرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له " وكان الوزير الذي ينوب عن الملك يسمى بذى الوزارتين - كنية - على أنه يملك زمام السيف والقلم (١) وقد كني شاعرنا ابن عمّار بهذه الكنية في عهد المعتمد بن عباد في إشبيلية .

وقد ذكر المقرئ من أن اسم الوزارة صار عاما " لكل من يجالس الملوك ويختص بهم ، وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين وأكثر ما يكون فاضلا في الأدب ، وقد لا يكون كذلك بل عالما بأمر الملك خاصة " (٢) ولما ضعفت الإمارات الأندلسية وهان أمرها تسمى باسم الوزارة كل دعي وبخاصة في عصور التدهور والإنحطاط .

الولاية :

جرت العادة أن تسند ولاية الأقاليم أو المدن الكبيرة إلى ولاية يختارون لتنفيذ السياسة التي ترسمها الحكومة المركزية . وفي معظم الأحيان عين الولاية من أمراء البيت المالِك فقد عين المعتمد ابنه المعتمد على ولاية شلب ، وعندما تولى المعتمد الملك بعد أبيه عين شاعرنا ابن عمّار واليا على شلب وظل واليا عليها إلى أن استدعاه ليكون وزيرا في بلاط الملك في إشبيلية .

الكاتب :

يشرف على كل مصلحة من مصالح الدولة كاتب ، وكان لكاتب الرسائل مكانة

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ / ابن خلدون (المقدمة)

ص ١٩٠ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٠٢

مرموقة ، واللقب سمة تشريف له وان كانت السنة النقاد متجهة إليه
تحصي عليه عثراته ، وهناك كاتب الزمام ويقال له صاحب الأشغال
الخراجية ويشترط فيه الإسلام وهو أكثر من الوزير أتباعا وأجدي
منفعة فاذا تأملت حالته وظهر عليه ما يريب صودرت أمواله (١) ولقد
طغى نفوذ بعض الكتاب حتى فاق نفوذ الوزراء ، وكان لا يتولى هذا
المنصب إلا وزير خطير ، بل كان الكاتب المتولي شؤون الخراج أعظم
من الوزير وأكثر أتباعا وأصحابا . (٢)
صاحب الشرطة :

كان رئيس الشرطة بالأندلس يسمى " صاحب الشرطة " كما كان يسمى
" صاحب المدينة " وكان المسؤول عن أمن المدينة ، وإلى جانب ذلك
كان يواظب على الحضور إلى القصر الملكي ليرفع للملك أخبار المدينة
ويقوم بحراسته عند خروجه ، وكان صاحب هذه الخطة يختص بالنظر في
الجرائم وإقامة الحدود في الزنى وشرب الخمر (٣) ، وكثير من
الأمور الشرعية راجع إليه ، ويستمد سلطته من القاضي ، والقاضي أقر
وأبقى من مباشرة ما يقوم به صاحب الشرطة ، وإذا كان عظيم القدر
عند الملك كان عليه أن يقتل من وجب عليه القتل دون استئذان الملك
وهذا نادر . (٤)

ولما كانت أحياء مدن الأندلس تنقسم إلى دروب ، وكل درب له
باب يقفل عليه في الليل ، فقد اختاروا لحراسة هذه الأحياء والطواف
بها ليلا رجالا يعرفون في الأندلس بالدرابين على رأسهم رئيس
يسمى " صاحب الليل " . (٥)

(١) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ١ ص ٢٥٢

(٢) نفس المرجع : ص ٢٥٢

(٣) ابن خلدون : (المقدمة) ص ١٧٦

(٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٠٣

(٥) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٠٤

المحتسب :

كانت خطة الاحتساب تسير على نمط ما كانت عليه أيام الأمويين ،
 إذ كان صاحبها يختار من بين القضاة ثم استقلت عنه ، وكانت لها
 أحكام مدونة تدرس كما تدرس أحكام القضاء ، وكان على المحتسب أن
 يخرج في جماعة من أعوانه بين آونة وأخرى في الأسواق لمراقبة الأسعار
 ومعاينة ما يباع من المأكولات حتى يتأكد بنفسه من عدم الغش في
 المأكّل والمشرب ، وكان كل من يحاول أن يبدل أو يغير في
 المبيعات أو يحاول التطفيف في الكيل يعاقب بالجلد أو النفي (١)
 وهذا يشبه مراقب وزارة التموين في عصرنا الحاضر .

صاحب الأعباس :

ومن الخطط الإسلامية التي كانت مرموقة في الأندلس خطة
 الأعباس " الأوقاف " ومن تولى هذه الخطة في عهد بني عباد
 عبدالرحمن بن محمد ، وقاسم بن كهلان (٢) وبما أن صاحب
 الأعباس كان يؤمن على أموال وعقار المسلمين فقد كان يسمى أيضا
 بالأمين ، وكانت تصرف أموال الأعباس في بناء المساجد وأصلاحها
 كما كانت تتفق في ترميم وتجديد العقارات المحبسة لتدر على الخزانة
 أموالا تتفق في مصالح المسلمين (٣) .

القاضي :

منصب خطير لا يتولاه إلا عالم ديني عظيم ينفذ قضاؤه في الكبير
 والصغير حتى في الحاكم نفسه ، فكانت للقضاة المنزلة العالية والرتبة

(١) ابن خلدون : (المقدمة) ص ١٧٨ / المقرئ : نفح الطيب ١

ص ٢٠٤

(٢) عبدالسلام الطود : بنو عباد بلشيلية ، ص ٢١٨

(٣) نفس المرجع ص ٢١٨

السامية مع كون الخلفاء منقادين لأحكامهم واقفين عند نقضهم وإبرامهم ،
وبعد ما كان قاضي المسلمين - في أول الأمر - يعرف بقاضي الجند
أصبح يعرف بقاضي الجماعة أو قاضي القضاة وهو بمثابة وزير العدل
في عصرنا الحاضر ، أما القاضي الذي يزاوِل أعماله في مدينة صغيرة
فلا يطلق عليه إلا سدد خاصة (١) ومن أهم من تولى هذا المنصب
القاضي محمد بن أحمد بن عيسى بن منظور المتوفي سنة ٤٦٤ هـ ،
والقاضي أحمد بن أحمد بن عيسى بن منظور المتوفي سنة ٥٢٠ هـ
والقاضي شريح بن محمد الرعيني المتوفي سنة ٥٣٩ هـ (٢) .
وجرت العادة بأن يكون للقضاة مجالس شورى يرجعون إليها فيما يشكل
عليهم ، وكان لا يمين في مجلس الشورى إلا المبرزون في معرفة
الأحكام الشرعية وكان يرأس هذا المجلس قاضي القضاة ، ومن تولى
الرياسة في عصر بني عباد : القاضي عبدالله الرشيد بن الممتد
والفقيه أحمد بن محمد بن عيسى بن منظور القيسي (٣) وقد
جعلوا للقاضي علامة العمامة والرداء .

(١) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ١ ص ٢٥٢ /

المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٠٣

(٢) الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٢٨ - ٣٤

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، قسم ١ ، ص ٧٨

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

- التكوين الاجتماعي للسكان
- صفات أهل الأندلس وفضائلهم
- مكانة المرأة في الأندلس

التكوين الاجتماعي للسكان

=====

لما كانت الحياة الأدبية لائاًمة هي وليدة مجتمعها بكل ما يمثله من بيئة طبيعية وشعب ونظم تحكم حياته وسلوكه وضروب النشاط الإنساني التي يضطلع بها ، فسوف نحاول هنا التعرف إلى مكونات المجتمع الأندلسي ، تلك التي تضافرت على صنع حياته الفكرية — علمية وأدبية ، والتي هي هدفنا من وراء هذه الدراسة .

وقد يكون من الأمور اليسيرة أن نتصور جوانب شاملة التباين متعددة السمات متشعبة الجهات مختلفة الأهواء في بيئة كالبئة الأندلسية ، ومن المنطق أن نتوقع امتداداً لكل نواحي التعدد تلك التي ذكرنا لحقبق من الأزمنة متتالية متعاقبة ، ذلك أننا إذا نظرنا إلى التركيب الاجتماعي لتلك البلاد فسوف لا تخطئ أعيننا كم من الأجناس احتوى وإلى كم من الثقافات تعرض ، وكم من الحروب خاض مهاجماً أو مدافعاً وكم من الثورات باشر وكم من الحكام استوى على دست حكمه (١)

لقد ضم المجتمع الأندلسي أجناساً من البشر ذوي عقائد عديدة وعادات مختلفة من عرب وبربر وصقالبة ومولدين وأهل زمة من نصارى ويهود . (٢)

العرب والبربر :

من الواضح أن العنصرين الرئيسيين اللذين دخلا الأندلس في أثناء الفتح ويعددهما العرب والبربر ، فالعرب كانوا يحسون إحساساً قوياً بنوع من الأرستقراطية نابح من غلبتهم على الأسبان وأدخلهم في الإسلام ، وكذلك من لغتهم التي تفوق غيرها .

(١) مصطفى الشكعة : صور من الأرب الأندلسي ، ص ١٣

(٢) أحمد هيكل : الأرب الأندلسي ، ص ٢١

ولعل شعور التعالي هذا من قبل العرب ، هو ما كان يولد ثورة البربر عليهم أحيانا . (١) فقد كان البربر أسرع اندماجا من العرب في البيئة الجديدة ، فقد حال بين العرب وبين الاندماج السريع الكامل لغتهم واعتزازهم بعصبيتهم العربية ، أما البربر فلم يكن هناك ما يحول بينهم وبين الاندماج ، فلا عصبية ولا لغة مكتوبة . وعندما حل عهد طوك الطوائف أصبحت غالبيتهم في جملة العرب الأندلسيين ، وكان لهم أعظم الأثر في بناء الأندلس الإسلامي .

المولّدون :

إلى جانب العرب والبربر ، كان هناك سكان البلاد الأصليون ، فمنهم من اعتنق الإسلام وأطلق عليهم أولا اسم " المسالمة " (١) وعلى الذين نشأوا في ظل الإسلام وربوا بتربيته اسم المولّدين ومنهم من بقي على الدين المسيحي وهم الذين كان يطلق عليهم اسم العجم .

أما المولّدون فهم العنصر النافذ من تزواج العرب بالبربر ، أو العرب بالأسبانيات . وقد خرج من هذا الازدواج بين عربي وبربرية ، أو عربي وأسبانية جيل جديد سمي بالمولّدين . وظل اسم المولّدين يطلق على هذا العنصر حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ثم تلاشت هذه التسمية بعد ذلك بسبب اختلاط الناس ، وتحول أهل الدولة الإسلامية في الأندلس إلى أندلسيين دون تميز . وقد أصبحت العلاقات بين المسلمين الجدد والقداماء وثيقة بمرور الأيام نتيجة الاختلاط والتزواج ، وقد كان لهذا التمازج دون شك أثره الكبير في التكوين العنصري للمجتمع الأندلسي . وقد فقد العرب نتيجة هذا التطور الاجتماعي سلطتهم المطلقة (٢) فبرزت على مسرح

(١) صلاح خالص : إشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ٣٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٠

السياسة في عهد ملوك الطوائف شخصيات من أصول مختلفة قاموا
بأدوار مهمة في الحياة السياسية والاجتماعية .

الصقالبة :

وهناك طبقة اجتماعية أخرى أخذت تلعب دورا مهما في حياة
الأندلس السياسية والاجتماعية ، ولا سيما في قرطبة ، هم أولئك الموالي
المحدرين من أصل أجنبي ، الذين كان يسميهم العرب الصقالبة .
وقد أخذ عددهم في الازدياد وبلغوا كما يقول المقرئ ثلاثة
عشر الفا في قرطبة فقط ، وقد لعبوا دورا مهما في القرن الخامس
الهجري (الحادى عشر الميلادى) واستطاع فريق منهم أن يتحرر
من العبودية ويشغل مكانا لائقا في الحياة الاجتماعية ، ومنهم من
امتك الاثاى وأصبح غنيا . وقد تهذبت طباعهم بالاحتكاك بالحضارة
الأندلسية فرأينا فيهم بعض الأثباء والشعراء والمؤلفين ، وإذا صدقنا
ابن الأبار والمقرئ (١) علمنا أن أحدهم ويدعى حبيبا الصقلبي
قد ألف كتابا يحدد فيه مناقبهم بعنوان " كتاب الاستظهار والمقالبة
على من أنكر فضائل الصقالبة "

وقد تميزت فترة ملوك الطوائف من الناحية الاجتماعية بانحلال
العناصر التي كان المجتمع الأندلسي يتكون منها ، والتي استطاعت
الخلافة الأموية أن تجعل من جميعها كتلة واحدة ومجتما متماسكا
وقد تبع الانحلال السياسي الذى أصيبت به الأندلس بعد سقوط
الخلافة تفكك اجتماعي عنصرى فانحاز الصقالبة أو الفتيان العامريون
إلى شرق الأندلس وبقي العرب مسيطرين على جزء كبير من غيب شبه
الجزيرة ، وأما البربر فتجمعوا في الجنوب الشرقي قريبا من العدو
المفريقية . (٢)

(١) جودت الركابي : في الأثب الأندلسي ص ٣٩

(٢) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد الثاني ص ١٢٧

وهكذا شهد القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادى) ضعف
العصبية الدينية ، فكثيرا ما كان المسلمون يحاربون تحت لواء المسيحيين
ويستمعونهم في منازعاتهم الخاصة مع إخوانهم (١) المسلمين .

أهل الذمة:

وعم الأسبان الذين بقوا على مسيحييتهم ولم يدخلوا في الإسلام،
وهؤلاء كانوا يرون أن البربر والعرب دخلاء عليهم ، وأنهم أحق بملك
بلادهم . ويندرج مع هذا العنصر الأسباني المسيحي يهود البلاد
من حيث معاملة المسلمين لهم ، فقد ضمن المسلمون لهذه العنصرين
حريتهم وأدخلوهم في ذمتهم (٢) ، مقابل الجزية والخراج على ما تقتضي
به الشريعة الإسلامية .

هذه هي العناصر والفئات التي كونت المجتمع الأندلسي . وقد
أعطت لاختلاف أصولها وأديانها لهذا المجتمع صفات خاصة قل أن
نجدها في مجتمع آخر .

وليس معنى ما تقدم أن المجتمع الأندلسي كان مجتمعا مهلهلا
بسبب اختلاف عناصره البشرية ، فالحق أنه برغم تعدد العناصر بين
سكان الأندلس ، كانت الروابط القوية تشد بعضهم إلى بعض فـ
أغلب الأحيان ، وتطبعهم بالطابع الأندلسي المميز . فقد كانت هناك
دائما البيئة المشتركة والثقافة المشتركة ، وقد كانت هناك غالبا الحكومة
الموحدة والسياسة الموحدة ، ثم كانت هناك الحضارة الأندلسية
الرائعة ، التي تصبغ جميع العناصر بصفتها الواضحة ، تلك الصبغة
التي لا يكاد يفترق فيها بربري الأصل عن عربي الدم ، بل لا يكاد
يميز معها أسباني الجدود مع عربي الأباء .

ودفعت هذه العناصر المختلفة حكام البلاد إلى أن يعتبروا هذا

(١) علي عبدالمعظم : ابن زيدون ، ص ٦٩

(٢) عبدالعزيز عتيق : الأثب العربي في الأندلس ، ص ١٣٥

الوضع المعقد ، ويبدلوا الجهود لضبط الأمور وتحقيق الانسجام والتوفيق
الذين يقتضيها ذلك الوضع مستعملين في ذلك ما يرونه من وسائل
فعالة وفي مقدمتها القوة للوصول إلى هذا الهدف .

والواقع أن حكام الأندلس لم يستطيعوا تحقيق ذلك إلا في قرن
واحد فقط هو القرن الرابع الهجري ، حيث بلغت الدولة الأندلسية
أوج سلطانها ووصلت حضارة المسلمين ذروة ازدهارها ، أما فيما
عدا ذلك فقد كانت هذه البلاد مسرحا لاضطرابات دموية ونزاع مريع
قاسى فيه سكانها أصعب الأزمات . (١)

صفات أهل الأندلس وفضائلهم :

إذا نظرنا إلى المجتمع الأندلسي من ناحية جمهرته وليس من
ناحية قطاعات معينة منه وجدنا له ميزات باهرة وصفات طيبة تميزه عن
كثير من المجتمعات الإسلامية الأخرى ما بين علم ودين وثقافة وعمل
ونظافة وترتيب في أحوال المعيشة وحب للعدل وإنكار للفوضى وإجلال
للعلماء إلى غير ذلك من الصفات الحميدة التي إن توافرت في شعب
من الشعوب وضعته في مرتبة سامية ودفعت به إلى مراتب التقدم
والازدهار . (٢)

فالشعب الأندلسي كسائر الشعوب له صفاته الخاصة التي تميزه
وتكشف عن طباعه وأخلاقه ومألوف عاداته . وفيما يلي عرض لأهم
صفات الأندلسيين التي اشتهسروا بها :

الزى (الطيب) :

كان الغالب على أهل الأندلس ترك العمائم ، ولا سيما في شرق
الأندلس ، أما أهل غربها فلانكاد نرى فيهم فقيها أو قاضيا مشارا إليه
إلا وهو بعمامة (٣) ولا نجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي

(١) صلاح خالص : إشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ٣٣

(٢) مصطفى الشكعة : صور من الأثب الأندلسي ، ص ٤٩

(٣) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ١ ص ٢٥٦ / المقرئ :

دون طيلسان إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم غير عظماء الشيوخ ، وكثيرا ما يلبسون غفائر الصوف حمرا وخضرا ، أما الصفر فكانت مخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودي أن يتعمم البتة . (١)

ويظهر أن اللباس الأحمر كان محببا لديهم إن أننا نجد كثر في مدائحهم ولهذا نرى ابن عمار في مدحه للمعتضد يشير إلى الزى الأحمر فيقول :

وصبغت درعك من دماء نهورهم لما علمت الحسن يلبس أخفرا
والذوابة لا يرخبها إلا العلماء ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنصا
يسدلونها من تحت الأذن اليسرى (٢) وهم لا يعرفون أشكال العمام
المشرقية ، وإن رأوا على رأس مشرقى داخل إلى بلادهم شكلا منها أظهروا
التعجب والاستظراف دون أن يحاكتوه لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا
غير أوضاعهم ، وكذلك الشأن في تفضيل الثياب .

أما الأندلسيات فيغلب على زيهن الأثافة والبذخ ، والتفتن في
الزينة وأشكال الحلبي (٣)

وإذا كان اللون الأسود هو شعار الحداد عند المشاركة ، فإن
شعار الحداد عند الأندلسيين هو اللون الأبيض ، ولهذا اعتادوا أن
يلبسوا البياض عند الحداد ، يقول أحد الشعراء :

ألا يا أهل أندلس فطنتم بلطفكم إلى أمر عجيب
لبستم في ماتمكم بياضا فجئتم منه في زى غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن ولا حزن أشد من المشيب (٤)

حب النظافة :

إذا ما حاولنا أن نقرب أكثر وأكثر من شعب الأندلس لنعرف شيئا

(١) عبدالسلام الطود : بنو عباد بإشبيلية ، ص ٢٤٣

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٠٨

(٣) عبدالعزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ، ص ١٤٢

(٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ص ٤٠٤

عن أحوال معيشتة الخاصة وجدناه شعبا شديدا العناية بالنظافة ،
 ولأن طبيعة البيئة الجميلة التي يعيش فيها خليفة بأن تحبب إليه
 ذلك ، هذا فضلا على أن الإسلام نفسه وهو الدين الذي اعتنقه
 الشعب الأندلسي اعتنق إيمان وتطبيق يحض على النظافة حضا قويا
 بحيث يمكن أن تكون النظافة شعيرة من شعائره ، بل هي فرض من
 فروضه من وضوء واغتسال وتطهر ، وعن هذه الصفة يخبرنا المقرئ
 بقوله : " وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما
 يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما
 يقوته يومه ، فيطويه صائما ويبتاع صابونا يفسل به ثيابه ، ولا يظهر
 فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها " (١)

حسن التدبير :

والأندلسيون في شؤن حياتهم المعيشية أهل احتياط وتدبير
 وحفظ لما في أيديهم مخافة ذل السؤال ، ولهذا هم أبعد الناس
 عن الإسراف والتبذير ، وقد ينسبهم للبخل من لا يعرف حقيقة
 بواعثهم لهذا السلوك ، وهم في واقعهم من البخل براء ، وإنما
 يساعدون بالقدر الذي يستطيعون من غير ما إرهاب لأهوالهم المالية
 أو تكلفة على أنفسهم .

ولعل من الخير أن نروى هذه القصة التي تبين لنا بدقّة
 ووضوح أخلاق أهل الأندلس من هذه الناحية ، يقصها المقرئ صاحب
 نفح الطيب على لسان ابن سعيد صاحب المغرب لأن ابن سعيد
 وأباه كانا بطلبيها ، قال ابن سعيد :

" ولقد اجترت مع والدي على قرية من قراها - يعني قرية أندلسية -
 وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل ، فأوينا إليها ، وكنا على
 حال ترقب من السلطان وخلصو من الرفاهية ، فنزلنا في بيت شيخ من
 أهلها من غير معرفة متقدمة ، فقال لنا : إن كان عندكم ما أشتري لكم

به: فحما تسخنون به فإني أمضي في حوائجكم وأجعل عيالي يقومون
بشأنكم ، فأعطيناه فاشترى به فحما ، فأضرم نارا ، فجاء ابن له صغير
ليصطلي فضربه ، فقال له أبي : لم ضربته ؟ فقال : يتعلم استغنام
أموال الناس والضجر للبرد من الصفر ، ثم لما جاء النوم قال لابنه
اعط هذا الشاب كساءك الفليضة يزيدنا على ثيابه ، فدفع كساءه إليّ ،
ثم لما قمنا عند الصباح وجدت الصبي منتبها ويده في الكساء . فقلت
ذلك لوالدي ، فقال : هذه مروءات أهل الأندلس ، وهذا احتياطهم ،
أعطاك الكساء وفضلك على نفسه ، ثم فكر في أنك غريب لا يعرف هل
أنت ثقة أم لص ، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفا من
انفصالك بها - أي هربك بها - وهو نائم ، وعلى هذا الشيء الحقيق
ففس الشيء الجليل . (١)

والحق أن هذه القصة تحمل من المعاني أكثر من سطورها بكثير ،
إنها تعطي صورة لقوم يعينوك بما لا يكلفهم مالا ، فهم غير متقاعسين
عن المروءة ولا منصرفين عنها ، وإنما يقدمونها بقدر وتدبير واعتدال ،
هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تعطينا هذه القصة صورة رائعة
لطريقة تربية الرجل أبناءه الصغار وتنشئتهم على الصبر والجلد واحترام
مال الغير والبعد عن الاستغلال والانتهازية .
تدوينهم :

وشعب الأندلس بالإضافة إلى هذه الصفات الجليلة شعب متدين ،
وهم لتدينهم يجلون علماء الدين ويحترمونها ، ويعظمون الفقهاء ،
ويوقرونها ، ومن ثم نراهم إذا أرادوا تفخيم أمير عظيم من أمرائهم
لقبوه بالفقيه ، وكانوا كذلك يطلقون لقب الفقيه على كل نابه من الكتاب
والنحاة واللغويين ، ذلك لأن كلمة فقيه تمتاز عندهم من أرفع السمات
(٢)

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠٦

على أن المجتمع الأندلسي لم يعرف التعصب الديني من جانب المسلمين طوال عهدهم في الأندلس (١)

كذلك كان للنصارى حظهم من الحياة العامة والخاصة (٢) ، مشاركين فيها في نطاق الساحة التي ظلت المجتمع الأندلسي وبعده عن التعصب المقيت ، فكثير من الأمهات كن مسيحيات وأكثرهن بقين على دينهن لم يغير من طابع سعادة بيوتهن اختلاف العقيدة بين الزوج وزوجه أو الولد وأمه ،

على أن مجتمع الأندلس في جملته كان مجتمع يسر وحب وتسامح وابتعاد عن العصبية ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

مناداة الفلمان والافتتان بهم :

وكان الأندلسيون مفرمين بمفاصلة الفلمان ومنادمتهم ، فلا نرى مجلسا من مجالس الأندلسيين إلا وبه فتى يكون قبلة للندماء والشعراء يثونه أشواقهم وأحزانهم ، وما نحن نرى ابن عمّار وقد خرج في بعض أسفاره على غلامين لبنى جمهور أحدهما أشقر العذار ، والآخر أخضره فجعل يميل بحديثه لمخضر العذار ويقول :

تعلقته جهورى النّجار حلى اللّكى جوهرى الثّنايا

من النّفير البهّض أسد الزّمان رقاق الحواشي كرام السّجايا

ولا غرو أن تغرب الشّارقات وتبقى محاسنها بالعشايا

ولا وصل إلا جمان الحديث نساقطه من ظهور المطايا

شئت المثلث للزعفران وملت إلى خضرة في التفايا (٣)

ويقص علينا أحد شيوخ إشبيلية عن نفسه قصة لا تخلو من الطرافة

فيقول : " كنت في صباى حسن الصورة بديع الخلقة لا تلمحني

عين أحد إلا ملكت قلبه وغلبيت خليه وسلبت ليه وأظلت كربه ، فبينما

أما واقف على باب دارنا إذا بالوزير أبي بكر بن عمّار قد أقبل في

موكب على فرس كالصخرة الصماء قدت من قنت جبل ، فحين هاذاني

(١) مصطفى الشكعة : صور من الأدب الأندلسي ، ص ٥٣

(٢) نفس المرجع ص ٥٧

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٣٠١

ورآني إشرأب إليّ ينظرني وبهت يتألمني ثم دفع بمخضرة كانت بيده
في صدرى وأنشد :

كف هذا النهـد عني فيقلبي منه جرح
هو في صدرك نهـد وهو في صدرى رمح (١)

ولعل هذه الأمثلة تعطينا صورة واضحة لجوانب من حياة المرح واللهمو
التي كان يعيشها الأندلسي في ظل بيئته الجميلة الوارفة الظلال .
الموسيقى والغناء :

ومن صفات الأندلسيين شغفهم بسماع الغناء ، حتى ليفضلون
الضرورة من العيش مع السماع ، على العيش المترف مع الحرمان من
سماع الغناء والموسيقى (٢)

ومن أهل الأندلس من اشتغل بصناعة الحان الغناء أو التأليف
فيه : فالإبي بكر بن باجه تنسب الألحان المطربة في الأندلس ،
وليحيى المرسى كتاب " الأغاني الأندلسية " وهو شبيه بكتاب الأغاني
لابي الفرج الأصفهاني ، وكان أهل الأندلس يغنون القصائد الشعرية ،
وظل الأمر كذلك حتى ظهرت الموشحات الأندلسية فأخذوا يغنونها
مع نغمات الموسيقى .

وقد ازدهرت الموسيقى التي وضع زرياب أساسها بالأندلس (٣)
وأنشئت معاهد لدراسة الموسيقى في أنحاء كثيرة بالأندلس ، في
إشبيلية وطليطلة وبلنسية وغرناطة . وأصبحت إشبيلية في عصر بنى
عباد مركزا للنشاط الموسيقى بل إنها فاقت بغداد في هذا الفن .
وكان المعتمد بن عباد من أشهر المغنين (٤) يجيد الغناء والضرب

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ص ٣٠٢

(٢) عبدالمعز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ، ص ١٤٥

(٣) فيليب حتي : تاريخ العرب مطول ، ج ٢ ص ٧٠٩

(٤) فيليب حتي : تاريخ العرب مطول ، ج ٢ ص ٧١٠

على الطنبور كما كان ابنه الرشيد المعروف بالقاضي بارعا في التوقيع على العود وغيره من الآلات الموسيقية ، وكان أيضا يحسن تأليف الألحان وترضيها بصوته الشجي (١) ومن المغنيين المشهورين في عصر بني عباد أبو بكر الإشبيلي المشهور بالحكيم المطرب ، ويذكر لنا هذا المطرب أنه حضر مجلس الرشيد بن عباد وعنده أبو بكر بن عمار فلما دارت الكأس وتمكن الأنس وغنيت أصواتا ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب فارتجل يخاطب الرشيد :

ماضٍ أن قيل إسحق وموصله ها أنت أنت وذى حمص واسحق

أنت الرشيد فلعن ما قد سمعته وإن تشابه أخلاق وأعراق

لله درك داركها مشعشعة واحضر بساقيك ما قامت بنا ساق (٢)

وكان بلاط بني عباد يزخر بالمغنيات الفاتحات اللواتي كن يجلبن من سائر الأندلس ومن أوروبا وآسيا ، وقد ذكر أبو الوليد بن جهور أمير

قرطبة أنه قال : " وردت علي من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة ، وكتاب من ابن عباد يطلب

جارية زامرة ، وكتاب من سواجات صاحب سبتة يطلب قارئا للقرآن ،

وعجب أبو الوليد من ذلك وقال : جاهل يطلب قارئا ! وعلماء يطلبون

الباطيل (٣) " ولما سمع الممتد بخارية ابن الرمي في قرطبة

وما كانت توصف به من البراعة في صنعة الغناء بحث في طلبها

واستجلبها إلى قصره (٤) .

وكانت الموسيقى والغناء تتخللها أدوار من الرقص الجميل من

بعض الراقات وكانت الراقصة تشير بأناملها وهي تغني إلى كل

عضو وما يحل به من تعذيب الهوى ، فان ذكرت دما أشارت إلى العين ،

(١) عبدالسلام الطود : بنو عباد بإشبيلية ، ص ٢٤٧

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٤٧

(٣) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٥٠

(٤) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢١٢

ولئن وجدا أشارت إلى القلب ، وهي مع ذلك تعبر عن تدلل المحبوب
وتدلل المحب بما يليق بهما من الإشارات الحسنة والحركات الفنبهة
على ما أرادت (١) .

وكانت إشبيلية في عصر بني عباد تحيا حياة كلها لهو ومجون على
النقيض مما كانت عليه أختها قرطبة فبينما نرى أهل إشبيلية من ناحية
يضرب بهم المثل في الخلاعة وانتهاز فرصة الزمان الساعة بين الساعة
نرى أهل قرطبة من ناحية أخرى قد تغلبت عليهم حياة الجد والصراحة ،
وكبت الفقهاء فيهم كل نزعة ترمي إلى التمتع بالحياة الدنيا ومباهجها ،
فقد جرت بعد عصر بني عباد بقليل مناظرة بين ابن رشد وأبي بكر
محمد بن زهر في فضائل كل من إشبيلية وقرطبة ، فقال ابن رشد لابن زهر
في تفضيل قرطبة " ما أدري ما تقول ؟ غير أنه إذا مات مطرب بقرطبة
فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية (٢) وان مات عالم في إشبيلية
فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها .

فشغف أهل الأندلس بالفناء والموسيقى إلى هذا الحد ، إن دل
على شيء فإنما يدل على صفة من أبرز صفاتهم ألا وهي رقة عواطفهم .
رغبتهم في العلم :

ومن صفات أهل الأندلس أنهم أحرص الناس على التمييز فالجاهل
الذي لم يوفقه الله للعلم ، أو لم تنتهياً له أسبابه ، يعمل على أن
يتميز بصنعة ما ، ويرى أن يرى عالة على الناس ، لأن هذا عندهم
في نهاية القبح (٣) .

والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يرجع إليه ، ويعلمو قدره
وذكره عند الناس ، ويكرم في جوار أو ابتياح حاجة ، وما أشبه ذلك .

(١) ديوان ابن حمديس ، ص ١٣٣

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ١٤٧

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٠٥

ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة ، (١) وهم يقرأون أو يتعلمون لذات العلم لا للوظيفة . ومن ثم فالعالم منهم بارع ، لأنه يطلب العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك العمل الذي يستفيد منه ، وينفق من عنده حتى يعلم .

مكانة المرأة في الأندلس :

كانت المرأة العربية في الأندلس ذات أثر بين في الحياة الاجتماعية ، إذ نجد المرأة تحظى بتقدير المجتمع ، (٢) ويكون لها مجلسها الذي تستقبل فيه أعيان عصرها وأدباءه على نحو ما نصرف عن المرأة الفرنسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر (٣) . فقد اعتدت المرأة الأندلسية بنفسها ، فكان لها حريتها ، وهي حرية لا يعرفها المجتمع الشرقي في بغداد وغير بغداد ، وإنما يعرفها المجتمع الأندلسي في قرطبة وإشبيلية ، وليس معنى هذه الحرية أن أهل الأندلس كانوا منفكين عن التقاليد الدينية . فلم يكن لرجال الدين في قطر من أقطار الإسلام ما كان لهم في الأندلس من هيبة وسلطان وجلال ووقار . وقد كان للمرأة دور مهم في الحياة ولا سيما في الأدب ، ولكن الطبقة التي تنتمي إليها توءثر في مركزها ونشاطها وعلاقاتها بالرجل تأثيرا عميقا . فكانت حال المرأة في الأندلس تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية التي تنتمي إليها ، (٤) فكانت المرأة المثقفة تعقد المجالس لمناظرة العلماء في شتى نواحي الثقافة والتفكير ، كما كانت تشترك في نظم القصائد وبحث روح الحياة في المجتمعات بجمالها وأدبها .

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٠٥

(٢) علي عبدالمعظم : ابن زيدون ، ص ٦٩

(٣) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٤٤٠

(٤) صلاح خالص : إشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ٩١

فكانت العبادية جارية المعتضد بن عباد أدبية طريفة كاتبة شاعرة ،
وقد تناظرت يوما مع علماء إشبيلية فجاءت بالفريب في كلامها حتى ظهرت
على جميع العلماء ، فيقول المقرئ (١) : أغربت جارية لمجاهد العامري
أهداها إلى عباد - كاتبة شاعرة - على علماء إشبيلية فجاءت بالفرمة التي
تظهر في أذقان بعض الأحداث ، وتحتري بعضهم في الخدين عند
الضحك ، فأما التي في الذقن فهي النونة ، ومنه قول عثمان رضي
الله عنه : وسموا نونه لتدفع العين ، فما كان في ذلك الوقت في
إشبيلية من عرف منها واحدة " وفي إحدى الليالي تجملت الهموم فيها
على ابن عباد فأرقت ، وكانت العبادية نائمة فقال له :

تنام ومَدْنَعُها يسهر وتصبر عشه ولا يصبر
فأجابته بديهة بقولها :

لئن دام هذا وهذا له سيهلك وجداً ولا يشعر
وكانت اعتماد زوجة المعتضد بن عباد مع حسنها وجمالها حلوة الحديث
كثيرة النادرة تقرض الشعر وتتذوقه (٢) .
أما ابنتها بثينة فكانت تشبه أمها في الجمال والنادرة وقرض الشعر ،
وقد حدث لها قصة طريفة نسوقها هنا للدلالة على عفاف المرأة الأندلسية
وصونها لنفسها ، يقول المقرئ (٣) ولما أحيط بأبيها ووقع النهب
في قصره كانت في جملة من سبي ولم يزل المعتضد والرميكية عليها في
وله دائم لا يعلنان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر
المشهور المتداول بين الناس بالمغرب ، وكان أحد تجار إشبيلية اشتراها
على أنها جارية سرية ووهبها لابنه فنظر من شأنها وهيئت له فلما أراد
الدخول عليها امتنعت وأظهرت نسبها ، وقالت لا أحل لك إلا بعقد نكاح

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٦ ص ١٩

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٥ ص ٣٤٢

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٦ ص ٢٠

إن رضي أبي بذلك وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها وانتظار جوابه ، فكان الذي كتبته بخطها من نظمها ما صورته :

إسمع كلامي واستمع لمقالتي فهي السلوك بدت من الأجيال
لا تنكروا أنني سبيت وأنني بنت لطفك من بني عبان
ملك عظيم قد تولى عصره وكذا الزمان يثول للإفساد
لما أراد الله فرقة شملنا وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفاق على أبي في ملكه فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فهازني أمروء لم يأت في أعجاله بسداد
إن باعني بيع العبيد فضمني من صانني إلا من الانكاد
وأرادني لنكاح نجل طاهر حسن الخلاق من بني الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضا ولأنت تنظر في طريق رشاد
فمساك يا أبتى تعرفني به إن كان مما يرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن والإسماع (١)
فلما بلغ شعرها لأبيها وهو بأغصان سرهو وأمرها بحياتها ورأيا أن ذلك
للنفس من أحسن أمنياتها إن علما مال أمرها وجبر كسرهما فكتب إليهما
المعتمد يقول لها :

بنيتي كوني به برةً فقد قضى الدهر بإسعافه

ومن الأديبات الأميرة " ولادة " بنت الخليفة المستكفي التي جاهرت
بلذاتها فأنشدت في مجالس الرجال ، وشاركت في الشعر والأدب ،
وكانت أرستقراطية من البيت المالكة ، قويل سفورها بشيء من الإستغراب
وفي شعرها ما يدل على ذلك :

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتية تيهي

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

يقول ابن بسام : هكذا وجدت هذا الخبر وأبرأ إلى الله من عهدة
ناقليه (٢) .

(١) المقرئ : نفح الطيب ج ٦ ، ص ٢٠ ، ٢١

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١ ج ١ ص ٣٧٦

قال أبو الوليد - ابن زيدون - كنت في أيام الشباب هائما بفجادة تدعى
ولادة كتبت اليّ :

ثَرَقْتُ إِذَا جَنَّ الظَّلامُ زيارتي فَإِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِلسَّرِّ
وبي منك ما لو كانَ بالبدرِ ما بَدَا وبالليلِ ما أَدجى وبالنَّجْمِ لم يَسِرَّ (١)

فلم يخل هذا الشعر من تأنيق في الصياغة ، وصدق في العاطفة وحنوح
في الخيال ، غير أننا نأخذ عليه الميل إلى الخلاعة ، والخروج على
معمود التقاليد .

وقد نالت المرأة في الأندلس حظا وافرا من التعليم ونبغت في
الآداب والعلوم والفنون ، وأسهمت في نواح أخرى من جوانب الحياة
الإسلامية فقد أهلتها ثقافتها إلى أن تشتغل بالسياسة وشؤون الحكم
أو أن تكون مصلحة اجتماعية ممتازة أو تشغل بعض المناصب العاصمة
ذات الأهمية الكبرى (٢) ولقد ظفرت بعض الأندلسيات بمنصب الأستاذية
ونالت بعضهن مناصب غريبة في هذا العصر حتى لبانة كانت تشفيل
وظيفة قلما شغلتها امرأة حيث إنها كانت سكرتيرة خصة للحكم (٣)
واشتهر من النساء عدد كبير كن يساجلن الرجال في ميادين الشعر
والعلم والفن ، وكن زينة مجالس السمر والطرب والغناء وكان لبعضهن
صالونات أدبية تضم عظماء الرجال في الفنون والآداب (٤) وكان
لانتشار الفروسية بالأندلس أثر عظيم في تكريم المرأة وتبجيلها وكانت
السيدات المسلمات يولفن عنصرا بارزا بين المشاهدين في المباريات
التي كانت تقام بالعاصمة وفي هذا يقول فوريل "إن سكان أوروبا
استعاروا من العرب مع قوانين الفروسية احترام المرأة ، وليست المسيحية
هي التي رفعت شأن المرأة ولكنه الإسلام . (٥)

(١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١ ج ١ ص ٣٧٧

(٢) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٣٠٠

(٣) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٣٠١

(٤) سعد شلبي : دراسات أدبية في الشعر الأندلسي ، ص ١٢١

(٥) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ، ص ٢٧٢

ولعل كثرة عدد الشاعرات الأندلسيات بالقياس إلى عددهن في المشرق يعطي صورة توحي بأن نصيب المرأة الأندلسية من العلم والمعرفة كان أكثر من نصيب أختها في المشرق (١) وكان دورها البارز في الهامها للشعراء أكثر منه في إنتاجها الشعر ، فكل ما أثر من شعر النساء لا يقوى حتى يزاحم أشعار الرجال ، وحسب المرأة أن تكون هدفًا كبيرًا تسمو إليه همة الشعراء ، ويكون رضاها أملا يرنو إليه الملوك والأمراء . وتظهر مرتبطة بكل ما هو جميل في الحدايق والأنهار وتمثل مكانا بارزاً في الأدب الأندلسي (٢)

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٦ ص ١٩ - ٣٣

(٢) سعد شلبي : دراسات أدبية في الشعر الأندلسي ، ص ١٣٢

الفصل الثالث

الحياة العقلية

- الحركة الفكرية

- الحياة الأدبية

الحركة الفكرية :

=====

في تاريخ الفكر الأندلسي يمثل القرن الخامس الهجري حقبة متميزة بخصائصها عما سبقها أو لحقها من مراحل هذا التاريخ العام بالفتوح الفكرية ، ففي هذا القرن وصل التأليف في شتى صروب العلوم في الأندلس إلى ذروته وإذا درسنا ما ظهر من الأعمال قبلها تبين أنها تمهيد أو خطوات نحو النضوج الذي ظهر خلالها ، وما ظهر بعدها كذلك كان نسجا على طراز ما ظهر فيها ، فيما خلا استثناءات لا تضعف هذا الرأي ، وفي موضوعات الإنتاج لا يمكن إصدار أحكام جامعة مانعة إنما هي محاولات للتأريخ لجانب من جوانب النشاط البشري قلما يخضع لقاعدة مطلقة أو حكم لا يقبل الاستثناء (١) إذ أن بذور الثقافة التي غرست في العصر الأموي ازدهرت وأينعت في عصر الطوائف ، وساعد على ازدهارها التنافس القوي القائم بين ملوك الطوائف في تشجيع الحركة الفكرية والاعتماد على أربابها ، وكثيرون من ملوك الطوائف كانوا شعراء وعلماء ومؤلفين ، ولقد بدأت إشبيلية وطليطلة وغرناطة وبطليوس تزاوج قرطبة في هذا المضمار ، وكان الأساس الأول في ثقافتهم يرتكز على العلوم الدينية واللسانية ثم الشؤون الدنيوية من طب وهندسة وفلك ولكن عامة الشعب كانوا ينفرون من الفلسفة وفنونها ويناهضون أربابها في عنف وإصرار ، (٢) وكان الحكام يتقربون إلى الشعب باضطهاد الفلاسفة وإحراق كتبهم فكانوا يتدارسون الفلسفة في رقة وتستر وبخاصة في عصور الخلفاء ، يروى أن الحاجب المنصور أمر بإخراج كتب المنطق والفلسفة والنجوم من خزائن الحكم ثم أمر بإحراقها مع أنه كان معبا للفلسفة مقبلا عليها (٣) . ولكن العقول أخذت تتحرر من هذه القيود الصارمة وبخاصة في عهد ملوك الطوائف ،

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، العدد التاسع والعاشر ، ص ٢٥٨

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٠٥

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٠٥

وحسبنا أن نرجع إلى ابن صاعد الأندلسي المتوفي سنة ٤٦٣ هـ فقد ذكر عشرات الأعلام من المشتغلين بالفلسفة في عهده (١) ثم أعلن أن العقول بدأت تتحرر وأن كل من بقي لديه آثار فلسفية أظهرها " فلم تزل الرغبة ترتفع في طلب العلم القديم شيئا فشيئا وقواعد الطوائف تتحضر قليلا إلى وقتنا هذا فالحال بحمد الله أفضل ما كانت بالأندلس في إباحة تلك العلوم " (٢).

وخير دليل على تحرر العقول أن الاشتغال بالفلسفة أصبح محل التنويه والثناء كالاشتغال بالفقه ، وحسبنا دليلا على هذا ما صاغه ابن زيدون وزير المعتضد في مدحه :

هائم يزين الدهر منه وأهله طيك فقيه كاتب متفلسف (٣)

وما كان الوزير ابن زيدون ليمدحه بالفقه والفلسفة ما لم تكن لها جميعا مكانتها من التقدير .

وقد عاصر ابن عمار أو سبقه قليلا أو تأخر عنه يسيرا طائفة من أفاضل العلماء والفلاسفة الخالدين ، ومن أشهرهم علي بن حزم المتوفي سنة ٤٥٦ هـ كان واسع الثقافة حر الرأي مع تدين وتصون ، يقال أن مؤلفاته بلغت أربعمئة مجلد تناهز ثمانين ألف ورقة ، وقد صنف في الفقه والحديث والجدل والنسب والمنطق والفلسفة والشعر ومن أشهر كتبه " طوق الحمامة في فلسفة الحب " وقد دعا فيه إلى الحسب العذرى وزينه بمختارات من شعره (٤) أما أعظم كتبه المحفوظة وأنفعها فهو " الفصل في المثل والأهواء والنحل " وهو كما يقرر الدكتور حتي " يوهله لمقام عال بين العلماء ويضحه شرف السبق في أنه أول عالم

(١) صاعد : طبقات الأئمة ، ص ٦٢ - ٨٧

(٢) صاعد : طبقات الأئمة ، ص ٦٧

(٣) ديوان ابن زيدون : ص ٤٨٦

(٤) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ص ١٥٠

عني بدرس الأديان والمقارنة بينها ، وقد أثار مشكلات تتعلق بأخبار التوراة لم يلتفت إليها أحد حتى ظهور المدرسة النقدية الحديثة في القرن السادس عشر (١) .

ومن أشهر الفلاسفة سليمان بن يحيى بن جبيرول المتوفي سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) وهو من أعظم الذين قاموا بتدريس الفلسفة الأفلاطونية الجديدة في المغرب ، ومن مؤلفاته كتاب إصلاح الأخلاق وقد نشر بنيويورك سنة ١٩٠١ م وكتاب ينبوع الحياة وقد نقل إلى اللاتينية سنة ١١٥٠ م فلعب دورا هاما في فلسفة القرون الوسطى . (٢) وقد ذكره ابن صاعد في طبقاته باسم ابن جبروال ، وتحدث أنه من أهل العناية ببعض علوم الفلسفة . وأنه كان مولعا بصناعة المنطق . لطيف الذهن حسن النظر .

وعلق الأب لويس شيخو على هذا بأنه يسمى عادة بابن جبرون ويسميه الفرنج " Avicbron " (٣) ومن أشهر مؤلفاتهم في الطب كتاب " التعريف لمن عجز عن التصريف " لأبي القاسم هلف بن العباس ، وقد طبع باللغة اللاتينية في القرن الخامس عشر فأمد أوروبا بمرجعها الأكبر في الجراحة وتجبير العظام . وكان قبل طبعه دروسا متداولة بين أبناء الصناعة يعتمدون عليها في الأعمال الجراحية التي تستخدم في العمليات مع توضيحها بالأشكال وطرائق الاستخدام (٤) .

أما علوم اللغة فقد نبغ في هذا العصر عالم ذائع الصيت خالد الأثر هو ابن سيده المتوفي سنة ٤٥٨ هـ صاحب كتاب "المخصص" و"المحكم" والأول قاموس مرتب بحسب المعاني في سبعة عشر جزءا وقد طبع بمصر سنة ١٣١٦ هـ ، والثاني قاموس مرتب بترتيب كتاب العين (٥) ومن علماء

-
- (١) فيليب حتي ، وادوارد جورجي ، تاريخ العرب مطول ، ج ٢ ص ٦٦٢ ، ٦٦٣
 - (٢) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٨٩ / تاريخ العرب مطول ص ٦٨٩ - ٦٩٠
 - (٣) نفس المصدر ، ص ٨٩ / نفس المصدر ، ص ٦٨٩ - ٦٩٠
 - (٤) عباس محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٤٠
 - (٥) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج ٣ ص ٩٠

الشريعة الأعلام : ابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، فقد ألف كتابا سماه " التمهيد " كما ألف كتابا في الصحابة سماه " الاستيعاب " يترجم فيه لكل صحابي ، ويورد أخباره (١) ، ومن علماء الأئمة الأعلام الشنتمري ، المتوفى سنة ٤٧٦ هـ ، وقد شرح دواوين كثيرة . ويكاد يكون اختصاصه في ذلك (٢) .

ومن أبرز علماء التراجم ابن بسام المتوفى سنة ٥٠٢ هـ وتناول فيه أدباء وشعراء القرن الخامس الهجري وما سبقه بقليل ، وكتابه أوسع ما كتب عن التراجم في هذا العصر ويقع في ثمانية مجلدات ضخمة طبع بعضها وما زال الباقي قيد الطبع ، وهو من أهم مصادرنا في هذا البحث ، وقد برع في هذا العصر ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ هـ وهو أعظم مؤرخي الأندلس وله في تاريخها كتاب المبين في ستين مجلدا ، وقد بقيت من هذا الكتاب آثار متفرقة في كتب المؤرخين ، ويروى أنه ألف خمسين كتابا آخر لم يبق منها لدينا إلا بعض كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس ، (٣) ومن الكتب التاريخية القيمة المعجب في تلخيص أخبار المغرب ألفه عبد الواحد المراكشي في تاريخ الأندلس وبلاد المغرب ونشره دوزي بليدن سنة ١٨٨١ م وقد طبع أخيرا بمطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م وقد اعتمدنا عليه عند الحديث عن حياة ابن عمار . ومن مؤرخي العلوم صاعد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ صاحب كتاب طبقات الأمم (٤) ومنهم المظفر البطلاني أمير بطلانيوس المتوفى سنة ٤٦٠ هـ وله كتاب المظفر في خمسين مجلدا (٥) . وبلغ من شغفهم بالتاريخ أنهم نظموا فيه الملاحم المسهبة ، ومن أشهر ملاحم هذا العصر التاريخية ملحمة أبي طالب بن عبد الجبار وقد حفظتها

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج ٣ ص ٥١

(٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج ٣ ص ٩١

(٣) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج ٣ ص ٢٧٥

(٤) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٦٢ - ٨٧

(٥) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٣٦

لنا الذخيرة ، (١) ومن أشهر مؤلفيهم في الجغرافية أبو عبد الله ابن عبد العزيز البكري من أمراء دانية وشلطيش المتوفي سنة ٤٨٢ هـ ، وكان أدبيا شاعرا فقيها نال شهرة بتأليفه الكبير المسمى " المسالك والممالك " وقد ضاع جانب منه ونشر الباقي لدى سلان بالجزائر سنة ١٨٥٧ م (٢) أما الشعراء والأدباء فسنعود إليهم بعد قليل .

وقد أشار أعلام المؤرخين الثقات بالحركة الفكرية بالأندلس وحسبنا أن نذكر ما قاله ليجيردي مستتم " حق علينا أن نقول إن العرب ولا سيما عرب أسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة في الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التي بزغت في أوروبا منذ القرن العاشر فصاعدا " (٣) .

ومن أهم الخصائص المميزة للإنتاج الفكري خلال هذا القرن الذي نتحدث عنه التجويد والإحكام في التأليف ، ثم وفرة الإنتاج المنسوب إلى كل علم من الأعلام ، وتكامل الجهود في شتى ضروب العلم حتى لا يكاد يخلو ضرب منه من مؤلفات مجيدة تعتبر معالم واضحة في تاريخه كله ، وخلال القرن الخامس الهجري أيضا نرى كيف وصلت الرسائل المختصرة التي تكتب في موضوع بعينه إلى ذروة لم تعرفها هذه الرسائل قبل ذلك ، ولقد عرف تاريخ الفكر الإسلامي التخصص منذ زمن بعيد ولكن في ميادين معينة (٤) كالفقه والحديث واللغة وعلوم القرآن ، أما التخصص في غير هذه العلوم كالجغرافية والفلسفة والطب والنبات والعقاقير وما إليها فهو الجديد في الأندلس خلال هذه الفترة ، حتى العلوم التي عرف الأنديلسيون الانقطاع لها قبل هذه الفترة نجد التخصص فيها يصل إلى ذروات لم نعرفها قبلها أو بعدها أمثال أبي محمد علي بن هزم ، وعياض بن موسى بن عياض ،

(١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١ ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٣١

(٢) فيليب هتي : / ادوارد جورجبي ، تاريخ العرب مطول ج ٣ ص ٦٧٦

(٣) محمد كرد علي : غابر الأنديلس وحاضرها ، ص ٤٥

(٤) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، العدد التاسع والعاشر ص ٢٥٨

وأبي الوليد الباجي ، وأبي عمرو الداني ، وأبي عمر يوسف بن عبد البر النمرى ،
وابن سيده المرسى (١) يمينون دون نزاع المرقاة العليا التي وصّل
إليها الفكر الأندلسي في الفقه وعلوم الدين والحديث واللغة في
الأندلس .

والحق أن الشجرة اليانعة لشجرة العلم والفلسفة في هذا العصر ،
عصر ملوك الطوائف ، وبجانبه ثمرات أخرى لجنّات آتت أكلها لا في
ميدان الأندلس وحدها ، ولا في ميدان الحياة الإسلامية العقلية
وحدها ، بل في ميدان الحياة الإنسانية كلها ، فقد كان الغرب
المسيحي يقبل على قرطبة ، وينهل من معارفها وثقافتها ، وكان
لذلك أثره القوي في النهضة الأوروبية الحديثة . (٢)

=

=

=

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، العدد التاسع والعشرون ، ص ٢٥٨

(٢) شوقي ضيف : ابن زيدون ، ص ١١

الحياة الأدبية :

=====

يكاد القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) يمثل الحياة الأدبية في الأندلس في أتم صورة وأروع مثال (١) ، فمن المعروف أن الإزدهار الأدبي في هذا القرن وما تلاه كان ثمرة غراس عصرى الإماراة والخلافة ، وخلال القرن الرابع على الخصوص ، عندما استقرت أمور الأندلس استقرارا كاملا وسادها الأمن والنظام والعدالة قرابة قرن متصل من الزمان نشطت النفوس خلاله فتفتحت الآمال ، وانصرف الراغبون في العلم إلى الدرس والتحصيل ، وكثرت الكتب . (٢) وأطل القرن الخامس والناس آمن ما يكونون فازدهرت الآداب ، وتنافس ملوك الطوائف في اجتذاب الشعراء إلى نواحيهم ، وصدق الشقندى حين قال في رسالته : " ولم تزل الشعراء تتهاذى بينهم تهاذى النواسم بين الرياض ، وتفتك في أموالهم فتكة البراض ، حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه أن حلف ألا يمدح أحدا منهم بقصيدة إلا بمائة دينار " (٣) وإلى هذا يشير ليفي بروفنسال بقوله " كان القرن الحادى عشر الميلادى " الخامس الهجرى " عصر ملوك الطوائف عصرا عرفت فيه أسبانيا أكبر إشراق شعرى من غير شك " . (٤) ولا عجب في هذا فقد كان النثر يعبر عن أغراضه بأسلوب مصقول متموج أقرب إلى الأوزان الشعرية منه إلى الانسيابات النثرية . ويقرر الدكتور أحمد ضيف أنهم وصلوا في النثر أحيانا إلى درجة لا تفرق بينها وبين الشعر إلا في الوزن وقواعد العروض . (٥)

وكثيرا ما كان الشعر يستخدم في الرسائل بدلا من النثر ، وقد

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، العدد التاسع والعشرون ٢٥٨

(٢) محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) ص ٢٤٤

(٣) غرسيه غومس : الشعر الأندلسي ، ص ٤٥

(٤) ليفي بروفنسال : سلسلة محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ، ص ٤١

(٥) أحمد ضيف : بلاغة العرب في الأندلس ، ص ٣١ ٣٢٤

ظهرت في هذا العصر تجديدات وابتكارات لا نجد ما يشبهها في الشعر القديم مثل نظم الأراجيز التاريخية التي اعتمد عليها "ربيرا" ليقول بوجود أدب قصصي أندلسي سابق على ظهورها ، ومنها اختراع الموشحة التي كان لها فيما بعد صدى بعيد (١) وعلى الرغم من أن الآثار الأندلسية الأدبية عدت عليها عوامل التلف والإفساد ، فقد بقيت لنا من هذا العصر خبذة من الآثار الخالدة التي تدل على مبلغ ما أبدعوه من نشر رائع وشعر ساهر وتأليف خالد ، فقد بقي لدينا جانب من رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد ، وهي ملحمة شعرية نثرية لرحلة خيالية في وادي عيقر" ساكن الجن بجزيرة العرب كما تروى الأساطير" يسبق بها صاحبها ابن شهيد أبا العلاء المصري في رسالة الففران كما سبق دانتى في رحلته السماوية (٢) وفي هذا العصر ظهرت موسوعات أدبية كالمظفرى لابن الأقطس ، والذخيرة لابن بسام والمبين لابن حيان كما ظهرت مؤلفات خالدة أشرنا إليها في حديثنا عن الحركة الفكرية في هذا الفصل (٣) .

ولقد افتنن الأندلسيون بالشعر افتتاناً عظيماً فشغل الخاصة والعامة على السواء فكان الأمراء والملوك وعلية القوم يقرضون الشعر ويتساجلون ويجزلون عليه الصلوات كما كان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها دون جيرانه : فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الفيزيائي وامتاز ابن ندى النون صاحب طليطلة باليدخ البالغ ، وفاق ابن رزق صاحب السهلة أنداده في الموسيقى ، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم ويزابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع . (٤)

(١) غرسيه غومس : الشعر الأندلسي ص ١٢

(٢) ابن شهيد : رسالة التوابع والزوابع ، ص ٦٧

(٣) انظر ص ٧٤ - ص ٧٧ من هذه الرسالة

(٤) غرسيه غومس : الشعر الأندلسي ، ص ٤٥

أما الشعر فكان أمرا مشتركا بينهم جميعا يلقي منهم كل رعاية ، ولكن
عناية بني عباد أصحاب إشبيلية به كانت أعظم وأشمل . (١)
ولقد كان العامة يهتزون لنظم الشعر على اختلاف مراتبهم وتباين
طبقاتهم حتى الخدم والجواري ، وفي شتى المناسبات ، وقد كان
الأدب كفيلا برفع صاحبه إلى أسمى المراتب ، وكتب الأدب والتاريخ
غاصة بشتى الروايات في هذا المضمار .

وحسبنا دليلا على انتشار الشعر عندهم ومكانته مارواه القزويني
عن مدينة شلب مهد طفولة ابن عمّار ومدّرج شبابه يقول " قل أن ترى
بمدينة شلب من أهلها من لا يقول شعرا ولا يعاني أدبا ولو مررت
بالفلاح خلف فدانه وسألته الشعر لقرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى
معنى طلبته منه " (٢) وليست شلب في هذا بدعا ، فإن كتب الأدب
غاصة بأمثلة متنوعة لهذا الإتجاه حتى أن بعض الأميين كانوا يقرضون
الشعريين منه كابن جامع الصباغ ، ويحيى القصاب .

مرابن عمّار على ابن جامع الصباغ : فأراد أن يعلم سرعة خاطره ،
فأخرج زنده ويده بيضاء من غير سوء ، وأشار إلى يده - يد الصباغ -
وقال : " كم بين زند وزند " فقال الصباغ : **من بين** وصل وصد "
وحدث أن دخل ابن عمّار على يحيى القصاب السرقسطي ولحم الخرفان
بين يديه فأشار ابن عمّار إلى اللحم وقال : " لحم سباط الخرفان مهزول "
قال الجزار : يقول للفلسين : **منه** : زولوا (٣)

وكانت أبيات من الشعر كفيلا بالتجاوز عن كل ذنب ونسيان كل
إساءة كالأبيات التي أرسلها ابن عمّار إلى المعتمد عندما سجن ريموند
ابنه الرشيد إثر مغامرة ابن عمّار الفاشلة في فتح مرسية (٤) .

(١) غرسيه غومر : الشعر الأندلسي ، ص ٤٥

(٢) ياقوت معجم البلدان ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨

(٣) ابن ظافر : بدائع البداة ، ص ٧٤ ، ٧٥ / المقرئ : نفع الطبيب ،

ج ٥ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣

(٤) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٣٥ - ١٣٦

ومضى الشعراء يقطعون الأندلس طولا وعرضا ، ينتجعون قصور الأمراء حيث يظفرون بالمأوى والصلات ، ويحضررون مجالس أصحاب الأمر ، وتدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين ، (١) وتقرر لهم الأرزاق وتخلع عليهم وظائف التدريس ، ولقد كان الواحد منهم يرتجل المقطوعة القصيرة فيبلغ الوزارة . وأدرك اليأس نفرا منهم ، فانصرفوا عن الشعر وعادوا إلى أزيافهم وإلى ما كانوا يزاولونه قبل احترافهم الشعر من أعمال .

ولم يكن ملوك الأندلس بمصزل عن الحركة العلمية والأدبية في الأندلس ، بل على العكس نراهم يزجون بأنفسهم في هذه الحركة ، ويكونون من فرسان حلبتها ، ويثرونها من نتاج عقولهم وقرائحهم . وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف ، أن يكون معظم الملوك والأمراء من أكابر الأدباء والشعراء (٢) أمثال : المعتصم بن صمدح صاحب المرية ، وأولاده : الواثق ، ويحيى ، وأبو جعفر ، وأم الكرام . ومنهم المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، وملك شعراء الأندلس ، وكذلك أولاده : الرشيد والراضي ، وبثينة . ومنهم ملوك بني الأقبس أصحاب بطليوس وما إليها ، وأشهرهم المظفر صاحب كتاب " المظفرى " في الأدب والتاريخ . ثم بنو هود وعلى رأسهم المقتدر بن هود (٣) واتخذ هؤلاء الملوك قصورهم منتديات زاهرة ، ومجامع حقة للعلوم والآداب ، وقد حفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من الأدباء والشعراء الممتازين ، أمثال : ابن زيدون ، وابن حمديس ، وابن عفاجة ، وابن عبدون ، وابن وهيون ، وابن اللبانة وشاعرنا ابن عمار وغيرهم كثير .

هكذا كانت قصور الطوائف تتنافس في هذا الميدان وتتسابق ، شعورا منها بما تحتنيه من وراء ذلك من فخار ومجد ، وما تسجله روائع

(١) غرسيه غومس : الشعر الأندلسي ، ص ٤٦

(٢) محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام في الأندلس (عصر ملوك الطوائف) ص ٤٢٣

(٣) عبدالعزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ، ص ١٥٥

المنظوم والمنثور من نثر وذكر . وكان من بين هذه القصور بلاط بني
عباد بإشبيلية حيث عاش في بلاطهم شاعرنا ابن عمار وحظي بلقب ذي
الوزارتين .

وما من شك في أن موقف ملوك الطوائف الإيجابي هذا ، ممثلاً في
نتائجهم الأدبية ، قد رفع من شأن الأدب في أعين الناس ، وشجع
منهم ذوي الطموح والمواهب على الإشتغال به ، والتنافس في الإبداع
والإبتكار إنشاء أو تأليفاً ، مما أكسب الحركة الأدبية في الأندلس
أبعاداً جديدة ، وأخذ بيدها صعداً على طريق النمو والازدهار ،
هذه صورة جلية لما امتاز به الأندلسيون في فنون الآداب ، وحسبنا
أن نقرر أن عصر ملوك الطوائف لم ينل شهرته أي عصر آخر في
الفنون والآداب .

=

=

=

الباب الثاني

= حياتهم =

الفصل الأول

=====

- مهد طفولته ومدج شبابه -

- أسرة ابن عمّار -

- ثقافته -

- صفاته وأخلاقه -

- تنقلاته بين ممالك الأندلس -

- عودته إلى شبيب -

أسرة ابن عمار

=====

في قرية شنبوس (١) الصغيرة من أرياض شلب (٢) ولد أبوبكر محمد بن عمار عام ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) في أسرة متواضعة لم يكن لها في الظهور شأن ، حامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرئاسة في قديم الدهر ولا حديثه ذكر (٣) ولا زكا منهم بها أحد . فكل ما نستطيع إستخلاصه من أقوال المؤرخين المسلمين هو أن أباه كان يدعى عمار ابن الحسين بن عمار (٤) وأنه كان ينتسب إلى قبيلة مهرة العربية التي ادعى الانتماء اليها آنذاك خلق كبير (٥) ومهرة هذه فرع من القبيلة العربية المعروفة قضاة اليمانية الأصل . إلا أنه ما يبعث الدهشة ويشير الاستغراب أن ابن عمار نفسه لم يشر أبدا فيما وصلنا من أخباره وأشعاره إلى هذا الأصل العربي ، كما أن جلّ الثقات من المؤرخين الأندلسيين كابن بسام وابن خاقان وعبد الواحد المراكشي لم يذكروا هم أيضا إلى هذا النسب برغم أنهم أطنبوا في الحديث عن الشاعر وعنوا بأخباره .

(١) وهي اليوم بلدة ESTOMBAR البرتغالية جنوبي شلب ،

ابن بسام : الذخيرة قسم ٢ ص ٢٣٥ ، أبو الفداء : تقويم البلدان انظر حول موقع شنبوس .

(٢) شلب SILVES مدينة صغيرة حاليا في جنوبي البرتغال تابعة

لمديرية الغرب ALGARVE ، ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٥٧

الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٣٤٢ .

(٣) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٧٢ .

(٤) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٣١ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٥٥ .

وربما نستطيع الإشارة بهذه المناسبة إلى بيت تعرض فيه الشاعر تعرضاً خفيفاً ليس فيه كبير عناء إلى عرويته حين قال في قصيدته الميمية التي نظمها في سرقسطة وأرسلها إلى صديقه المعتمد (١)

وما حال من ربه أرض أعارب وألقت به الأقدار بين أعاجم

أما أمه ، فقد أشار المعتمد في قصيدة هجا بها ابن عمّار إلى أنها كانت تسمى " شمس " أو شميسة (٢) ،

يا شمس ذاك القصر كيف تخلّصت فيه اليك طوارق الأقدار

هذا كل ما نمتلك من أخبار حول أسرة أبي بكر بن عمّار مع إجماع

المؤرخين على أنها كانت أسرة مغمورة فقيرة دون ما تستد به ولا

حاضر تزهو فيه ، وقد كان لهذا الأصل المغمور أثر كبير في حياة

الشاعر ، أسهم في تكوين نفسيته وطريقة تفكيره . فلم تكن الحياة هنيئة

يسيرة آنذاك لأمثاله من الفقراء ، ولكنه عرف كيف يقود زورقه في خضم هذه

الحياة الشاقة المتعبة ليحقق مطامعه الواسعة العريضة ، وقد نجح في

ذلك بفضل المرحلة المضطربة التي كان يعيش فيها من جهة ، وبفضل

نبوغه وذكاؤه الحاد ومعرفته الناس والخبرات الكثيرة التي زودته بها

الحياة من جهة أخرى ، فقد كانت الحياة السياسية المضطربة في

عصره تفسح المجال للمغامرين الطامعين أمثال ابن عمّار لأن يقوموا

بأهم الأدوار ، محرزين آمالهم العراض أو مقدمين أنفسهم ضحايا

رغبة على مذبح الأطماع والشهوات .

(١) ديوان ابن عمّار : ، قصيدة " ٩ "

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٥٧

ثقافته

=====

ليس أمانا ما يثبت العلوم التي درسها الشاعر فكانت ثقافته وأنارت عقله وبوأته مكانه الرفيع ، ولكن أمانا وسيلتين لمعرفة هذه العلوم أولا هما أن نعرف المذهب الدراسي الشائع في الأندلس في هذا العصر والذي يتلقاه جميع التلاميذ ، والوسيلة الثانية أن نتلمس هذه الثقافة في آثار الشعراء الشعرية فهي جديدة أن تدلنا على ما تلقاه من مختلف الثقافات (١) لقد كان في إمكان ابن عمار وهو طفل في قرية شنبوس أن يتردد إلى المدارس الابتدائية التي كانت تعج بها المساجد في الأندلس رغم فقر أسرته . وهناك كان يتعلم أمثاله القراءة والكتابة وتلاوة القرآن ومبادئ الدين وقواعد اللغة العربية كما يستطيعون أن يحصلوا في الوقت نفسه على معلومات عامة في التاريخ والأدب والحساب . وقد كان بوسع أولئك الذين يرغبون في التوسع في العلم والتعمق في المعرفة أن يواصلوا الدرس والتحصيل ، فالحياة الثقافية مزدهرة (٢) والعلماء الكبار منبثون في كل مكان ولا سيما في المدن الكبيرة ، يجتمع حولهم طلبة العلم وعشاق المعرفة فيقدمون لهم ثمرات الحضارة الإسلامية التي وصلت إلى الأوج في هذا القرن . وقد كان ابن عمار مع هؤلاء الصبية الأذكى الذين كانت لهم الرغبة والمقدرة على الاستمرار في الدرس ولا سيما في ميدان الأدب والشعر .

ولكي يحقق ابن عمار رغبته سافر إلى شلب وهي مدينة اشتهر أهلها بقرض الشعر (٣) وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان ، بلغني أنه ليس بالأندلس بعد إشبيلية مثلها ، وسمعت ممن لا أحصي أنه قال :

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، المقرئ : نفح الطيب

ج ١ ص ٢٠٥ - ٢٠٧

(٢) صلاح خالص : محمد بن عمار ، ص ٢٢

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ ، الحميري : الروض

المعطار ، ص ٣٤٢

قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ولا يعاني الأدب ، ولو مررت بالفلاح
خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته مما اقترحت عليه وأنى معنى طلبت
منه . وتابع فترة من الزمن دروس أبي الحجاج يوسف بن الأعمأ أحد علماء
زمانه في علوم العربية (١) ثم رحل من شلب إلى قرطبة ، فأكمل دراسته
على جماعة من شيوخ العصر ، وبرع في الأدب ، ونظم الشعر فتي ، ونمت
ثقافته الأدبية واللغوية وأيمنت .

إن ما نعرفه الآن عن حياة ابن عمّار وعن شعره لا يشير مطلقا إلى
أنه كان عالما مثبورا أو فقيها موقلا في التفقه ، فكل ما نستطيع تأكّيده
هو أنه كان شاعرا ، وشاعرا فقط ، فلا نعرف عنه نشاطا غير نشاطه الشعري
والسياسي ولا إنتاجا باهرا في غير الميدانين الأدبي والإداري . ولكن
من الإنصاف أن نقول إن ثقافته الأدبية واللغوية كانت من العمق والقوة
بحيث تسمح له أن ينظم القصائد المتينة التركيب ، المتناسكة العبارات ،
الصحيحة الوزن ، ونستطيع أن نلمس هذه الظاهرة في مفرداته وفي تراكيبه
وتعابيره وصياغته الشعرية .

صفاته وأخلاقه

=====

من صفاته ظرف خلاب ، وطموح واسع ، ونكا وقاد (٢) وقد شهد
له الرواة بطلاقة اللسان وظرف الحديث وسرعة البديهة ولهذه الصفات
البارزة في شخصية أبي بكر بن عمّار خف على قلوب الطوك ففتحوا
له صدورهم ومزجوه بأنفسهم . وكثيرا ما تعينه بديهته على الارتجال
الشعري . روى ابن ظافر أنه خرج للنزهة في إحدى ضواحي إشبيلية
ومعه الوزير ابن زيدون وابن خلدون وبعثوا صاحباً لهم اسمه خليفة
ليأتيهم بنبيذ ، فلما رأوه مقبلا بادروا إلى لقائه ، واتفق أن فارسا

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧٢

(٢) نفس المرجع ص ١٧٢ ، ١٧٧

ركض فرسه فصدمه فهشم أعظمه وأجرى دمه ، وكسر قمصال النبيذ
ومضى هاربا فأسفوا لما حدث وأفاضوا في ذكر الزمان وعدوانه
فقال ابن زيدون :

أنلهو والحتوف بنا مطيفه ونأمن والمنون لنا مخيفه ؟

فقال ابن خلدون :

وفي يوم ، وما أدراك يوم مضى قمصالنا ومضى خليفه

فقال ابن عمار :

هما فخارتا راح وروح تكسرتا فأشقا وجيفه (١)

وقد كانت ثقافته الأدبية وحديثه الممتع ومعرفته العميقة بنفوس الناس
سر نفوذه على كثير من رجالات زمانه .

أما ذكاؤه فقد ساعده على الإفادة من تجاربه وخبراته وعلى تحقيق
مشاريعه حتى وصل إلى قمة المجد في بلاط بني عباد كما سنرى في
الصفحات التالية . وأما مطامعه فقد كانت السبب في بحثه دائما
عن أهداف أوسع ومنازل أرفع متعرضا إلى المخاطر ، حتى قادته إلى
طرق وعرة ، وسارت به في مزالق خطيرة أدت به أخيرا إلى نهايته
المحزنة بين أعداء ناقلين وحساد شامتين ، كان جلهم من أصدقائه
القدماء وخلانه الأصفياء (٢) وهذا لا يتعارض مع ما أشرنا إليه
من نفوذه على كثير من رجالات عصره ، إذ يبدو أن علاقته القوية
بهذه الشخصيات لم تكن تمنع الشك وسوء الظن اللذين كانت
تفرضهما الظروف والمناسبات .

لقد وضع ابن عمار جميع كفاياته وذكائه في خدمة مطامعه وأغراضه ،

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٢٧

(٢) عبدالواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٨٦ ، ١٨٧

فلم تكن المثل الخلقية والدين والصدقة ، بل وحتى الشعر نفسه (١) سوى وسائل تعينه على بلوغ أهدافه وتحقيق مآربه . لقد جعلت منه هذه الصفات شخصا مخيفا مرهوب الجانب ، كثير المكر والدهاء (٢) ولا شك أن أصله المغمور وعائلته الفقيرة إلى جانب كفايته وذكائه ومرحلته المضطربة كانت عوامل فعالة في تكوين شخصيته الخاصة ونفسيته "الوصولية" وتفكيره "الميكيا فيلي" الذي كان الغاية بالنسبة له تبرر الوسطة (٣) وقد انعكست هذه الصفات في أعماله ومشاريعه وأماله . ولكن اهتمام ابن عمار لم يكن محصورا فقط بالمجد والمنصب الرفيع والمركز السامي ، بل كانت الحياة نفسها بكل ما فيها من متعة وأنس وفرح وبهجة غرضا من أغراضه ومآربا من مآربه ، كان يحب الخمر ويهوى حلقات الأنس ويمشق الغلمان مستسلما لجميع ملاذ الجسد . قال ابن بسام في الذخيرة يصف ابن عمار ((كان زيرقيان وغلما ، وصريع راح وريحان ، أمله شرب كأس وشم آس ، وهزله في نصيب حباله لغزال أو غزاله حتى ثل ذلك عرشه وطأ طأه من سموه)) (٤) ويبدو أن ابن بسام نظر إلى جانب واحد من حياة هذا الرجل الذي شغل بال معاصريه وكثر حساده ومنافسوه ، فقد كان إلى جانب نزعة الأبيقورية رجلا طموحا شديد الثقة بنفسه والاعجاب بها ، ولا نزاع في أن الحيلة التي اصطنعها في دفع عدوان الأعداء فونس على إشبيلية (٥) زادت غرورا واعتزازا بنفسه ، وجعلته يطمحها فوق قدرها ، وتظل صفاته هذه تتضح وتنعكس في أعماله وأقواله حتى اللحظة الأخيرة من حياته .

(١) عبد الواحد المراكشي : المصعب ، ص ١٧٨ .

(٢) ابن دحية : المطرب في أشعار أهل المغرب ، ص ١٥٦ .

(٣) صلاح خالص : محمد بن عمار ، ص ٢١ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٥) سنتعرض لها فيما بعد .

تنقلاته بين ممالك الأندلس =====

ما كان ابن عمار يشعر أنه قد بلغ في ثقافته الأدبية حداً يؤوله لشق طريقه في ميدان الشعر، حتى انطلق سالكا الطريق التقليدي الذي كان يفرضه المجتمع وتقاليدته على الشعراء المعدمين من ذوى الطموح؛ وذلك بوضع كفايته الأدبية في خدمة الطبقة الأرستقراطية الحاكمة يشيد بآثارها ويتغنى بأمجادها ككثيرين من أمثاله. وما برح يجوب أنحاء الأندلس يتكسب بالشعر، وينظم قصائد المدح، يسترفد بها كل من يتوسم فيه الأريحية والعطاء، لا يخص بشعره الملوك دون السوقة، كما يفعل النابهون من الشعراء في عصره الذين يرون من الزاوية عليهم أن ينظموا الشعر في غير الملوك والنابهين من العظماء.

كان هذا الشاب الناشئ والشاعر المغمور، بنزعتة هذه وورثاة طبسه بما يلبسه من جبة صوف طويلة وقلنسوة صغيرة، يهش له ويهش في وجهه أناس، ويمطف عليه ويرثي لحاله آخرون. وكان يعد من السعادة أن يظفر بسرى من أولئك الذين أوتوا حظاً من الفنى، ونالوا نصيباً من الثراء، ليعطيه مقابل ما يمدحه به من شعره الذى له قيمته وخطره (١).

انطلق ابن عمار يجوب الأندلس قاصداً ملوك طوائفها عارضا عليهم بضاعته المبتدلة. والأخبار القليلة التي لدينا عن هذا الشاعر في هذه المرحلة من حياته تشير إلى أنه قصد كثيراً من الناس، منهم ابن طاهر أمير مرسية في حالة مزرية من العدم وورثاة اللباس (٢) إلا أن هذه الأخبار نفسها تشير إلى أنه فشل فشلاً ذريعاً في جهوده هذه حتى لقي المعتضد طك إشبيلية ولكنها لا تنقل

(١) دوزى : ملوك الطوائف ، ص ١٨٥

(٢) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٣١

لنا شيئا من شعره ولا تحدثنا من أخباره سوى حادثة عودته إلى شلب بعد تجواله في ممالك الأندلس .

إلا أن ما نظم ابن عمّار قبل التقائه بالمعتضد ملك إشبيلية قد اختفى إختفاء تاما ولم يصل إلى أيدينا منه شيء . ولم يكن ابن عمّار نفسه حريصا على شعره هذا ، فقد ذكر لنا ابن الأبار أنه أحرقه قبل ماته أيام مجده (١) لأنه لم يكن كما يبدو مصدر فخر له . ولكن كل ما نعرفه أن هذا الشعر كان في مدح شخصيات عصره . بل يبدو أنه لم يحصل بنظر الآخرين على أى اعتبار يدفعهم إلى الاحتفاظ به وتسجيله ، فلم نرموئرخا من المعنين بأخباره وشعره يتطرق إلى شيء من ذلك . كما نعلم أن لا أحد من رجالات الأندلس أعجب به قبل لقاءه بالمعتضد على الرغم أنه قصد قسما كبيرا منهم . إن هذا الحال يسمح لنا إلى حد ما بالقول أن فقدان شعر ابن عمّار الذى نظم في هذه الحقبة من حياته ليس خسارة تستحق الأسف ، لأنه لم يحظ بتقدير معاصريه بل ولا حتى بتقدير الشاعر نفسه . ولكن على رغم أن هذه المدة كانت قاسية مريرة ، تكبد فيها الشاعر ضروب الشقاء ، فإنها كانت المدرسة التي عرف فيها ابن عمّار الرجال وخبر الحياة واطلع على أحوال الأندلس ، مما كان له أكبر الأثر في حياته التي عاشها بعد ذلك ومجده الذى بناه . إنها كانت مدة التحضير والاستعداد للمراحل التي تلت هذه المرحلة من حياته . فهي وإن لم تكن ذات قيمة بذاتها فإن قيمتها في حياة الشاعر وفي إعداده كبيرة ذات أثر .

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٣٣

عودته إلى شلب

=====

لقد ترك ابن عمار بلدته شلب مدرج طفولته ومغنى شبابه ليدور
بشعره على الطوك يسترق ما لهم بما يرفده عليهم من شعره ، ولقد
مدح فبالغ في المديح ، وتحمل المشقة وضك الترحال والتجوال من
أجل دراهم لا تسد رمقه ولا تساوى خروجه ودورانه .

ولدينا حادثة طريفة يغلب عليها الخيال القصصي ، تصف مع
ذلك طرفا من الحياة التمهيسة التي كان يحياها ابن عمار في هذه
الحقبة القاسية .

ولدينا عن هذه الحادثة روايتان تختلفان بعض الاختلاف ، الأولى
رواها ابن بسام في كتابه الذخيرة (١) والثانية ذكرها عبدالواحد
المراكشي في كتابه المعجب (٢)

تتفق الروايتان تقريبا في أن ابن عمار وصل في يوم من أيامه
المصيبة إلى شلب ، لا يملك سوى بغلته التي كان حائرا في إيجاد
الملف لها ، فلم يجد سوى أن يكتب بضعة أبيات إلى تاجر من
وجهاء السوق يمدحه فيها ويصف له سوء حاله ، فلما تسلم التاجر
الأبيات عطف على ابن عمار وأرسل إليه مخلاة شمير .

إلى هنا يتفق الكاتبان ، ولكنهما يختلفان في تصوير رد الفعل
الذي تركته هذه الهدية في نفس ابن عمار فيقول المراكشي أن
ابن عمار كان راضيا كل الرضى بهذه الهدية بل اعتبرها من
أجل الصلات وأسنى الجوائز ، لذا كافأ التاجر عند رجوعه حاكما على
مدينة شلب مرسلا من قبل المعتمد ، بإرساله مخلاة مليئة بالفضة قائلا
له : " لوملائها برا لملائها تبرا " .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٣٦ وما بعدها

(٢) عبدالواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧٣ .

أما ابن بسام فيذكر أن الشاعر غضب غضبا شديداً لكرامته وعدها إهانة له ، وكان يرفض هذه الهدية الوضيعة ، ولكنه تذكر بغلته فأرسل إليها الشمير .

ثم يقول إن ابن عمار لم ينس هذه الإهانة عند رجوعه حاكماً إلى شلب ، فدعا التاجر إليه وعنفه على علمه ، فاعتذر منه خائفاً من العقاب ، ثم أرى ابن عمار أبياته رمزاً لاعتزازه بها وحرصه عليها ، فرضي هذا عنه وأمر بإعطائه مخلاته طيبة بالفضة قائله :

" لولا حرمتك لأوجعتك أدبا ، ولو ملأت تلك أمس برا لملائنا
هذه تبرا " (١)

وعلى الرغم أن الخيال قد يكون لعب في هاتين الروايتين دورا ما ، فإننا لا يمكن أن نعرض عنهما تماما . فليطأ فيهما جزء من الحقيقة ، ولا سيما ما يتعلق منهما بحياة ابن عمار البائسة في هذه الحقبة . إلا أن من المهم أن نلاحظ أن كلا من المراكشي وابن بسام صور شخصية ابن عمار بشكل يختلف عن الآخر . فأما الأول فقد صورته رجلاً بائساً فقيراً يشعر بوضاعة مركزه ، فهو لا يكاد يحس بالكرامة والاعتزاز لا بنفسه ولا بشعره ، فيرضى بمخلاة شمير ويسر بالحصول عليها لقاء جزء من إنتاجه الأدبي ، فأى بؤس وأية وضاعة في النفس . أما ابن بسام فيقدم لنا شخصية أخرى تفرض الاحترام والتقدير شخصية ذات كرامة ونفس رفيعة لا تعدم نبلا وشهامة . فهو يتردد في رفض هدية متواضعة جدا ويفض لكرامته وكرامة شعره ، ولكنه مع ذلك لا ينسى جميلاً أسدى إليه فيكرم صاحبه عليه .

ولا نستطيع أن نجزم بصحة إحدى هاتين الروايتين ، ولكن على رغم أن ابن بسام كان أقرب عهدا لابن عمار وأنه عني بأخباره (٢) وألف

(١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٣٧

(٢) محمد عبدالله عنان : دولة الاسلام في الأندلس (دول الطوائف) ص ٧١

كتابا عنه فيبدو لنا أنه إنما عبر عن رأيه في موقف ابن عمّار أكثر مما صور موقف ابن عمّار نفسه حينما تحدث عن غضب ابن عمّار لكرامته . يدل على ذلك مخلاة الفضة التي قدمها للتاجر منبها إياه إلى أنه كان سيعطيه مخلاة ذهب ، لو كان قد أرسل مخلاة من القمح إذ ليس الفرق بين ثمني الشعير والقمح كبيرا بحيث يغير ابن عمّار رأيه فيرضى ويهب الذهب ، لذا فرواية المراكشي أقرب إلى المنطق . هذا فضلا عن أنها أكثر انسجاما مع ما نعرفه عن أخلاق ابن عمّار وصفاته .

أما أبو بكر بن عمّار فقد كان يضع على نفسه بضعة أخلاق من الثياب إن اختل نظام واحدة منها وضعت من تحتها عظام الشاعر بارزة تكاد تطل من جسم صاحبها ، وكان يضع قلنسوة صغيرة يكاد شعره أن يلقي بها (١) .

هكذا عاد ابن عمّار إلى شلب لا يقصد فيها أحد فقد ولد في شنبوس وتلقى علومه في شلب على يد أبي الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ، (٢) إلا أن أستاذه هذا قد مات ومات معه أغلب من كان يمرضهم من الأساتذة والباقي فهم لا يجروء ابن عمّار أن يقصدهم فجميعهم فقراء ، فلم يبق أمامه إلا أن يكافح وحده ليرد جوع نفسه وجوع بخلته التي أضناها التعب .

هكذا يعود ابن عمّار إلى شلب وهو يفكر في غده الذي ينتظره والذي يتربص به ليفعل به مثلما فعل الأمس . فويل لابن عمّار من غده أو ويل للغد من ابن عمّار .

(١) ثروت أباظه : ابن عمّار ، ص ٧

(٢) عبدالواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧٣

الفصل الثاني

في بلاط بني عباد

- مع المعتضد بن عباد
- في ظل المعتضد بن عباد
- عودته إلى إشبيلية
- ابن عمّار في المنفى
- ولايته شلب
- ذو الوزارتين في إشبيلية
- ابن عمّار السياسي

لم يزل ابن عمّار يتقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن وصل إلى إشبيلية (١) .

لقد حاول شاعرنا ارتقاء سلم المجد الأدبي ولكن محاولاته باءت جميعها بالفشل الذريع . فقد ظل الشاعر مغمورا يعاني مرارة الفاقة وبؤس الحرمان ، دون أن يفوز بالخطوة لدى أحد أمراء الطوائف . وما كاد يصل إشبيلية حتى قرر اختبار حظه مع ملكها المعتضد بن عباد كما فعل مع غيره من قبل . لقد كان المعتضد آنذاك في قمة المجد ، فقد انتصر قبيل ذلك انتصارا ساحقا على ابن الأفطس أمير بطليوس (٢) ثم وجه اهتمامه بعد ذلك إلى الأمراء الصفار من البربر وغيرهم الذين استقلوا بالأمر بعد انحلال الخلافة في قرطبة ، فكانوا يحكمون مقاطعات صغيرة مستقلة تقع جلها في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة ، فألحق بهم خسارة فادحة وضربات قاضية ووسع نتيجة ذلك رقعة مملكته توسيما كبيرا .

لقد كان ملك إشبيلية آنذاك في حاجة دون شك أكثر من أي وقت مضى إلى أن يمجّد انتصاراته ويخلد اسمه ويتفنّى بأعماله وآثره . ويروى لنا ابن بسام خبرا يظهر فيه بوضوح اتجاه المعتضد هذا وحاجته النفسية لتخليد مآثره والتفني بأعماله فيقول :

إن المعتضد نظم بعد احتلاله لمدينة رندة قصيدة ذكر فيها هذا الحدث ، فافتخر بشجاعته وصلابته وذكر أنه " أعجب بهذه القطعة الرندية عجب حسان بن ثابت بقصيدته الميمية (٣) " وأخذ الناس يحفظها وحملهم على ضبط معانيها ولفظها " فقد كان المعتضد إذن يحس بالفخر والاعتزاز ، وكان في حاجة لأن يمدح ويشاد بأعماله ، وتوصف بطولاته فنظم أبياتا من الشعر يقول فيها :

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٣١
(٢) محمد عبدالله عنان : دولة الاسلام في الأندلس (دول الطوائف) ص ٤١
(٣) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ج ١ ، ص ٣٢

لقد حُصِّلَتْ يا رنده فصرت لملكنا عِقدَه
أفادتاك أرماح وأسيفاً لها حده
وأجناداً أشداء بهم تنتهي الشده
غدوتُ يروني مولى لهم ، وأراهم عُدَه
سأفني مُدة الأعداء ، إن طالت بي المدَه
وتبلى بي ضلالتهم ليزدان الهدى جدَه
فكم من عِدَّةٍ قتلَ تُ منهم بعدها عِدَه
نظمتُ رؤوسهم عقداً فخلت لبه السُدَّة (١)

فمن الطبيعي أن يجد الشعراء في هذا الإحساس فرصة مناسبة
ينتهزوها لإشباع رغبة الطك الثرى فتتنظم القصائد الطويلة وتكتب
الرسائل المستفيضة في ذكر مآثره .

سمع ابن عمار عن المعتضد وعن حبه للشمر فشد إليه رحاله
عساه أن يجد لنفسه متسعاً في الزحام ، ولم يكن ابن عمار ليترك
هذه الفرصة الذهبية تفلت من يديه ، فتقدم إلى الملك بقصيدته
الرائية المشهورة والتي أضى ذهنه في إعدادها مطلعها :
أدر الزجاجة فالنسيم قد إنبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كأفوره لما استردَّ الليل منا المنبراً (٢)
إلى أن يقول :

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود وإن تسموا بربراً
أثمرت رمحك من رؤوس كما تبهم لما رأيت الفصن يُعشق مشراً
وخضبت سيفك من دماء بحرهم لما عهدت الحسن يلبس أحمرأ
ولما أنشد ابن عمار هذه القصيدة استحسناها المعتضد وأمر له بقال

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٥٠

(٢) الديوان : قصيدة ١٠ ، المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٧٧

وثياب ومركب وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء فكان كذلك (١)
وتعتبر هذه القصيدة أول قصيدة رفعها ابن عمار إلى القصر العبادي
مدح بها المعتضد وأثنى على ابنه إسماعيل الذي كان آنذاك نحو
سنة ٤٤٥ هـ وليا للعهد وصار بعد ذلك من شعراء المعتضد بن
عباد (٢) ومنذ ذلك الوقت أخذ ينظم غرر قصائده في مدح المعتضد
ويشيد ببطولاته، وأتاح له ذلك فرصة الاتصال بالمعتمد وهو شاب
ناشي نزاع إلى الأرب أوتي الموهبة الشعرية، وتوثقت بينهما
الصداقة ولم يدر بخلدهما ما تخفيه الأيام لصداقة جديدة وعهد
جديد .

=

=

=

(١) عبدالواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧٥

(٢) محمد رضوان الداية : مختارات من الشعر الأندلسي ، ص ٨٣

في ظل المعتمد بن عباد

وفي إشبيلية تفتحت أمام ابن عمار آفاق جديدة ، ترتبت عليها نتائج مهمة كان لها أكبر الأثر في مستقبله . ففي بلاط المعتضد تعرف الشاعر بالأمير محمد ابن الملك وخليفته على العرش . ويبدو أن صفات مشتركة وميولا متشابهة جمعت بين الرجلين ومنتت عرى صداقة وثيقة أصبحت فيما بعد مضرب الأمثال .

وكان ابن عمار على ما يبدو شائق الحديث ، جذاب الشخصية ، طيب باستهواء النفوس ، واختلاب الألباب ، وقد عركته الحوادث ، وصقلته التجارب ، فلما أرسل الأمير محمد فاتحا لشلب ثم حاكما عليها استوزر ابن عمار ، وأولاه ثقته ، ووكل إليه كل أموره ، وترك له الحكم والأمر والنهي وأصبح ساعده الأيمن ورفيقه المقرب (١)

وهناك في شلب بدا الشاعر البائس الشريد شخصا آخر لا يكاد يمت إلى سابقه بصلة ، فقد غيرت الحياة المترفة التي كان يحياها إلى جانب الأمير في قصر الشراحيب كل مظهر من مظاهر حياته القديمة البائسة . لقد استجاب الرفيقان لدواعي المتعة والانس واستسلما للملذات والمباهج وانغمروا في الترف والمجون بشكل بقيت ذكراه عالقة في نفسيهما بعد ذلك بزمن طويل . وكان هناك بطبيعة الحال فرق كبير بين نشأة هذين الصديقين (٢) فالمعتمد نشأ في ظلال الملك ومقاصير العز ، وصاحبه نشأ محروما مصدوما ، وتعرض لألوان من الشدائد ، وعرف ضيق الرزق ونذل الحاجة فلما قرىبه المعتمد واصطفاه كانت آثار ما عاناه من البؤس والعيشة الضنك لا تزال عالقة بنفسه مخلقة فيها من المقدم ما ينقص عليه متعه ، ويلقي على حياته ظلالا كامدة اللون ، وقد قرىبه المعتمد أشد تقريبا ، وخلط به نفسه حتى كان كما يقول المراكشي :

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧٦

(٢) علي أدهم : المعتمد بن عباد ، ص ٩٧

"يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه" (١) وكان ابن عمار يصحب المعتمد في غدواته وروحاته ، وقد ركب المعتمد في بعض الأيام قاصدا الجامع وابن عمار يسايره ، فسمع أذان المؤذن فقال المعتمد :

هذا المؤذن قد بدأ بأذانه

فقال ابن عمار :

يرجو بذاك العفو من رحمانه

فقال المعتمد :

طوبى له من شاهد بحقيقة

فقال ابن عمار :

إن كان عقد ضميره كلسانه . (٢)

ففي هذه المحاولة الشعرية يظهر لنا جانب الفرق بين العقليتين أو المزاجين ، العقلية الواثقة المطمئنة والعقلية المتوجسة المتشككة والتجارب التي مرّ بها ابن عمار تركت في نفسه مرارة ، وأعقبته سوء ظن بالطبيعة الإنسانية ، ولم يغير هذه الحالة ما أحاطه به المعتمد من الود وما اختصه به من الرعاية ، والشك وسوء الظن اللذين غلبا على طبعه كانا يجعلانه لا يثق إلا بنفسه ، وقد قوى في نفسه هذه النزعة أن الرجل كانت فيه طبيعة المفارمين الوصوليين ، فاتجاه تفكيره ومحور سياسته إقتناص الفرص وانتزاع المناسبات لتوطيد مكانته وعلائه شأنه . وكان الصديقان في إشبيلية يسترسلان كدأبهما في اللهو والإستمتاع . واتفق مرة انهما كانا يتنزهان في مرج الفضة أحد متنزهات المدينة التي كان يفشاها الناس لجمال مناظره وطيب هوائه وحسن موقعه ، وجلسا إلى جانب نهر الوادي الكبير في أسمية رق فيها النسيم وطاب الهواء ،

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧٦

(٢) الديوان : قصيدة ، ١٨ ، المقري : نفح الطيب ، ج ٥ ص ١٤٩

وشاء القدر أن يلقي المعتمد المرأة التي صار لها تأثير كبير فسي حياته ، وكانت النسما تترك مياه النهر حركات خفيفة ، فقال المعتمد لصديقه الشاعر أجز : " صنع الريح من الماء زرد " فأطال ابن عمار الفكرة ، ولم يكن في نظمه الشعر من أوتوا البديهة الحاضرة وكانت امرأة من الفسالات على مقربة منهما ، وسمعت ما قاله المعتمد لصديقه ابن عمار ، ولما عجز ابن عمار عن الإجابة قالت المرأة على البديهة " أي دغ لقتال لوجمد " (١) فأعجب بها المعتمد فاشتراها من سيدها وتزوجها ، وتلك هي اعتماد الرميكية التي أنجبت لهذا الأمير ملوكا حكموا له الأندلس .

يبدو واضحا أن الصديقين الشابين لم يدعا سبيلا من سبل الأئس لم يسلكاه ولم يتركا بابا من أبواب المتعة لم يطرقاه ، حتى أصبحا مضرب أمثال الناس وموضع حديث البعيد والقريب ، لقد كان لهذه الأيام السعيدة وهذه الحياة والصفات المشتركة أثرها الفعّال في تشديد روابط الصداقة وتوثيقها حتى أصبح أحدهما لا يكاد يفارق الآخر ومع ذلك كان يخالج قلب ابن عمار ، قلق عميق من مستقبل هذه الصلة الوثيقة . تدل على ذلك القصة التي يرويها مؤرخو الأندلس والتي يقال إنها حدثت في هذه الحقبة من حياة ابن عمار ويبدو أن لهذه القصة أساسا من الصحة لأنها رويت في مصدرين ذكرها ابن بسام في كتابه الذخيرة (٢) نقلا عن المعتمد بن عباد ورواها عبد الواحد المراكشي في كتابه " المعجب " نقلا عن ابن عمار نفسه . يقول ابن بسام : ويتعلق بهذا القتل الشنيع خبر غريب لمسموع من ذلك الأوان وحدث طريف من الحدثان ، أخبرت به من غير واحد من وزراء المعتمد ، وذلك أنه لما مضت على قتل ابن عمار أيام ، حضروا مع المعتمد في مجلس أئس .

(١) آنخل جنثالت بالنشيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٩٥

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٧٤

فلما طابت الأنف وأخذت منهم حميا الأكوأس وراح المعتمد وهز عطفه ،
وبدا على قسماته عطفه ، سئل عن هذا الخبر المستظرف الذي كانوا
سمعه من بعض السلف وأقسموا عليه بتخليد ملكه في أن يحدثهم
بحديث كان إليه ينسب وقالوا هو من فم مولانا أطيبي ، فقال لهم كلاما
معناه ، لعل هذا الاستخبار عن شأن ابن عمّار قالوا أجل . وطفقوا
يفدونه بالأنف وأكثروا في وداده من شرب الأكوأس ، فأخبرهم أنه
كان أيام مقامه بشلب قد غلب ابن عمّار على نفسه ، وأخذ بمجامع
أنسه ، فأمره وأخذ عليه ، إذا دعا أصحابه أن يكون أول داخل وآخر خارج ،
ليأنس به ويتمتع بأدبه ، فيجده يفرغ نثار العثار ويتسلل من مجلسه تسلل
الطريدة من يد الصائد فلما أبى إلا اطرادا عن أصله وطال عليه ذلك
من فعله ، تقدم إلى أصحاب سدة ليلة في ترقبه وضعه عن مذهبه ،
وأنذر وتهدد وأبرق في ذلك وأرعد . وقام ابن عمّار كماداته فلم يحفل
المعتمد بمكانه لما كان قدم من شأنه . فلما انفض من كان عنده التمسّه
ففقده ، وطلبه منتهى جهده فما وجده . وأحضر من كان تقدم فيه ،
فأخبر أنه لم تقع له عين عليه . فرآه أمره وهفي عنه سره ، فشهر فيما
بلغني سيفه وأخذ الشمع بين يديه ، وجعل يطلبه حيث يحسبه ولا
يحسبه ، فلما انتهى إلى بعض الدهاليز ، إذا بحصير مطوى وابن عمّار
فيه أغمض من سر خفي ، عريان كالأنفوان فأمر بحمله وهو قد تعجب
من فعله . فلما استقر بالمعتمد المجلس جعل يبسط جانب ابن عمّار
وبؤسه ، وابن عمّار يكي فيضحك ويشكو فيشكك . فلما سكن قليلا وأفرح
روعه ورقى دمه سأل عن شأنه . فأخبره أنه كلما كانت تأخذ منه الشمول
يسمع كأن قائلا يقول :

يا مسكين هذا يقتلك ولو بعد حين . كلاما هذا معناه . فلا يزال
يطلب الأنس بوسعه فيبعد عليه ذلك ويمتنع حتى يصنع ما يصنع إلى
أن كان له معه الذي قدر . (١)

هكذا يروى ابن بسام هذه الحكاية مستثداً على حديث للمعتمد مع وزرائه أما عبدالواحد المراكشي وهو أبعد عهداً عن عصر ابن عمار من سلفه ، فقد رواها بشكل يختلف بعض الاختلاف عن رواية ابن بسام معتمداً على حديث لابن عمار نفسه قال المراكشي :

" وله معه أى لابن عمار مع المعتمد أيام كونهما بشلب خبر عجيب وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه ، على ما كانت المادة جارية به ، إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معي على وساد واحد . فكان ذلك قال ابن عمار فهتف بي هاتف في النوم يقول لا تغتر أيها المسكين إنه سيقتلك ولو بعد حين . قال فانتبهت من نومي فزعا ، وتعوذت ثم عدت ، فهتف بي الهاتف على حالته الأولى ، فانتبهت ثم عدت ، فسمعتة ثالثة ، فانتبهت ، فتجردت من أثوابي والتفت في بعض الحصير ، وقصدت دهليز القصر مستخفيا به ، حتى آتيت البحر فأركبه وأقصد بلاد العدو فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت . فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدني . فأمر بطلبي ، فطلبت له في نواحي القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، فكان هو الذى وقع عليه ، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح ، وقوف بإزاء الحصير الذى كنت فيه ، فكانت مني حركة فأحس بي وقال ما هذا يتحرك في هذا الحصير ؟ ثم أمر به فنفض ، فخرجت عريانا ليس علي إلا السراويل . فلما رأني فاضت عيناه دموعا وقال : يا أبا بكر ، ما الذى حملك على هذا ؟ فلم أربدا من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها . فضحك وقال : يا أبا بكر أضغاث أحلام ، هذه آثار الخمار ، ثم قال لي : وكيف أقتلك ؟

أرأيت أحدا يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندى إلا كنفسى . (١)

فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء . (١) وتناسى الأمر فنتسيه ،
ومرت على ذلك الأيام والليالي ، فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتد
نفسه كما قال !

ولا يهمننا الاختلاف بين الروايين بقدر ما يهمننا إتفاقهما في وصف
متانة عرى الصداقة بين الشاعر والمعتد وشدة تعلق الأخير بابن عمار
مما سيكون له أكبر الأثر في حياته المقبلة .

وهكذا كانت حياة ابن عمار في شلب ، حياة كلها متعة وأنس ، وترق
وبذخ بين جدران قصور الأمراء حيث العيش فيها أشبه بالأساطير .
لم يكن حب المعتد لاعتماد ليشغله عن صديقه ابن عمار الذي حل
من قلبه محلا كبيرا وافق مرة أن نأى عنها ، وانصرف للتنزه مع صديقه
كالمعتد فحداه الشوق أن يرسل لها رسالة ضمنها الأبيات الستة
التالية :

أغائبُ الشخصِ عن ناظرِي وحاضرةٌ في صميمِ الفؤادِ
عليكِ سلامٌ بقدرِ الشجونِ ودمعُ الشؤنِ ، وقدرِ السهادِ
تطلكتُ مني صعبُ المرامِ وصادتِ ودى سهلُ القِيادِ
مرادى لقياكِ في كل حينٍ فيا ليتَ أني أُعطى مرادى
أقيمي على العهدِ ما بيننا ولا تستحيلي لطولِ البُعادِ
دسستُ أسْمَكِ الحلوى في طيهِ وألّفتُ فيه حروفَ "اعتماد" (٢)

وقد ختم هذه الأبيات الستة التي طرز فيها اسم "اعتماد" بذكر
اسمها في البيت الأخير ثم ختم إليها بقوله :

"سأعود إليك على عجل لأتلى بروءيتك إن شاء الله ربي أو شاء
ابن عمار" ولما علم ابن عمار بالأمر وجه إليه هذه الأبيات :
مولاي ، عندى لما تهوى مساعدةٌ كما تتابع خطف البارق السارى

(١) ابن الأبارج الحلة السيرا ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ، عبد الواحد المراكشي :

المعجب ، ص ١٧٧

(٢) على أدهم : المعتد بن عباد ، ص ١٠٥

إِنْ شِئْتَ فِي الْبَحْرِ فَارْكَبْ ظَهْرَ سَابِحَةٍ
أَوْ شِئْتَ فِي الْبَرِّ فَارْكَبْ ظَهْرَ طَيَّارٍ
حَتَّى تَحُلَّ وَحَفِظَ اللَّهُ يَكْلُونَنَا
سَاعَاتٍ قَصْرِكَ وَاتْرَكْتَنِي إِلَى دَارِي
وَقَبْلَ خَلْعِ نَجَارِ السَّيْفِ فَاسْعِ إِلَى
ذَاتِ الْوَشَاحِ وَخُذْ لِلْحُبِّ بِالنَّارِ
ضَمًّا وَلِثْمًا يُغْنِيَّ الْحُلَى بَيْنَكُمَا

كما تجاوبه أطيَّارُ بأسْحَارِ (١) †

وبينما كان ينعم المعتمد بحب زوجته وصداقة صديقه الشاعر الذي أصبح كما يقول المراكشي " ألزق بالمعتمد من شعرات قصه وأدنى إليه من حبل وريده " (٢).

وكانت زوجته تغريه بالانطلاق في المتعة ، وصديقه الأوسع منه تجربة والذي كان لا يقل عنه تعطشا في ارتياد المتع يزين له الإسراف في اللهو .

وساء المعتمد أن يرى ابنه خاضعا لابن عمَّار ، وتوجس من صحبته لابنه المعتمد ، فنهاه عن صحبته ، ثم خوفه ونفى ابن عمَّار إلى أقاصي الأندلس فلم يزل مفتربا إلى أن توفي المعتمد بالله فاستدعاه المعتمد ، وقرَّبه إليه أشدَّ تقرب ، حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه (٣) .

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٣٢

(٢) عبدالواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧٦

(٣) نفس المرجع : ص ١٧٦

عودته إلى إشبيلية
=====

في عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) قتل المعتضد ابنه اسماعيل لإتهامه بالتآمر ضده ودعا ابنه الأمير محمد (المعتمد) حاكم شلب ليحل محل ابنه القتيل وليا للمهد وحاجبا للخليفة هشام المزعوم (١) الذي اصطنعه ملوك بني عباد تبريرا لتسلمهم مقاليد الحكم . وهكذا عاد المعتمد إلى إشبيلية يصحبه صديقه ابن عمار ليعيشا في بلاط المعتضد الملك المرعب ولكن مقام الشاعر لم يطل في هذه المدينة إذ سرعان ما اضطر إلى مفادرتها مغنيا إلى سرقسطة وشرق الأندلس . وقد ذكر ابن بسام في سبب هذا الفراق بين الصديقين أن ابن عمار "أوجس خيفة" في نفسه من أبيه المعتضد ففر عن البلد ولحق بشرق الأندلس (٢) . أما عبدالواحد المراكشي فيقول عن سبب ذلك أن المعتمد سلم إليه (أي إلى ابن عمار) جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما فنفي ابن عمار عن بلاده (٣) وسواء أكان سبب ترك ابن عمار لإشبيلية خوفه من بطش المعتضد أو نفيه منها ، فإنه لم يترك دون شك هذه المدينة وحياته الهانئة الرضية فيها ، مختارا راضيا ، بل مكرها حزينا وخائفا مترقبا .

وواضح من قصائده التي نظمها بعد ذلك أنه لم يكن يستطيع الرجوع إلى إشبيلية دون الحصول على عفو الملك ورضاه .

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٣٤٨

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ص ٢٣٧

(٣) عبدالواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧٧

ابن عمار في المنفى

=====

عاد ابن عمار إلى حياته الشاقة المتمبة ، تسك بخناقه الحاجة ويطارده الحرمان على رغم رعاية المقتدر بن هود أمير سرقسطة له وعنايته به ، ووفقا ينتقل بين هذه المدينة ومدن شمال شرقي الأندلس الأخرى ولا سيما لاردة حيث المستعين بن هود أكبر أولاد المقتدر ، دون كبير جدوى أو نفع ، فقد كانت حياته عسيرة شقية تذكره بالأيام السعيدة التي قضاها إلى جانب صديقه في شلب وإشبيلية . لذا كان هم الشاعر السعي بكل ما لديه من وسائل وأساليب للحظوة بعفو المعتضد والعودة إلى إشبيلية مرتع أحلامه ومحط أمانه ، ولم تكن هذه الوسائل والأساليب تتعدى التوصل إلى المعتضد حيناً وإلى ابنه الأمير محمد حيناً آخر وإلى هذا الصديق أو ذاك ممن يتمتع لدى ملك إشبيلية بحظوة وتأثير في أطوار أخرى . وهكذا كان يُعَد ابن عمار عن إشبيلية وشوقه الشديد إليها مصدر إلهاء مستمر ومبعث إلهام شعري دائم له مدة بقاءه في هذه البلاد . فترك لنا نخبة من خيرة إنتاجه الأدبي على الرغم من أنه قليل إذا ما قورن بالمدة الطويلة التي قضاها الشاعر في تلك الأعصااق والتي تبدوا أنها قاربت عشرين سنوات .

ومن قصائده التي أرسلها قصيدة من خيرة قصائده يقول فيها :

عليّ وإلا ما بكاءُ الغمامِ وفيّ وإلا ما نجاحُ الحمامِ ؟
وعني أثارُ الرعدِ صرخةُ طالبٍ لثأرٍ وهزُّ البرقِ صفحةُ صارمٍ
وما لبستُ زهرُ النجومِ حدادَها لفيرى ولا قامت له في مآتمٍ
وهل شقت هوجُ الرياحِ جيوبَها لفيرى أو حنتُ حنينَ الروائمِ

خذوا بي إن لم تهتدوا كلَّ سابحٍ لريحِ الصبا في أثره أنفُ راغمٍ (١)

ثم هو يميل إلى المعتضد يمدحه وإن له في مدحه لمذاهب فهو يترضاه وهو يظهر للمعتضد خضوعه مهما يفعل به المعتضد وهو يمدح الأب لابنه

عالمًا أن مدح الجريح لجارحه يعلي من شأن المادح فهو يتقرب من
نفس الابن ويرضى فيه حبه لأبيه ويبدى مشاركته له في هذا الحب
يقول ابن عمار عن المعتضد :

أبى أن يراه الله إلا مقلِّداً حميلة سيف أو حمالة غارم
إذا نظرت فيه الطوك تساقطت له نكس الأبصار مثل المئام
إذا جر أن يال الجيوش إلى المدى أطاعته أو جرت ذيول الهزائم
ومن مثل ابن عباد ومن مثل قومه ليوث حروب أو بدور مواسم (١)
وتصل القصيدة إلى المعتمد فيبكي مع الغمام الباكية ويكاد ينوح مع
الحمائم لولا الرجولة والشهوى ويعلم من الرسول أين مكان ابن عمار
فيصل بكل ما يستطيع أمير صديق أن يصل ويعود الرسول يحمل إلى
ابن عمار المال خير دليل على حب مقيم وصداقة ما زالت أصيلة
الجنود في نفس المعتمد يعلم الله وحده مدى ما أدت إليه في نفس
ابن عمار . ويعود ابن عمار فيكتب شعرا جديداً يبدأه بفزل رائع
ويرسل بالقصيدة إلى المعتضد :

جاء الهوى فاستشعروه عماره ونعيمه فاستعذبوه أواره !
لا تطلبوا في الحب عزا ، إنما عبدانه في حكمه أحراره
قالوا : أضربك الهوى فأجبتهم يا حبذا وحبذا إضراره
قلبي هو اختار السقام لجسمه زيا ، فخلوه وما يختاره
غيرتموني بالنحول وإنما شرف المهند أن ترق شفاره
وشمت لفراق من ألفته ولربما حجب الهلال سِراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه أو أن ذاك النوم عاد غراره
إن كان أعي القلب من حر الجوى خذلت من دمعي إذن أنصاره (٢)

والقصيدة بعد ذلك مفضية إلى مدح المعتضد وما يكاد المعتمد
يقرأها حتى يجن بها ويرتاح إلى هذه الخطة التي انتهجها ابن عمار

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة "٩"

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة "١٠" ، عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧١

في مدح أبيه ويمتد أمله إلى صفح أبيه عن ابن عمار إن هو قرأ
هذا الشعر فهو يعلم أن أباه يطرب للشعر الجميل ويرتاح إليه، وكان
هذا التفريق شديد الوقع في نفس المعتمد، ولكنه كان يعرف أن
المعتضد لا يرجع في كلمة صدرت منه، ولا ينقض قراراً أمضاه، فما
زال ابن عمار مغتربا في أقاصي الأندلس إلى أن توفي المعتضد بالله (١)
ولما خلف المعتمد والده بادر إلى استدعاء صديقه المنفي، وترك
إليه اختيار ما يريد من مناصب الدولة المختلفة، ونال لديه حظوة
وجاها عريضا. وصور ابن خاقان العلاقة بينهما فقال: صار ابن عمار
عند المعتمد "كجعفر عند الرشيد" (٢)

ولايته شلب

=====

ما إن عاد ابن عمار إلى إشبيلية وابتدأ حياته قرب المعتمد حتى بدأ
نشاطه السياسي بأن طلب من صديقه الطك تعيينه واليا لمدينة شلب
التي نشأ فيها (٣) فلم يسعه إلا أن يلبي طلبه ويعطيه هذه الولاية
بالرغم من أنه في هذه الحالة سيكون بعيدا عنه، وبعد أن ودع صديقه
الحميم جاشت بنفسه ذكريات تلك الأيام السعيدة التي قضياها معا في
شلب وجالت بخاطره خلجات جعلته يتمثل آثارها ومعاهداتها البديعة،
وقد ودعه وهو يرتحل إلى شلب مقر عمله الجديد بهذه الأبيات:

ألا حيّ أوطاني بِشَلْبٍ أباً بكر وسلّم هل عهد الوصال كما أدري ؟
وسلّم على قصر الشّراجيب هن فتى له أبدا شوق إلى ذلك القصر
منازل آسارٍ وبغير نواعٍ فناهيك من غيلٍ ، وناهيك من خدرٍ
وكم ليلة قد بت أنعم جنحها بمخضبة الأرداف مُجدبة الخصر

(١) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٢١٠

(٢) محمد رضوان الداية : مختارات من الشعر الأندلسي ، ص ٨٣

(٣) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧٣ ، دوزي : ملوك الطوائف

وبيضٍ وسمرٍ فاعلاتٍ بمهجتي فعال الصّباح البيض والأسل السمر
وليلٍ بسدّ النهر لهواً قطعته بذاتٍ سوارٍ مثل منعطفٍ النهر
نضتُ بردُها عن غصنٍ بانٍ مُنعمٍ نضيرٍ كما انشقّ الكمامُ عن الزهر
وباتتُ تسليني المدامُ بلحظها فمن كأسها حيناً وحيناً من الثغر
وتطريني أوتارها وكأنني سمعت بأوتار الطلى نغم البُتر (١)

ويقول الفتح عن قصر الشراحيب الذي ذكره المعتمد " أنه مُتّاعٌ في
البهاء والإشراق، مُباهٍ لزوراء العراق ، ركضت فيه جياد راحاته وأومضت
بروق أمانيه في ساحاته ، وجرى الدهر مطيعاً بين بكره وروحاته أيام
لم تحل عنه توائمه ولا خلت من أزاهير الشباب كئامه " (٢) .

قصد ابن عمار شلب في موكب فخم يحف به عبيد وحشم وبلغ موكبه
من الأبهة والجلال ما لم ييلفه موكب المعتمد نفسه أيام أن كان والياً
عليها ، ولكنه خفّض من غلوائه ، وطامن من كبريائه ، وأتى بعمل يدل على
النبيل وحسن التقدير والاعتراف بالجميل ، فإنه وقت دخوله المدينة
سأل عن التاجر الذي واساه في أيام محنته ، وأعطاه علف بغلته ، أحيى هو؟
فقالوا إنه حيّ ، وكان ابن عمار قد احتفظ بتلك المخلاة عينيها التي
كان التاجر قد ملاها شعيراً لعلف بغلته ، فملاها هو دراهم وبعث
بها إلى التاجر وقال لرسوله ، قل له "لو كنت ملائها برا لكنا ملائها
لك تبرأ " (٣)

على أن المعتمد لم يطق الصبر على فراق صديقه الشاعر الألمعي
فما لبث أن استدعاه ، واختاره كبير وزراءه ، وكانت المشاكل المعقدة
التي تواجه المعتمد تجعله في حاجة إلى صديق يضع فيه ثقته ،
ويستشير في أموره ويقدر نصائحه ويعد نظره ، فكانت حاله معه شبيهة

(١) ديوان المعتمد : ص ١١

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٨٣

(٣) ابن سبام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٣٧

بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد . ولم يزل المعتمد يعدّه لكل أمر جليل ، ويؤهله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحمّاة (١)

وقد علل المؤرخون العرب عودة ابن عمار السريعة إلى عاصمة الملك بشوق المعتمد وتعلقه بصديقه وعدم استطاعته الابتعاد عنه وتعليل عاطفي مثل هذا لا يمكن أن يبرر عودة الشاعر المفامر الطموح رغم ما نصرفه عن صداقته لملك إشبيلية وقوة الروابط التي تصله به . فقد كان المعتمد آنذاك في الثلاثين من عمره وكان ابن عمار يبلغ التاسعة والثلاثين ، فلم يكن ما يقومون به إذن في هذا السن يرجع لاندفاعات عاطفية فحسب ، هذا فضلا على أن الصديقين سبق أن افترقا بضع سنين عندما كان الشاعر في المنفى .

إذن لقد لعبت المصالح المشتركة للمعتمد وابن عمار ، ولا سيما الأخير ، دورا رئيسيا في تسلم ابن عمار وزارة المعتمد وتمهده لشؤون الدولة . فلم يكن من مصلحة ابن عمار في تلك الفترة القلقة الصاخبة أن يبقى بعيدا عن صديقه وملكه . فقد كانت كل مطامعه وطموحاته تدفعه للذهاب إلى إشبيلية والتمكن فيها قرب الملك . وقد كان المعتمد نفسه في أشد الحاجة لرجل مثل ابن عمار يساعده في الأخذ بزمام الدولة والسير بها في طريق التوسع والتقدم بعد أن استتبعت له الأمور في الداخل نتيجة سياسة البطش والعنف التي سار عليها والده . لقد كان لابن عمار صفات قل أن تجتمع في غيره ، فذكاءه الوقاد ولباقته ومعرفته لأحوال البلاد وأمرائها كانت خير مشجع للملك على اختياره لهذه المهمة الشاقة . لذا نستطيع القول أن عودة ابن عمار إلى إشبيلية كانت بدوافع سياسية أكثر منها عاطفية .

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٢٨

عاد ابن عمّار إلى إشبيلية وقد استبدل بمهنته مهنة أخرى أسمى
مركزا وأعلى مقاما ، واتخذ لنفسه ، بدل الطبقة الوضيعة طبقة أخرى
أرفع جاها وأبهى حياة . لقد أصبح من خاصة الأشراف بكل ما يتطلبه
الانتساب لهذه الطبقة من ترف وبذخ وحياة ناعمة ومشاعر خاصة ، لقد
أصبح رجل دولة وقابضا على زمام حكم ، مع ما تقتضيه هذه الرتبة من
غنى وقوة ونفوذ . وأما الشعر فلم يعد وسيلته الأصلية للعيش .
وإنما حلية وزينة تتطلبها مقتضيات الحياة الأرستقراطية ومركزه
الاجتماعي الجديد .

=

=

=

ذو الوزارتين في إشبيلية

=====

لقد أصبح ابن عمّار بسرعة رجل دولة بني عباد الأول . ولم يكن نفوذه وتأثيره يقتصران في الواقع على هذه الدولة فحسب ، بل تجاوزها إلى أكثر مناطق أسبانيا المسلمة ويبدو صدى هذه الشهرة الكبيرة والنفوذ الخطير اللذين حصل عليهما في الأوصاف التي أسبغها عليه مؤرخو العرب .

فهو مخيف (١) شديد الخبث واسع الشهرة (٢) وكان ابن عمّار من أعظم رجال الأندلس في عصره ، كان وزيرا نابها ، وقائدا مجريا يقود الحملات العسكرية الناجحة ، وسياسيا بارعا ، ومفاوضا لا نظير له ، يعقد الصلات البعيدة المال ، ويذلل المشكلات الصعبة ، وقد ذاع صيته في سائر بلاد الأندلس ، وكذلك في ممالك أسبانيا النصرانية ، حتى كان الأديفونس السادس ملك قشتالة ، إذا ذكر عنده ابن عمّار ، قال : " هو رجل الجزيرة " فكان المعتمد يعتمد إليه بمهام الأمور ويندبه إلى سفاراته ، وتنفيذ مشاريعه الخطيرة ، فيؤديها ابن عمّار على أحسن وجه . فعندما نتحدث عن سياسة إشبيلية أو سياسة المعتمد بين سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) وسنة ٤٧٤ هـ (١٠٨٢ م) ، فإنما نتحدث في الواقع عن سياسة ابن عمّار نفسه (٣) فقد كان فعلا العصب المحرك لهذا الاضطراب الذي شمل علاقات دولة بني عباد مع جيرانها حتى لقد أطلق عليه ملك غرناطة عبدالله بن زيري اسم " وسيط السوء " فقد أكد هذا الملك الذي قاسى من ابن عمّار الأمرين " ارتباط المعتمد إلى الخير وإيثاره للصالح بعد زوال هذا الفاسق ابن عمّار عن دولته فلم يربعد ابن عمّار فتنة فيما بيننا وبينه " أي بين ابن زيري والمعتمد .

(١) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٨٦

(٢) عبدالواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧٨

(٣) صلاح خالص : محمد بن عمّار ، ص ٨٥

(٤) الأمير عبدالله بن بلقين : التبيان ، ص ٨٢

فهو يحزو جميع الاضطرابات التي قامت بين المعتمد وغيره من ملوك الطوائف إلى سياسة ابن عمّار وتأثيره على الملك . ومع ذلك فعبدالله ابن زيرى نفسه على الرغم من عدائه الشديد للوزير الإشبيلي يعترف بأنه قدم لملكه خدمات جليلة فقد دفع النصارى عن إشبيلية بضع مرات آنّا بدعائه، وأنّا بمكائده ، ولكن ملك غرناطة على الرغم من اعترافه بأهمية النتائج التي توصل إليها ابن عمّار ، لا يريد أن يرجعها إلى ذكاء ابن عمّار ، وبراعته السياسية وإنما يقول " كل ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيامه وهوأى ابن عمّار بجهله يعتقد أن ذلك لا يتهيأ إلا بسببه ويرد الحسن كله إلى نفسه (١) "

ولا نريد أن نزعّم هنا أن سياسة ابن عمّار لم تكن سياسة المعتمد نفسه ، أو أن ما جرى من تبدل ، بعد نهاية دور ابن عمّار في حكم إشبيلية لا يرجع لرحيل ابن عمّار بقدر ما يرجع إلى تبدل عام في الظروف التي أحاطت بمملكة إشبيلية دفع المعتمد إلى تعديل سياسته . فسياسة التوسع التي اتبعها ملك إشبيلية ووزيره لم تكن إلا امتدادا للسياسة التي سار عليها المعتمد ولكن صفتها المميزة الخاصة بها كانت التعاون مع النصارى ، نظرا لأهمية الأهداف التي حاول الملك ووزيره تحقيقها . وعلى الرغم من هجمات المؤرخين المسلمين على ابن عمّار وعلى الرغم من النفقات التي كانت تتطلبها سياسته ، نقول أن هذه السياسة نجحت في توسيع رقعة مملكة إشبيلية إلى حد كبير . لقد كان ابن عمّار يضحى للمسيحيين بمبالغ طائلة ولكنه قلما كان يضحى لهم بالأرض ، وفي هذا الحساب دعاء وبراعة لا يمكن تجاهلها . ولم يمنع المعتمد اشتغال الوزير الشاعر بسياسة الدولة وحمله أعباء الحكم من استدعائه من الحين إلى الآخر إلى مجالس لهوه ، وإشراكه معه في سويحات أنسه وطربه .

(١) الأمير عبدالله بن بلقين : التبيان ، ص ٨١

أدخلت عليه يوما باكورة نرجس فكتب إلى ابن عمار يستدعيه :

قد زارنا النرجسَ الذكيَّ وأن من يومنا العشيَّ
وعندنا مجلسٌ أنيقٌ وقد ظمنا وفيه رى
ولي خليلٌ غدا سميَّ يا ليتهُ ساعدَ السَّميَّ
فأجابه ابن عمار :

لبيكَ لبيكَ من ضارٍ له الندى الرحبُ والندى
هأنا بالبابِ عبدٌ قنٍ قبلتُهُ وجهكُ السنِّي
شرفهُ والداهِ باسمٍ شرفته أنت والنبيُّ (١)
واصطبح المعتمد يوم غيمٍ مع زوجته اعتماد الرميكية واحتجب عن
ندمائه ، فكتب إليه ابن عمار :

تجهم وجهُ الأفقِ واعتلتُ النفسُ لأن لم تلحُ للعينِ أنتولا الشمسُ
فإن كان هذا منكما من توافقٍ وضمكما أنسٌ فيهنكما الأَنسُ (٢)
فأجابه المعتمد :

خليليَّ قولا هل عليَّ ملامَةٌ إذا لم أغبُ إلا لتحضُرني الشمسُ
وأهدى بأكواسِ المدامِ كواكباً إذا أبصرتها العينُ هشت لها النفسُ
سلامٌ سلامٌ أنتم الأَنسُ كلهُ وإن غبتما أم الربيعِ هي الأَنسُ (٣)
وغاب عنه ابن عمار حيناً من الزمان ، وربما كان هذا في إحدى السفارات
التي كان يرسله فيها أو المهمات التي كان يكل إليه القيام بها فلما
عاد كتب إليه :

لما نأيت نأى الكرى عن ناظري ورددته لما انصرفت إليهم
طلب البشيرُ بشارَةً يُجزى بها فوهبت قلبي واعتذرتُ إليه (٤)

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٣٢

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة " ١٧ "

(٣) علي أدهم : المعتمد بن عباد ، ص ١١٠

(٤) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٣٣ .

وأهدى الناس في يوم عيد إلى المعتمد ما يهدى للملوك في الأعيان،
فاقتصرا بن عمار على ثوب صوف بحري أصفر وكتب معه :
لما رأيتُ الناسَ يحتفلون فسي

أهداء يومك جئتُه من بابِهِ

فبحشتُ نحوَ الشمسِ شبهَ إهابِها

(١) وكسوتُ متنَ البحرِ بعضَ ثيابِهِ

فوجه إليه المعتمد بمكة فضة فيها خمسمائة دينار ذهباً وكتب

معهما :

هبةً أئتكَ من النُصارِ ألوفُها

فاغنمُ جزيلَ المالِ من وهابِهِ

فلو أن بيتَ المالِ يحوى قُفْلَهُ

أضعافُها لكسرتُه عن بابِهِ

وملائتُ منه يدِيكَ لا مستأثراً

فيه عليك لكي تُرى أولى بِهِ

فالبحرُ يطفحُ جودُهُ لك زائراً

(٢) لما كسوتُ البحرَ بعضَ ثيابِهِ

وهكذا لم يمنع تولي ابن عمار زمام الحكم والوزارة من مشاركته طيحه
في مجالس أنسه وطربه ولم يلهمه ذلك عن رسم سياسة الدولة في
الداخل والخارج .

=

=

=

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٦٢

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٣

ابن عمار السياسي

=====

لقد كان من أجمع شخصيات عصره السياسية ، بل إنه نموذج فريد من نماذج الساسة في العصور الإسلامية المختلفة ، يستحق كل عناية واهتمام . وقد كان لحياته الأولى ونشأته أثر واضح في سعة معرفته بالعصر الذي يعيش فيه والناس الذين يخالطهم .

لقد كان همه الأول في هذا الميدان هواهتكار صداقة المعتمد وتقوية نفوذه لديه إلى أن شهد في نفسه القوة على العمل لحسابه الخاص والاستغناء عن سيده . ولم تكن الجهود التي بذلها للوصول إلى هدفه هذا صعبة التحقيق ، إذ لم يكن أمامه عند رجوعه إلى إشبيلية سوى أبي الوليد بن زيدون وزير المعتضد وكانت العلاقة غيرودية بين ابن عمار وابن زيدون فعمل على التخلص من غريمه ، وقد نجح أخيراً في مساعاه عندما أقنع المعتمد بإرسال ابن زيدون من قرطبة إلى إشبيلية لاختطاف ثورة قامت ضد اليهود هناك . ولم تكن حال ابن زيدون

الصحية لتسمح له بتحمل مشقات السفر ومتاعبه فما كادت تمر بضعة أيام على وصوله إلى إشبيلية حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في عام ٤٦٣ هـ (١) (١٠٧١م)

لقد بقي ابن عمار صاحب النفوذ الأوحد تقريباً على المعتمد بعدما عظمه كل من لا يرغب فيه ، فقد كانت هناك شخصية أخرى في حياة الملك هي اعتماد الرميكية زوجة المعتمد الحسناء التي لم تكن قليلة التأثير فيه حتى آخر أيام حياته . لقد كانت الشخص الوحيد الذي شارك المعتمد في سرائه وضرائه حتى نهاية حياته في منفاه النائي ، وكانت اعتماد فوق ذلك بنفوذها وحظوتها لدى المعتمد تشترك في توجيه الشؤون الداخلية في الدولة . وكان الوزير ابن عمار يومئذ في إبان مجده ونفوذه ، وكانت الرميكية تنظر إلى مكانته وتمكن نفوذه بعين السخط ، وكان ابن عمار من جانبها يحقد عليها ويخشى بأسها وسمايتها ، واستمرت معركة (١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١ ، ج ١ ، ص ٣٥٥

الدسائس والضافسة حيناً بين اعتماد وابن عمّار ، لتسفر عن نتيجتها الطبيعية ، وهي هزيمة الوزير وتغيير مليكه عليه . (١)

لقد استطاع ابن عمّار أن يزيح من طريقه جميع منافسيه عدا اعتماد التي بقيت عدواً خطراً لم يكل عن محاربته حتى قاد إلى حتفه . أما في ميدان السياسة العامة فقد كان ابن عمّار يمثل اتجاهها مهماً جداً في سياسة ملوك الطوائف في أسبانيا المسلمة آنذاك فقد كان لا بد للساسنة المسلمين في تلك المرحلة المضطربة من التاريخ الأندلسي أن يختاروا واحداً من هذه الخطوط السياسية الرئيسية الثلاثة متخذين مصالح دويلاتهم التي تكون جزءاً لا يتجزأ من مصالحهم الشخصية قاعدة لسياساتهم . (٢)

أولاً :-

_____ سياسة إسلامية باعتبار أن مصلحة دويلاتهم مرتبطة بمصلحة الإسلام ، وعندئذ لا بد لهم أن يضعوا نصب أعينهم توسع نفوذ الإسلام وبهارة المسيحيين ، والتضحية بجميع الأهداف الثانوية الأخرى في سبيل هذه الغاية النبيلة السامية العليا . وعلى كل حال ، فلم تكن هذه السياسة مطلقاً سياسة ابن عمّار .

ثانياً :-

_____ سياسة مسالمة وحفظ للتوازن وذلك بقبول الحال الموجودة والمحافظة بكل الوسائل على التوازن السياسي ، والتشبث بفكرة التعايش السلمي بين جميع دول الطوائف . وربما كانت أسباب اتباع سياسة مثل هذه ، هي الضعف ، وقد كان أنصار هذه السياسة عديدين بين حكام المقاطعات الصغيرة والحصون المستقلة القائمة هنا وهناك في أطرافها . إلا أن سياسة التعايش السلمي هذه لم تكن هي أبداً سياسة ابن عمّار .

ثالثاً :-

_____ سياسة توسع وطموح ، تهدف إلى توسيع رقعة المملكة بكل

(١) محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف)

الوسائل الممكنة ، سواء أكان عن طريق الحرب أو المؤامرات أو الشراء أو المعاهدات . وقد كانت أهم الدويلات التي اتبعت هذه السياسة بوضوح مملكة بني عباد في إشبيلية ، وبني ذى النون في طليطلة ، وبني هود في سرقسطة . وكانت قوة هذه الدويلات النسبية حافظا مهما دفع رؤسائها إلى اتباع هذه السياسة .

ولكن هذه الإمارات لم تكن مع ذلك على مبلغ من القوة بحيث تستطيع الدفاع عن نفسها تجاه الأمراء المسيحيين الأقوياء من جهة ، والتوجه نحو التوسع والفتح ومهاجمة الحصون القوية والمدن المنيعة التابعة للدويلات الأخرى من الجهة الثانية . فليس هناك إذن سوى سبيل واحد لاتباع مثل هذه السياسة ، وذلك بضمان صداقة الدويلات المسيحية الشمالية بالتنازل لرغباتها وشروطها ، بل وبالتعاون معها إذا اقتضى الأمر . ومع ذلك كان ابن عمّار يطلبها الأول في أقصى حدودها وأوضح مظاهرها .

ولا شك أن اتجاه ابن عمّار نحو هذه السياسة وتمسكه بها كان مرجعه إلى معرفته التامة بحال الطوك الأندلسيين ، هذه المعرفة التي اكتسبها من سفراته الطويلة وتجاريه الكثيرة والتي أطلت عليه موقفه تجاه الطوك المسيحيين عموما وتجاه الأندونيس السادس على وجه الخصوص .

كان ابن عمّار يعرف ضعف ملوك الطوائف المسلمين ويدرك قوة ملك قشتالة النامية ، لذا وجه همه إلى توثيق الروابط وتقوية الصلة بهذا الملك . فقد كان الأندونيس السادس في الواقع الحكم الوحيد القادر على فرض وجهة نظره في النزاع المبرر القائم بين الأمراء المسلمين ، فالجميع يدفنون له الأثاوات ويطلبون رضاه وعطفه ليتجنبوا هجماته ويحفظوا بصادقته . ويبدو واضحا من أقوال المؤرخين المسلمين أن ابن عمّار كان يوجه عناية خاصة لإرضاء الملك المسيحي واكتساب وده وأن جهوده هذه تتركز في

وعادت عليه بنتائج لم يستطع نيلها غيره من المسلمين . فقد ذهب
لزيرة الملك مرات عديدة ، أنا رسولا للمعتمد وطورا بصفته الشخصية ،
حتى أن بعض المؤرخين ليقول ، إنه كان موضع إعجاب الملك وتقديره (١)
إذن نستطيع القول إنه بالإضافة إلى أسلوب ابن عمّار الأول في العمل
السياسي ، أي احتكار صداقة ملك إشبيلية ، كان همه الثاني ، توثيق
الروابط مع الأندلس وتقوية الصلات به وجلب رضاه إن كان لا بد من
ذلك لكي يحقق مشاريعه ويطبق خططه وينفذ سياسته .

ونستطيع أن نضيف إلى ما مر من أساليب ابن عمّار السياسي شيئا
آخر حرص على التزامه والتمسك به ، وهو تقوية صلاته بالشخصيات
الأندلسية وحرصه على إرضائها بمختلف الأساليب والطرق ، وسنلمس عند
عرضنا لإنتاجه الأدبي خلال مدة وزارته كثرة علاقاته وتعدد اتصالاته بها .
ولكن محاولة ابن عمّار لتحقيق هذا الهدف لا يعني بأي حال من
الأحوال ، أنه كان ناجحا في ذلك ، كما لا يعني أنه كان مخلصا في
علاقاته وفيالأصدقائه فالظاهرة الواضحة في هذه العلاقات أنها تبدأ
قوية عميقة لتنتهي بعداء شديد وحقد متبادل عميق . فقد خرج على
صديقه المعتمد (٢) واستغل ضعف ابن طاهر بالرغم ما بينهما من
علاقات وثيقة ، ليوقع به . كما لم يسلم من لسانه السليط أمير بلنسية ابن
عبد العزيز والمعتصم بن صمادح أمير دانية نفسه الذي كانت تربطه
بالشاعر أوثق الصلات غضب عليه واستنكر أعماله واستغل علاقته مع قواد
أحد الحصون ليقتله وينتزع قلعته . ومع ذلك ، فإننا لا نستطيع القول
أنه فشل فشلا تاما في تحقيق غايته وتنفيذ مخطمعه ، فقد كان اسمه
يتردد في جوانب أسبانيا المسلمة فيبحث الرعب والهلع في نفوس ملوك (٣)

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧٨

(٢) سنتعرض لهذا بعد قليل

(٣) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٨٦

طوائفها وأمراء حصونها وقلاعها وكان نفوذه لا يقل عن نفوذ الملك نفسه .

هذه هي الخطوط الرئيسية لنشاط ابن عمّار السياسي ولحياته الحافلة بالمطامع والأعمال والتنقل والتعطش للسيطرة والسلطان .

ابن عمّار ومسيحيو الشمال

=====

لقد كان يدرك قوة المسيحيين في الشمال إلى جانب ضعف ملوك الطوائف المسلمين وتخاذلهم ، لذا جعل ابن عمّار أول أهدافه السياسية التقرب من الأندلس وجلب رضاه وتجنب خطره بجميع الوسائل الممكنة ، وأهم هذه الوسائل المال . فكانت مملكة إشبيلية ، وغيرها من الدويلات الأندلسية آنذاك . تدفع للملك القشتالي ، أتاوة سنوية معينة تجنباً لشره وحفظاً لصدافته . وكان الأندلسيون يعرفون قوة مركزه وضعف موقفهم ، فاستغل ذلك إلى أقصى حدود الإستغلال . فكان كلما وجد الفرصة سانحة للحصول على قطعة من الأرض أو مبلغ من المال لم يتركها تغلت من يديه ، فيزحف بها حافله مرعداً مزبداً ، يخرب الحقول ويحاصر المعاقل حتى يخضع الأمراء المسلمين لإرادته فيهدئوه بما يقدمون إليه من مال .

على الرغم من جهود ابن عمّار الكثيرة في الحصول على رضى الملك المسيحي ، زحف الأندلسيون السادس بجيشه على مملكة إشبيلية وهددها بالدمار . ويروى لنا أحد المؤرخين المسلمين ، وهو عبد الواحد المراكشي في كتابه " المعجب " قصة ظريفة عن الدور الذي قام به ابن عمّار في صد هذا الهجوم ، يبدو أن الخيال قد أسهم في نسجها لحد غير قليل ، ومع ذلك ننقلها هنا نصاً ثم نناقش ما جاء فيها بعد ذلك .

قال عبد الواحد المراكشي :

ولم يزل المعتمد يعتمد على ابن عمّار - لكل أمر جليل ويؤمله لكل رتبة عالية وكان ابن عمّار مع هذا لا يناط به أمر إلا اضطلع به وكان فيه

كالسكة المحمّاة . (١)

واشتهر أمره ببلاد الأندلس ، حتى كان ملك الروم الأذفونس ، إذا ذكر
عنده ابن عمار قال : " هو رجل الجزيرة " (١)

وكان ابن عمار هو الذي رده عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعطاهما .
وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعا فيها ، فخافه
الناس ، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعبا منه ، وتيقنوا ضعفهم عن
دفاعه . فتولى ابن عمار رده بالطف حيلة وأيسر تدبير ، وذلك أنه أقام
سفرة شطرنج في غاية الإبداع لم يكن عند المعتمد مثلها ، جعل صورها
من الأبنوس والعود الرطب والصندل ، وحلّأها بالذهب ، وجعل أرضها في
غاية الإتقان . فخرج من عند المعتمد رسولا إلى الأذفونس ، فلقبه في
أول بلاد المسلمين ، فأعظم الأذفونس قدومه وبالح في إكرامه ، وأمر وجوه
دولته بالتردد إلى خبائه والمسارة في حوائجه . فأظهر ابن عمار تلك
السفرة ، فرأها بعض خواص الأذفونس فنقل خبرها إليه . وكان الملج
- أعني الأذفونس - مولعا بالشطرنج ، فلما لقي ابن عمار سأل : كيف
أنت في الشطرنج ؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بمكانه فيه .
فقال له : بلغني أن عندك سفرة في غاية الإتقان . قال ابن عمار : نعم
فقال : كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه : قل له
أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فإن غلبتني فهي لك ، وإن
غلبتك فلي حكمي : -

فقال الأذفونس : هلمها لننظر إليها ؟ فأمر ابن عمار من جاء بها .
فلما وضعت بين يدي الملج صلب وقال : ما ظننت أن إتقان الشطرنج
يبلغ إلى هذا الحد ! ثم قال لابن عمار : كيف قلت ؟ فأعاد عليه
الكلام الأول فقال له الأذفونس : لا ألعب معك على حكم مجهول لا
أدرى ما هو ، ولعله شيء لا يمكنني : -

فقال ابن عمار : لا ألعب إلا على هذا الوجه . وأمر بالسفرة فطويت ،

وكشف ابن عمّار سر ما أراد له لرجال يثق بهم من وجوه دولة الأندلس وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره ، ففعلوا . فتعلقت نفس العليج بالسفرة ، وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمّار . فهونوا عليه وقالوا له : إن غلبته كان عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وإن غلبك فما عساه أن يحتكم ؟ وقبحوا عنده إظهار الملك المعجز عن شيء يطلب منه . ولم يزالوا به حتى أجاب ، وأرسل إلى ابن عمّار فجاء ومعه السفرة فقال له : قد قبلت ما رسمته . فقال له ابن عمّار : فاجعل بيني

وبينك شهوداً ساء لهم : فأمر الأندلس بهم فحضروا ، وافتتحا يلعبان . وكان ابن عمّار طبقة في الأندلس ، لا يقوم له أحد فيها . فغلب الأندلس غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين ، لم يكن للعليج فيها مطعن . فلما حققت الغلبة قال له ابن عمّار : هل صح أن لي حكماً ؟ قال نعم فما هو ؟ قال : أن ترجع من هنا إلى بلادك . فأسود وجه العليج وقام وقعد ، وقال لخواصه : قد كنت أخاف من هذا حتى هونتموه عليّ ! في أمثال لهذا القول ، وهم بالنكت والتماذى لوجهه ، فقبحوا ذلك عليه . وقالوا له : كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك . فلم يزالوا به حتى سكن ، وقال : لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة ! فقال ابن عمّار هذا كله لك ، وجاءه بما أراد ، فرجع وكف الله بأسه ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ، ورجع ابن عمّار إلى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به (١)

هذه هي الحكاية التي رواها المراكشي ووضح أن الخيال قد يكون أسهم في تكوينها لحد غير قليل لا سيما المؤرخين الذين عنوا بحياة ابن عمّار والذين سبقوا المراكشي ، لم يشيروا لها بوضوح على الرغم من توليهم بالبحث عن طرائف الأخبار وعلى الرغم أنهم أقرب منه إلى عهد الوزير ابن عمّار .

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٨٠

ومع ذلك لا نستطيع أن نعرض عنها إعراضا تاما إذ يبدو أن فيها نصيبا غير قليل من الصحة لا سيما ما يتعلق منها بجهود ابن عمار الناجحة في رد غارة الأتفونس بالوسائل الدبلوماسية وأهمية هذا العمل كما رسمناه في بيان سياسة ابن عمار عند توليه وزارة المعتمد ابن عباد في إشبيلية . فمن الممكن جدا أن تكون إشبيلية قد نظمت علاقاتها معه باتفاق كهذا الذي عقده ابن عمار والمصاهرة نفسها التي ذكرها المراكشي تتسجم كل الإنسجام مع الأساليب الدبلوماسية المتبعة في ذلك العصر . فضلا عن ذلك أن ملك غرناطة عبدالله بن زيري عدو ابن عمار اللدود يذكر نجاح ابن عمار في رد عادية النصارى عن البلاد فيقول " ولأنه - أى ابن عمار - كان قد استمال النصارى والدخل معهم بحيلة ، فمضى بهم أمر وجهه المعتمد إليهم فينجلي من أمرهم ما يضيق الصدر به ، وكل ذلك بأموال رئيسه وسعاده أيامه " (١)

كل هذه الدلائل وأخرى غيرها تدل على دور ابن عمار السياسي في دفع المسيحيين عن مملكة إشبيلية مستعملا المال والحفكة السياسية وأما ما عدا ذلك مما ورد في حكاية المراكشي فلا يهمنا إلا قليلا . ويبدو لنا أن سياسة ابن عمار قد نجحت نجاحا غير قليل لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن إشبيلية لم تدخل طيلة وجود ابن عمار في وزارة إشبيلية في نزاعات خطيرة مع مسيحيي الشمال كما كان شأن بطليوس وطليلة وسرقسطة .

لقد أصبح ابن عمار بعد أعماله السياسية هذه ألمع الشخصيات السياسية في أسبانيا المسلمة آنذاك ، وكانت له اليد الطولى في إدارة أمور مملكة إشبيلية وتوجيه سياستها . هكذا أصبح الشاعر البائس المشرذ المهمل محط الأنظار ، يستدر رضاه ويتجنب شره ، أصبح الوزير الأول لأكبر مالكي الأندلس وأقواها

نغزدا وأكثرها ثروة . ولكن مطامعه لم تكن لتقف عند حد ، فطفق يقلب نظره فيما حوله باحثا عن فريسة يسيرة ، فتعلقت أنظاره بمرسية المدينة الغنية في شرق الأندلس التي كان يحكمها الأمير ابن طاهر وبالرغم مما أحرزه من نجاح في تحقيق مشاريعه إلا أن نجمه بدأ يافل إلى أن أدى به إلى مصيره المحتوم .

= =

=

الفصل الثالث

= قصة المجدد =

- إسهامه في فتح قرطبة
- محاولته ضم غرناطة
- مطامعه في مرسية
- فتح مرسية
- تمرد ابن عمار في مرسية
- علاقاته مع ملوك الأندلس
- شقة الخلاف مع المعتمد
- محاولته قلب الحكم في طليطلة

إسهامه في فتح قرطبة

=====

عندما ارتقى المعتمد عرش إشبيلية ، كانت دولة بني عباد تسيطر على جنوب غربي شبه جزيرة أيبيريا ، وكانت قد نجحت في القضاء على الدويلات الصغيرة التي تكتنفها فضمتها تحت جناحيها . ولم يبق في غرب شبه الجزيرة إلا مملكة بني الأفطس في بطليوس الواقعة شمال غربي إشبيلية ، والتي نجح المعتمد بن عباد في توجيه ضربات قوية لها واقتطاع أجزاء كبيرة من ممتلكاتها . ولم يكن وضعها الجغرافي مما تحسد عليه ، إذ كانت متاخمتها لبلاد المسيحيين تجعلها دائما مطمح أنظارهم وموقع ضرباتهم . لذا كان على المعتمد أن يولي وجهه نحو الشرق والجنوب الشرقي ، أي نحو دولتي قرطبة وغرناطة .

أما في الشمال فقد كانت مملكة طليطلة القوية التي يحكمها المأمون ابن ذي النون الطموح ، صديق الأديفونس السادس ملك قشتالة ، منافسا قويا يحسب له بنو عباد ألف حساب فليس من المستغرب أن تكون قرطبة هي هدف المعتمد الأول . ولا نريد أن نبالغ في دور ابن عمار في هذا الفتح إذ لم يكن قد مر على مجيئه سوى أقل من سنه ، إلا أن أثره لا يمكن أن يكون معدوما في هذه الخطوة الجريئة التي تنسجم كل الانسجام مع سياسته ففي عام ٤٦٢ هـ (١٠٧١ م) طلب بنو جمهور حكام قرطبة العون من بني عباد ، بعد مظاهر الصداقة التي أبداها لهم المعتمد ووزيره ابن زيدون وابن عمار ضد جيش طليطلة الذي يقوده المأمون بن ذي النون والذي هاجمهم من الشمال . وسرعان ما أرسل المعتمد جيشه استجابة للدعوة ، مما اضطر ابن ذي النون على الانسحاب بجيشه . ولكن بدلا من أن ينسحب الجيش لإشبيلية ، هاجم المدينة واحتلها بالتآمر مع قسم من سكانها وضمها إلى مملكة ابن عباد . ولقد كانت قرطبة عاصمة الخلافة والتي بقيت حتى ذلك الوقت مركز الأندلس العلمي والثقافي ومحط أنظار

الأندلسيين فكان لفتحها أثر مادي ومعنوي كبير (١)

(١) محمد عبدالله عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، (دول الطوائف)

محاولته ضم غرناطة

=====

لم يكن ينتهي أمر قرطبة ويستتب الأمر فيها حتى وجه ابن عمار أنظاره نحو غرناطة ، التي كان يحكمها آنذاك أمراء بني زيري ، من قبائل صنهاجة البربرية . وقد كان دور ابن عمار في هذا المشروع واضحاً ، إذ قد تحدث عنه بمرارة ملك غرناطة نفسه في مذكراته . فقد ظل ابن عمار يترصد الدوائر بهذه الدولة الصغيرة وينتظر الفرصة الملائمة ، حتى سنحت له عند ابتداء التصادم والاحتكاك بين ملك غرناطة والأندلس السادس ملك قشتالة القوى فقد أرسل الأندلس فونس سفيره الكونت شيشلاند ليطالب بأداء الجزية المفروضة ويقول لنا الأمير عبد الله بن زيري في مذكراته ، أنه أبي أن يدفع تلك الجزية ، وأنه لم يخش يومئذ ضراً من الأندلس ، وذلك أسوة بما فعل غيره من ملوك الطوائف (١) وهنا يقوم المعتمد بن عباد بدوره المأثور في انتهاز الفرصة ، وفي استمداء ملك قشتالة ذلك أنه بعث وزيره ابن عمار إلى الأندلس فونس السادس ، فمقدّمه اتفاقاً وحلفاً ، خلاصته أن يتعاون الفريقان في إفتتاح غرناطة وأن تكون المدينة ذاتها لابن عباد ، وأن يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة ، وأن يؤدى ابن عباد إليه فوق ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار (٢)

وأمد ملك قشتالة ابن عمار بسرية من جنده ، وبدأ بتنفيذ الخطة بإنشاء حصن على مقربة من غرناطة ، شحنه بالجنود لإرهاق المدينة . وحاول ابن عباد أن يؤثر بواسطة هذا الحصن في أهل المدينة ، ولكنه لم ينل منها مأرباً بالرغم مما أحاق بها من الضيق . ولما منى ابن عباد بالهزيمة في قرطبة على يد ابن نون سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) اضطر أن يخلي الحصن ، فاحتلته جنود غرناطة . ثم عاد ابن عمار فخرى الأندلس فونس السادس على غزو أراضي غرناطة ، ووزين له سهولة إفتتاحها ، وعندئذ رأى

(١) عبد الله بن زيري : التبيان ، ص ٦٩

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٩

الأمير عبدالله بن زيري أن يتفاهم مع الملك النصراني ، فسار إليه
بنفسه ، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهد عبدالله بأن يؤدى جزية
سنوية قدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب ، وأن يسلم بعض الحصون الواقعة
جنوب غربي جيان ، وهذه باعها الملك النصراني إلى ابن عباد .

وينقل إلينا الأمير عبدالله بهذه المناسبة ، ما سمعه من أقوال
الكونت شيشلاند مستشار الأت فونس ، شرحا لسياسة طيكة في الاستيلاء على
الأندلس ، على النحو الآتي ، قال : " وإنما كانت الأندلس للروم في أول
الأمر ، حتى غلب عليهم العرب ، وألحقوهم بأبخس البقاع ، جليقية ،
فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم ، فلا يصح ذلك إلا بضعف
الحال والمطاوله ، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلا تكلف " (١)
فكان الجميع (أى ملوك المسلمين وأمرائهم) يساءرون ويدافع الأيام

ويقول : من هنا إلى أن تتم الأموال وتهلك الرعايا ، يأتي الله بالفرج
وينصر المسلمين ! فورد علينا من إقبال الأت فونس مع ابن عمار هول عظيم ،
وصح عندنا أنه لم يأت إلا طالبا لملكنا ، ثم أرسل الأت فونس إلينا ينذر
بإقباله ويأمرنا بالخروج إليه ، يرى أنه يذهب إلى تجديد العهد والاجتماع
بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشك أن ذلك للتقبض علينا ، وانجاء
ما عاقد هم (أى الإشبيليين) عليه .

فاجتمع إلينا أهل الرأي والمشورة ، وقالوا : ما الذى تذهب إليه ؟ هذا
عدو قد جاء لطلبك ، ولا قدرة بك على مناوئته ، وسواء عليك خرجت أم
بقيت ، فإن أنت بقيت حلت بك الداهية العظمى ، ووقعت المفاصلة ، وأصاب
مطالبك سبيلا إلى الضل ، وتكون هذه أشد من الأولى .

وقد رفضنا بطرة شولس (وهو سفير سابق للأت فونس قدم لفرنطة يطلب
الأتاوة للملك المسيحي فرده ابن زيري) وألقى ابن عمار يده فيه حتى بنى
علينا حصن يليلش ، والآن لم يتروح مخنفنا حتى نعود إلى ما هو أدنى

وأمر . فاستعددنا لذلك جهداً وأجمعنا هوالينا من نشق به من رجالنا ،
وأخذنا أهبة للحال ، ولقيناها على مقربة من المدينة ، وبالفنا بالضرورة
في إكرامه ، فاعرض علينا وجهها بسيطاً وخلقاً حسناً ، ووعدنا أن يحامي عنا
كما يحامي عن بلده ثم وقعت المعاملة ، ومشت الرسل منا إليه ومنه إلينا ،
يبين ما عوقد عليه ، وأنه سيق سوقاً ، ويقول : إني قد تشبثت في الأمر ،
ولم نعجل حتى نسمع ما عندكم ، فإن جاملتموني ورأيتم لقصدى وجهها ،
انصرفت عنكم على خير ، وإلا فما أنا مع من عاقدني . وطلب خمسين ألف
مقال فشكونا إليه قلة البلاء ، وأن ذلك لا يقدر عليه ، وفيه من القطع لنا ما
يفترصنا به ابن عباد (أى المصتمد) ، فإنه لو أخذ غرناطة قوى عنصره .
ولم يطلع إليك ، فخذ ما نقدر عليه واترك رماً لا نستأصل من أجله وما تركت
تجده عندنا متى ما طلبت . فقبل العذر بعد جهد عظيم ، وقاطعناه
بخمسة وعشرين ألفاً ، ونصف المصد ، ثم أعددنا له من الفرش والشباب
والآنية كثيراً ، استدفاعاً لشره . وجمعنا ذلك كله في خباء كبير ، ودعوانه
إليه ، ولما رأى الشباب استحقاقها ووقع الاتفاق معه على زيادة خمسة آلاف
مقال لتتم بها ثلاثون ألفاً ، فأكملناها له لئلا يفسد الأكثر عن الأقل .
فشكر على ذلك كله وكاتب عليه نفسه ، ورجع على ابن عمّار يقول له :
كذبت لي في قولك أن غرناطة في ضعف وأن صاحبها من صفرسنه لا يعقل ،
ورأيت من رتبته وأحوالها ما خالف قولك . فرجع ابن عمّار يسأله أن يعقد
بيننا عقداً يوقف عنده . واستماله على أخذ إسطبة من عندنا . وكان معقلاً
عظيماً مما يلي جهات إشبيلية ، أخذه قائدنا " كباب " في الفتنة ،
وسألناه خبر القلعة ، فوقع الاتفاق على أن تكون قلعة " إسطير " عوضاً
عن " إسطبة " . وكانت قاشتره ومارتش المعقلين على جيان ، ومن أجلها
انقطع صاحبها عنا ، ولم يكن لجيان معنى إلا بهما . فترامى ابن عمّار في
أمرهما على الأذفونس ووعده على مارتش بأموال ، أنه يشتريها ، فعزم (أى
الأذفونس) علينا فيها للطمع في المال ، وعدنا نحن على قاشتره
بالمطهر وكان حصناً قد اشترك في نظره مع نظرننا ابن ذى النون ،

فضمن غيره أن يعطيه لنا عوضا من قاشطرة ، فدافعنا الأمر جهدا ولم
نقدر على أكثر ، فعل القوى مع الضعيف ، ثم أنه عقد العقد بين يديه
على ذلك ، وأنه لا يتمدى منا أحد على صاحبه . وذكر فيه ما نعطي
كل عام من الضريبة ، فجعل علينا عشرة الآف مثقال في العام وطيب
لنا الكلام بأن قال : طمع ابن عمّار أن نغدر بك ، ومما أن الله من ذلك ،
أن يشيع في الدنيا أن مثلي كبير في الروم يقصدك وأنت كبير في جنسك ،
ثم نغدر بك ، فابق على أمان لا أكلفك إلا الضريبة ، توجه إليّ بها كل عام
دون مطل ، وإن تأخرت بها أتاك رسولي عنها ، وتلزمك عليه نفقات فبادر بها ،
فقبلنا قوله ورأينا إعطاء عشرة الآف في العام ندفع بها مضرت ، خيرا من
هلاك المسلمين وفساد البلاد . إذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرته
ولا وجدنا من سلاطين الأندلس عوناً عليه ، إلا من يسوقه إلينا لهلاكنا ،
فبقيت الأمور على مصالحة ومهادنة لا يسمع فيها بفتنة .

ومما هيأه الله ، أن فقدنا وسائط السوء بعد ذلك بفقد ابن عمّار
وشغله في مرسية (١)

في هذا الجزء القيم من مذكراته ، يوضح لنا ملك غرناطة عبد الله
ابن زيرى الدور الخطير الذى كان يلعبه ابن عمّار في الحياة السياسية
لأسبانيا المسلمة في ذلك العصر ، والأسلوب الذى كان يلجأ إليه
لتحقيق أغراضه والوصول إلى أهدافه ، عارضا أثناء ذلك صورا دقيقة
للأوضاع السياسية في تلك الفترة المضطربة من تاريخ المسلمين في تلك
البلاد .

إن المعلومات التي يمكن أن نستخلصها من هذه السطور التي نقلناها
عن الملك الأندلسي ومن تلك التي لم ننقلها ، لذات أهمية كبرى في
إدراك كثير من تيارات السياسة الأندلسية ودور الطوك المسيحيين
الخطير وموقف أمراء الطوائف منهم . وهكذا تتضح سياسة ابن عمّار
وأساليبه لتحقيق أطماعه وطموحه ولا سيما ما يختص منها بعلاقاته

(١) الأمير عبد الله بن زيرى : التبيان ، انظر ص ٧٤ - ٧٦

بالأذفونس السادس وعمله معه . إذن لم يستطع ابن عمار تنفيذ خطته التي وضعها لضم غرناطة إلى مملكة بني عباد ، بالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها في هذا السبيل ، ولكنه مع ذلك لم يخرج من الصفقة صفر اليدين ، فضم بعض الحصون المهمة إلى مملكة إشبيلية متهيئاً لمغامرة أخرى وباحثاً عن فريسة جديدة ، فوقع نظره على مرسية المدينة الفنية والتي كان يحكمها ، مستقلاً فيها ، الأمير الأديب ابن طاهر (١) إلى أن أخرجه عنها أبو بكر محمد بن عمار سنة ٤٧١ هـ .

مطامعه في مرسية

=====

لقد كانت مرسية الهدف الجديد للوزير الإشبيلي بعد أن فشلت جهوده لاحتلال غرناطة ، واكتفى بضم بعض حصونها إلى مملكة إشبيلية وبعد أن استطاع أن يبعد ، ولو لأمد محدود ، الخطر المسيحي فيقوى مركزه ويعلو شأنه .

نظر ابن عمار وهو في قمة مجده حوله باحثاً عن فريسة جديدة يرضى بها طمعه ويحوك حولها مؤامراته ، فوجد لها في إمارة مرسية المتاخمة لمملكة إشبيلية من الشرق ، وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر ملكها والمدير لشؤونها ، طائل الغنى ، حصيف الرأي ، (٢) ولكنه مع كل هذه المزايا لم يكن كثير الخيل والجند مما جعل الاستيلاء على بلاده ميسوراً سهلاً وقد لاحظ ابن عمار ذلك .

وفي سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) مرسية لمقابلة الكونت دي برشلونه ريمون ليوغني أغراضه من المرور بمرسية ولكي يختتم الفرصة ارتبط مع بعض أعيان مملكة مرسية الذين علم أنهم كانوا في حالة استياء من ابن طاهر أو أنهم على استعداد للخيانة والانقلاب متى اشترى ضمائرهم

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١١٦

(٢) دوزي : طوك الطوائف ، ص ٢٤٣

بالمال (١) . ولما كان في حضرة ريمون عرض عليه عشرة آلاف مثقال ذهباً لقاء مساعدته . بجنود من عنده لفتح مرسية فقبل الكونت الاقتراح ، وتعاهد معه على أن يكون " ابن المعتمد " الذي يتولى قيادة جيش إشبيلية رهينة عنده ، حتى يصله المبلغ المتفق عليه ، ويسلم الكونت ابن أخيه لابن عمّار كرهينة وضمان لتنفيذ شروط المعاهدة ، وكان المعتمد يجهل نص الاتفاق الذي يجعل ابنه رهينة عند الكونت ، وضماناً لوصول المبلغ ، وابن عمّار كان على يقين من وصول المبلغ في الوقت المعين ، فلا محل للخوف من تطبيق الاتفاقية ، وليس ثمة ما يوجب بقاءه رهينة عند ريمون ما دام المبلغ يصل في الوقت المحدد ، وتم الاتفاق ، واجتمعت جنود إشبيلية بجنود ريمون وزحف الجيش المتحد لمهاجمة ولاية مرسية المستقلة ولكن المعتمد تهاون بموعد الدفع ، فترجع عند الكونت أن ابن عمّار خدعه ، فاستشاط غضباً ، وأمر بالقاء القبض على ابن عمّار وابن المعتمد قائد جيش إشبيلية ، وحاول جيش إشبيلية إنقاذهما فهزموا واضطر إلى الاندحار وطالب ريمون فضلاً عن ذلك بثلاثين ألف مثقال لقاء مجيئه وإطلاق أميريته .

وكان المعتمد لا يزال في طريقه إلى مرسية فسمع بخبر اعتقال ريمون لابنه الرشيد ولوزيره ابن عمّار ، فلم يقو فؤاده على احتمال هذه الكارثة ولم يطق صبراً ، وقلق على مصير ولده ، ووضع ابن شقيق الملك ريمون في السلاسل والأغلال . ومضى على هذه الحال عشرة أيام ، دخل فيها ابن عمّار في جوار " جاين " فأطلق سراحه ولكنه لم يستطع المثل بين يدي المعتمد فأرسل المعتمد إلى الملك المسيحي المبلغ الذي طلبه لكي يطلق سراح ابنه وما كانت النقود تصل حتى أطلق سراحه .

أما ابن عمّار فقد خرج خائفاً يترقب ، لقد عرف أن الملك لا بد غاضب عليه ناقد لفشله ، ولم يجد في موقفه العرج هذا من سبيل يلجأ

إليه لإنقاذ نفسه من محنته وتخليصه من ورطته سوى الشعر فأرسل
إليه قصيدة يقول فيها :

أأركبُ قَصْدِي أم أُعَوِّجُ مع الركبِ فقد صرْتُ من أَمْرِي على مركبٍ صعبٍ ؟
وأصْبَحْتُ لا أَدْرِي أُنِي البُعْدُ راحتي فأَجْعَلُهُ حَظِي أم الخَيْرُ في القربِ ؟
على أَنِّي أَدْرِي بِأَنَّكَ مُؤَثِّرٌ على كُلِّ حَالٍ ، ما يَزْحَجُ من كَرْبِي
أَيُظْلِمُ في عَيْنِي كَذَا قَمَرُ الدُّجَى وتنبو بكفي شفرة الصارمِ المَضِي ؟
حنانيك فيمن أَنْتَ شَاهِدٌ جِدِّه وليس لَهُ حَاشَا انتصَاهُكَ من حَسْبِ
وما جِئْتُ شَيْئاً فيه بغي لطالِبِ يضافُ بِهِ رَأْيِي إلى الضعفِ والمُجَبِّ
سوى أَنِّي أَسْلَمْتُني لَطِمْسَةٍ فَلَمْتُ بِهَا حدى وكَسَرْتُ من غَرْبِي
أما أَنه لولا عوارُفُكَ التِّي جَرْتُ في جَرَى المَاءِ في الفصنِ الرطبِ
لما سَمِعْتُ نَفْسِي ما أُسومُ من الأَدَى ولا قَلْتُ أَنَّ الذَنْبَ فيمَا جَرَى ذَنْبِي
سَأَسْتَمْنَحُ الرَّحْمَى لَدَيْكَ ضِرَاعَةً وَأَسْأَلُ سُقْيَا من تَجَاوَزَكَ العَذْبِ
وإنْ نَفَحْتَنِي من سَمَائِكَ حَرَجَفٌ سَأَحْتَفُ يا بَرْدَ النسيمِ على قَلْبِي (١)
ولمَّا كان المَعْتَمِدُ يَشْعُرُ أَنَّهُ هُوَ الذِّئْبُ جَرَّ على ابنِ عَمَّارٍ وابنه الرشيْدُ
ما وَقَعَا فيه ، لم يَسْتَرْسِلْ في غَضْبِهِ واحتفظ بصداقته لابنِ عَمَّارٍ ورق له ورد
عليه بهذه الأبيات :

لَدِي لَكَ المُتَبَيُّ تَزَاجُ عَنِ المُتَبَيِّ وَسَمْعِيكَ عِنْدِي لا يضافُ إلى ذَنْبِي
وَأَعَزُّ عَلَيْنَا أَنْ تُصَيِّكَ وَحْشَةً وَأَنْسُكَ ما تَدْرِيو فيكَ من الحَمِي
فَدَعْ عَنْكَ سَوْءَ الظَّنِّ وَتَعَدِّهِ إلى غيرِهِ فهو المُمْكِنُ في القَلْبِ
قَرِيبُكَ قد أَبْدَى تَوْحُّشَ جَانِبِ فجاوِزَتْ تَأْنِيساً وَعِلْمُكَ بي حَسْبِي
تَكَلَّفَتْهُ أَبْغْيَى بِهِ لَكَ سَلْوَةً وَكَيْفَ يَعْانِي الشَّعْرُ مُشْتَرَكُ اللَّبِ (٢)

وكان في جواب المَعْتَمِدِ لابنِ عَمَّارٍ ما يطمئنه ويبيح في نفسه الثقة برضاه
وعفوه ، فيقدم إليه وينال الصفح منه ، وقد حاول المَعْتَمِدُ حل المشكلة التي

(١) ديوان ابن عَمَّار : قصيدة " ٥٥ " ، ابن الأَبَّار : الحلة السرياء ص ١٣٨

(٢) ابن الأَبَّار : الحلة السرياء ، ج ٢ ، ص ١٣٨

أوقعه ابن عمّار فيها باتفاقه مع حاكم برشلونة المسيحي ، مرسلا إليه عشرة آلاف قطعة من الذهب التي اتفقا عليها ، ولكن الملك المسيحي لم يمد يقبل بغير ثلاثين ألفاً ، فلم يكن من المعتمد إلا أن أمر بضرب مسكوكات أدخل في تركيبها عناصر زائفة ، ولحسن حظه لم يدرك ريمون مبلغ ما فيها من الفسيفساق وأطلق سراح الرشيد بن المعتمد . (١)

هكذا أخفقت الحملة الأولى في فتح مرسية وعلى رغم إخفاق ابن عمّار في الاستيلاء على مرسية إلا أنه ظل يطمح في الاستيلاء عليها ، وتحدث نفسه بالاستقلال .

فتح مرسية

=====

ما زال ابن عمّار على الرغم من نجاحه الشبيه بالخذلان ، ومحاولته الأولى المنطوية على الإخفاق متطلعا إلى مرسية طامعا في أخذها ، وقد زعم أن تواردت عليه رسائل من كبار الزعماء في مرسية تبعث عنه عظيم الأمل في النجاح المحقق ، وأخذ يحسن للمعتمد غزوها حتى سمح له أن يذهب على رأس جيش إشبيلي لحصارها ، ولم يكتف بذلك بل طلب منه أن يأخذ ما بأيدي التجار من الدياج والخز إلى ما دون ذلك من الكسبي ليهديها إلى أهل مرسية على قدر منازلهم بعد فتحها ليكسب مودتهم ، ويأمن جانبهم ، وأجابه المعتمد إلى طلبه ، والظاهر أنه لاحظ في سلوك ابن عمّار ما أشار في نفسه الشكوك ، فلما ودعه ابن عمّار وهو زاحل إلى مرسية على رأس الحملة لم يستطع المعتمد إخفاء الشكوك التي ساورتها وقال لابن عمّار ، " سر إلى خيرة الله ولا تظن أنني مخدوع " (٢) فأجابه ابن عمّار الذي أصبح يعتقد اعتقادا راسخا أن المعتمد لا يستطيع الاستغناء عنه : " لست بمخدوع ولكنك مضطر " وتظاهر المعتمد بالاغضاء وحلم عنه ، وكان المعتمد يصرف غرور ابن عمّار ، ويعلم أنه قد يخطئ ، ولكنه لم يكن

(١) ابن الأبار : الحملة السيرة ، ج ٢ ص ١٣٧ / دوزي : ملوك الطوائف

(٢) ابن الأبار : الحملة السيرة ، ج ٢ ص ١٤٠

يعتقد أنه قد يصل به التمدد في الخطأ إلى حد التكرار له والخروج عليه ، وخلق طاعته .

وخرج ابن عمار من إشبيلية رافعا ألوسته قارعا طبوله ولما وصلت الحملة إلى أرياض قرطبة توقف ابن عمار ريثما تنضم إلى جيشه الخيالة من جند المدينة وأمضى ليلته في قرطبة بقصر واليها الفتح بن المعتمد ، واحتفى به الفتح وأتممه بأحاديثه العذبة حتى مضى الليل دون أن يشعر به ولاحت أنوار الفجر ، وقد م إليه أحد أتباعه ينبهه إلى أن وقت السفر قد هان فيجيبه ابن عمار :

إليك عني ، فليلي كله صبحٌ وكيف لا وسميري الحاجبُ الفتحُ ؟ (١)
وتابعت الحملة تقدمها إلى مرسية ، وكان كلما مربك من أعمال المعتمد استخرج من ذخائرها ما استطاع وحمله معه .

واجتازت الحملة طريقها إلى حصن بلج - وهو حصن كان يحمل اسم بلج بن بشر القشيري زعيم الغرب الشامييين الذين دخلوا الأندلس في سنة ١٢٣ هـ - وكان حاكم الحصن عربيا من بني قشير أسرة بلج ، وهو عبد الله بن رشيق ، فخرج على أحيال من الحصن للقاء ابن عمار ، ورغب إليه في النزول بالحصن عنده ، وأجاب به ابن عمار إلى ذلك ، واحتفل في إنزاله احتفالا استظرفه ابن عمار ، وآل به الأمر إلى أن قدمه على جيشه .

وقصد ابن عمار مرسية ومعه صديقه الجديد الذي أولاه ثقة كبيرة لم يكن الرجل أهلا لها ، ولما اقترب الجيش من مدينة " مولة " ضرب عليها الحصار ولم يطل حصارها لأنها ما لبثت أن سلمت ، وكانت مرسية تعتمد في تموينها (٢) على المنطقة الواقعة " حول مولة " ولذلك كان تسليم " مولة " في رعاية ابن رشيق وكتيبة من الخيالة الإشبيلية وعاد مع سائر الجيش إلى إشبيلية . وعلم بعد وصوله إلى إشبيلية من كتاب أرسله إليه أحد

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٢٣

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٢٤

رجاله أن المجاعة فتكت بشكان المدينة ، وأن أعيانها الذين سبق أن وعدوه
بالمساعدة ووعدهم بالمال والنقود قد وافقوا على مساعدة المحاصرين لها ،
وأبلغ ابن عمّار المعتمد أن المدينة موشكة على السقوط ، وقد أصاب في ذلك ،
فإن أبواب مرسية فتحت لابن رشيق بطريق الخيانة ، وألقي بابن طاهر في
السجن وأخذت البيعة للمعتمد . ولما بلغت ابن عمّار هذه الأنباء
امتلأت نفسه سرورا وزهوا ، وطلب من المعتمد أن يأذن له بالالحاق بمرسية
فأذن له المعتمد ، وأحضر ابن عمّار عددا من الخيل والبغال من الحظائر
الملوكية واستعار بعضها من أصدقائه حتى بلغ عددها مائتين وحملاً
بصنوف الديباج والحلل النفيسة ليقدّمها هدايا لأعيان المدينة ، وسار
ومعه الأعلام الخفاقة والطبول الضاربة ، ودخل مرسية في موكب حافل دخول
القائد الظافر ، وفي اليوم التالي لدخوله المدينة جلس مجلس التهنئة
للخواص والموام ، وقد برز لأهل المدينة بروز الملوك الفاتحين وقد وضع
على رأسه تاجاً مشرفاً مثل الذي يلبسه عادة مولاة في الحفلات الكبرى ،
وحاكاه فيما كان يكتبه في آخر الإلتماسات التي تقدم له وهو : " ينفذ
هذا إن شاء الله تعالى " (١) دون أن يذكر اسم المعتمد ، وتختّم في
كلتا يديه ، وكانت هذه بادرة خطيرة لسلسلة من أعمال العصيان والتمرد قام
بها ابن عمّار وكان لها أكبر الأثر على مستقبله السياسي . إن هذا
المسلك الشاذ الدال على الزهو والإعجاب والإعتداد بالنفس والاستبداد
بشؤون المملكة الجديدة جعل ابن عمّار كئاثراً على مولاة ، وهذا رأى
المعتمد واعتقاده فيه ولكنه لم يظهر بمظهر الفاضل الحاني عليه بل استسلم
ليأس كامن في النفس ، وبدأ يشعر أن حلم الصداقة اللذيذ الذي يرجع ابتداءً
عهده إلى خمس وعشرين سنة قد تلاشى الآن . وأنه كان مخدوعاً في ذلك
الميل القلبي الكاذب فصداقة ابن عمّار القديمة وظهوره دائماً بمظهر الخل
الوفي ، والصديق الحميم الذي لا يفصم عرى صداقته تطاول الأيام ، والصاحب

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٤١

المخلص النزيه المجرد من العلل والغايات ، كل ذلك لم يكن سوى كذب ورياء وخيبت ونفاق (١) ولعل المعتمد كان واحدا في تأشيم ابن عمار واساءة الظن به إلى هذا الحد ، وما لا ريب فيه أن الفكرة الخاطئة الأشيمة فكرة الثورة على مولاة وولي نعمته لم تكن لتمر بخاطره البتة ، والذي جعل الريب والشكوك تحوم من جانب المعتمد هو زهو المفرط إلى حد الجنون ولم يكن من ضعف الخلق وفتور المودة ، وعدم الشعور بأثر النعمة ، بحيث ينقض صداقة المعتمد وينسى ماله عنده من يد ، وما طوقه من جميل . بل الواقع الذي لا يرتاب فيه أحد أنه كان يحب مليكه حبا صادقا يدل عليه ما نظمه فيه بمد تغيره عليه من أشعار تفيض بالحب والإخلاص والولاء . إن من بواعث الأسف أن تقع الخلافات بينهما إلى هذا الحد ، وأن يحمل الحقد والحسد جماعة من الإشبيليين للإيقاع بابن عمار والسعاية والدس له ، وتأويل كل عمل وكل كلام وكل حركة تصدر عنه تأويلا ينطوى على الخبث والوقية ، واطهاره دائما بالمظهر البشع الشنيع ، هؤلاء الحسدة الجبناء استولوا على لب المعتمد وعقله وهم الذين يذكروهم في شعره كثيرا وينسب إليهم تغير قلب مليكه عليه ومن بينهم وزيره أبو بكر بن زيدون ابن الشاعر الكبير أبو الوليد بن زيدون الذي كان له أكبر تفوذ في القصر والذي يرجع إليه السبب الأكبر في إيغار صدر المعتمد عليه . وإحاطته بكل أنواع الشكوك من حين دخل مرسية باندن ، وتمكن هذا من خلق أسباب القطيعة بينهما ، وربما لو أمكن اجتماع الصديقين جنبا إلى جنب وتبادل الأحاديث والذكريات القديمة كانت تنقش السحب التي تجمعت في جو صداقتهما ، ويزول سوء الظن وتعود المياه إلى مجاريها ، ولكن المسافة الشاسعة التي كانت تفصل بينهما كانت تزيد الهاوية اتساعا والخلاف استفحالا حتى انتهى إلى أقصى مداه .

وقد أرسل المعتمد هذين البيتين لابن عمار معبرا بهما عن أساءه وما

خالجه من الظنون :

تَقِيرُ لِي فِيمَنْ تَقِيرُ حَارِثُ وَكُلُّ خَلِيلٍ غَيْرُهُ الْحَوَادِثُ
أَحَارِثُ إِنْ شُورَكَتْ فِيكَ فَطَالَمَا نَعْمَنَا وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ثَالِثُ (١)
فَأَجَابَهُ ابْنُ عَمَّارٍ :

لَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَمَا أَنَا حَارِثُ وَلَا أَنَا مِنْ غَيْرِهِ الْحَوَادِثُ
وَلَا شَارَكَتْكَ الشَّمْسُ فِيَّ وَإِنَّمَا لِي نَأْيٌ بِحَظِي مِنْكَ ثَانٍ وَثَالِثُ
فَدَيْتُكَ مَا لِلْبَشَرِ لَمْ يَسِرْ بِرَقْصُهُ وَلَا نَفَحَتْ تِلْكَ السَّجَايَا الدَّمَائِثُ
أَظُنُّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَنْ هَبَّتْ حَلَاوَتُهُ عَنِّي الرِّجَالُ الْخَبَائِثُ
تَنَكَّرْتُ لَا أَنِّي لِفَضْلِكَ نَاكِرٌ لَدَى وَلَا أَنِّي لِعَهْدِكَ نَاكِثُ
وَلَكِنْ ظَنُّونَ سَاعَدَتْهَا نَمَائِمٌ كَمَا سَاعَدَتْ مَتْنِي الْمَثَانِي الْمَثَالِثُ
أَبْعَدُ مَضَتْ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ حِجَّةً تَجَافَتْ بِنَا تِلْكَ الْخُطُوبُ الْكُورِثُ
مَضَتْ لَمْ تُرَبِّ مَنِي أُمُورٌ شَوَائِبُ وَلَا تُلَيْتُ عَنِّي مَسَاعٍ خَبَائِثُ
حَلَلْتُ يَدَايَ بِي هَكَذَا وَتَرَكْتُ نَفْسِي نَهَابًا وَلِلْأَيَّامِ أَيْدٍ عَوَائِثُ
وَهَلْ أَنَا إِلَّا عَبْدٌ طَاعَتِكَ الَّتِي إِذَا مِتُّ عَنْهَا قَامَ بَعْدِي وَارِثُ ؟
أَعْدُ نَظْرًا لَا تَوَهِّنِ الرَّأْيَ إِنَّهُ قَدِيمًا كَمَا هَافٍ وَأَدْرَكَ رَائِثُ
سَتَذْكُرْنِي إِنْ بَانَ حَبْلِي وَأَصْبَحْتُ تَعْنُ بِكَفَيْكَ الْحِبَالُ الرِّثَائِثُ
وَتَطْلُبُنِي إِنْ غَابَ لِلرَّأْيِ حَاضِرٌ وَقَدْ غَابَ عَنِّي لِلْخَوَاطِرِ بَاعِثُ
أَعُوذُ بِعَهْدٍ نُطِئْتُهُ بِكَ أَنْ تُرَى تَحِلُّ عَرَاهُ الْعَاقِدَاتُ النَوَافِثُ (٢)

وقد كان ابن عمار بطبعه أقل حماسة نفس وحرارة عاطفة من المعتمد ،
ولذلك لم يستطع أن يبادل المعتمد صداقة حارة كصداقته وودا صافيا
كوده ، ولكنه مع ذلك كان يشعر بما للمعتمد عليه من فضل ، وينطوي له
على ما تسمح به طبيعته من الحب والمطف ، وكان يعرف ما فطر عليه
المعتمد من سماحة النفس والخلق ، ولكنه كان يخشى تأثير "الرجال
الخبائث" الذين أشار إليهم في قصيدته .

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة "٥٦" / ابن بسام : الذخيرة قسم ٢ ص ٢٥٦

(٢) نفس المصدر : قصيدة "٥٦" / نفس المصدر : ص ٢٥٦

تمرد ابن عمّار في مرسية

=====

لا شك أن بذور التمرد كانت متمكنة في نفس ابن عمّار منذ زمن ليس بالقليل قبل دخوله لمرسية . وكانت تغذى هذه البذور وتدفعها إلى الإتيان عوامل عديدة أهمها :

أولاً :- المرحلة المضطربة التي كانت تعيش فيها بلاد الأندلس آنذاك ، فلم تكن ثمة حكومات قوية تستطيع فرض سياستها وسلطانها على جميع البلاد ، بل كانت الخلافات والنزاعات الداخلية تفعل فعلها في إضعاف شوكة ملوك الطوائف وفل عزمهم والفت في عضدهم ، وكان ابن عمّار يعترف ذلك حق المعرفة ويدرك أن إشبيلية نفسها ليست في وضع يساعد على أن تدخل منفردة في نزاع حاد وصراع عنيف (١) .

ثانياً :- اعتداد ابن عمّار بنفسه وإيمانه بحنكته السياسية ودائه في إدارة دفة الحكم . بل لا نبالغ إذا قلنا إنه كان يعتقد أن إدارة دولة بني عباد وتوسيع نفوذها يرجع الفضل فيهما إليه ، لذا فلا يرى أنه مدين لسيدته بشيء وقد كتب يوماً للمعتمد من قصيدة يقول فيها :

ولي حسنات لو أمت ببعضها إلى الدهر لم يرتع بنائبة سريري (٢)

ونراه وهو في أخرج ساعاته يطلب من المعتمد العفو والمغفرة فذكره بخدماته السابقة حين يقول في قصيدة :

فإن رجائي أن عندك غيرما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمته يكرآن في ليل الخطايا فيصبح (٣)

ويتحدث عن غروره هذا عبد الله بن زبيري ملك غرناطة فيقول " إنه أي ابن عمّار " بفسوقه كان يتكبر على أولاده (أي أولاد المعتمد) ويضييق عليهم ويسبي الصنيعة مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه والمعتمد

(١) صلاح خالص : محمد بن عمّار ، ص ١٢٤

(٢) ديوان ابن عمّار : قصيدة " ٥٤ " / ابن الأبار : الحلة السيرة ج ٢ ص ١٣٦

(٣) ديوان ابن عمّار : " قصيدة ٧٦ "

في هذا كله يصبر * (١)

ثالثا : - صداقة ابن عمّار للأد فونس السادس ملك قشتالة وثقته بتأييده وإسناده . وكان الوزير الإشبيلي يدرك أهمية الأد فونس في الأندلس وتأثيره الكبير على توازن القوى . فضمانه لصداقته وتأييده ، كسب ذو قيمة عظيمة وتشجيع كبير له على الاستغناء عن سيده السابق . (٢)

ويروى ابن الأبار أن ابن عمّار كان يتختم بخاتمين وأنه حكى أن ابن طاهر غمز على رسول ابن عمّار المعلم بخاتميّه وأنه نسب أحدهما للموتمن ابن هود والثاني للأد فونس ! وقال أبو طاهر التميمي إن الوزير أبا بكر بن عبد العزيز ندّره حين بلغه أن الأد فونس ملك الروم أعطاه خاتما عند اجتماعه به وليأذنه فرارا من الوحشة الواقعة بينه وبين ابن عباد وتخوفا منه ، فقال أخاتم التأمر أم خاتم التأمين (٣) فرد عليه ابن عمّار بقصيدة مطلعها :

قل للوزير وليس رأى وزير أن يتبع التنزير بالتندير
إن الوزارة لو سلكت سبيلها وقف على التعزيز والتوقير
وأرى الفكاكة جل ما تأتي به رحماك في التعجيز والتصدير
وصلت دعابتك التي أهديتها في خاتم التأمين والتأشير
وأظنها للطاهر فإن تكن فخلقة التقدير والتطهير
ولعل يوما أن يسير نعتيه في طينة التقديم والتأخير
وترى بلنسية وأنت قد أدره - سينا لها التدبير من تدبير (٤)

رابعا : - غنى مرسية وثروة ابن طاهر كما ذكرنا ، فقد كان واسع الشراء وتقدر أملاكه بنصف كورة مرسية .

خاصا : - عدم وجود أساس شرعي للسلطة غير المال والقوة في الأندلس

(١) عبد الله بن زيري : التبيان ، ص ٨١

(٢) صلاح خالص : محمد بن عمّار ص ١٢٥

(٣) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٤١

(٤) ديوان ابن عمّار : قصيدة "٦٠" / ابن بسام : الذخيرة ج ٢ ص ٢٥٩

آنذاك . فمن امتلك المال استطاع تجنيد المرتزقة وجمع الأتباع وضم
الأعوان ، ونظرة بسيطة على الأصول التي انحدر منها ملوك الطوائف
ثبتت لنا هذه الحقيقة ، فلم يكن ابن عمّار أن يتحرج عن طلب ذلك
الملك والسلطان ما دام المال متوفرا لديه وما دامت ظروف البلاد تشجعه
على ذلك كل التشجيع .

كل هذه العوامل وأخرى غيرها دفعت ابن عمّار إلى التفكير في التمرد
على مليكه في مرسية وقطع كل علاقة تربطه بالمعتمد بن عباد وقد بدأت
مظاهر هذه الرغبة منذ بدأ قدومه إلى مرسية وخروجه على ولي نعمته .
علاقاته مع ملوك الأندلس

=====

لقد كان ابن عمّار يعتقد بأنه قادر بما يملك من قوة ومن تأييد
على أن يقف في وجه جميع ملوك الطوائف في الأندلس . ولم تكن علاقاته بعد
فتح مرسية سيئة مع المعتمد بن عباد ملك إشبيلية وسيد القديم فحسب ،
وإنما كانت كذلك مع ملوك الطوائف الآخرين . فابن طاهر حاكم مرسية
المعزول قد استكان إلى زاوية من بيته يبكي ملكه الضائع وأراد ابن عمّار
في بادئ الأمر أن يبدؤا لأمير مرسية كريم النفس عفو الخصومة فأرسل إلى ابن
طاهر بضمعة حلل فاخرة ليختار منها ما يريد هدية خالصة من ابن عمّار
ولكن ابن طاهر أبى أن يجود عليه ابن عمّار الذي يعرفه يوم كان يجوب

الأندلس بأسماله البالية ودابته التي أضناها التعب ولم يرد ابن طاهر
أن يرد الثياب دون أن يخز ابن عمّار وخزة تريح بعض ما في نفسه من الضرر
فإذا هو يقول لمن يحمل إليه الحلل " ارجع إلى مولاك ابن عمّار فقل له إن
ابن طاهر لا يريد من الثياب غير حبة طويلة خلقة من خشن الصوف الناحل ،

وغير قلنسوة صغيرة ، فان سألك مولاك عنهما فقل له إنك أنت أعلم الناس بهما " (١)
وعاد الرسول يحمل الحلل والرسالة وأحسن ابن عمّار وخزة الحديد ولكنه لم يرد

الإفصاح عما في نفسه فأمر بابن طاهر فسجن بقلعة "مناجو" (١) وظلت الرسائل تدور بين ابن عمار وطوك الأتھلس لإطلاق سراح ابن طاهر ولكنه رفض بإصرار مما أساء العلاقة بينه وبين ابن عبدالعزيز أمير بلنسية . أما ابن عبدالعزيز وكان حاكماً على بلنسية القريبة من مرسية ، وصديق ابن عمار القديم فأرسل هذا الصديق إلى ابن عمار يرجوه أن يطلق سراح ابن طاهر ولكن ابن عمار أبي واستكبر فقد خشي أن يخرج ابن طاهر من سجنه فيؤلب عليه الأعداء ، فلما يئس ابن عبدالعزيز من ابن عمار أرسل يستنجد بالمعتمد في إشبيلية وألح عليه حتى أرسل المعتمد إلى ابن عمار يأمره بإطلاق أسيره ولكن ابن عمار لم يلتفت إلى أمر المعتمد كما لم يلتفت إلى رجاء ابن عبدالعزيز وأبقى على ابن طاهر في سجنه . ولم يتوقف ابن عبدالعزيز عن بذل جهوده ومسايعه لدى ابن عمار وبعد مفاوضات حول هذا الموضوع تم الاتفاق على إطلاق سراح ابن طاهر بشرط أن ينزل عن إحدى القلاع التي كان يحكمها أحد أقارب ابن طاهر ، وهو أبو بكر بن موسى ، لابن عمار . وما كان ابن طاهر يتطص من القيود ويقصد بلنسية حتى نكث باتفاقه ورفض تسليم القلعة ، يحرّضه على ذلك ابن عبدالعزيز وعدوا ابن عمار اللدود ، (٢) وأخذ الغضب من ابن عمار كل مأخذ فنظم في ذلك قصيدة ، ضمنها كل حقد على ابن طاهر وابن عبدالعزيز مندداً بهما ومتهما إياهما بشتى التهم ، ولا سيما بنقض العهود والوعود ، ولم يكتف بذلك ، بل هدد بلنسية بالويل والثبور يقول فيها :

خبر بلنسية ، وكانت جنّة أن قد تدلّت في سواء النار
عذرت وفياً بالعهود وقلمنا عثر الوفي سعي إلى الفدّار

ويدعو أهل بلنسية للثورة على ابن عبدالعزيز إذا كرا مخالفته للعهد :

ثوروا بهم متأولين وقلوبوا ملگا يقوم على العدو بشار
جاء الوزير بها يكشف نيلها عن سوء سوء وعار عار

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٢٤

(٢) نفس المصدر ؛ ص ١٢٤

نَكَثَ الْيَمِينَ وَحَادَ عَنْ سُنَنِ التَّقَى وَقَضَى عَلَى الْإِقْبَالِ بِالْإِدْبَارِ
أَوَى لِنَصْرٍ مِنْ نَبَاِ الْمَثْوَى بِهِ وَدَهَاهُ خِذْلَانٌ مِنَ الْأُنْصَارِ
مَا كُنْتُمْ إِلَّا كَأَمَّةٍ صَالِحَةٍ فَرَمَاكُمْ مِنْ طَاهِرٍ بِقُدَارِ
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

هَذَا وَخَصَّكُمْ بِأَشْأَمِ طَائِرٍ وَرَمَى دِيَارَكُمْ بِأَسْوَأِ جَارِ
مِيبَاتٍ يَطْمَعُ بِالنَّجَاةِ لَطَالِبِ سَاعٍ إِذَا وَلَتْ الْكَوَاكِبُ سَارِ
كَيْفَ التَّفَلُّتُ بِالْخُدَيْعَةِ مِنْ يَدَيْ رَجُلٍ الْحَقِيقَةِ مِنْ بَنِي عَمَّارِ (١)

وأشار الفتح في قلائده إلى أن ابن عبد العزيز قد أعمل الحيلة لاخراج صديقه من السجن بعد أن رفض أمر المعتمد وأبى أن يطلق سراحه وركب رأسه ولج في عناده ، فمكن ابن طاهر من الهرب من معتقله (٢) ونجح في ذلك ، ولما حل ابن طاهر بجزيرة شقروهي أول عمل ابن عبد العزيز كتسبب ابن طاهر إليه رسالة يقول فيها " كتابي إليك وقد طفل بنا العشي ومال بنا إليك المطي ، ولها من ذكراك هاد ومن لقياك هاد ، وسنوافيك المساء فنغفر للزمان ما قد أساء ، ونرد ساحة الأمن ونشكر عظيم ذلك المن ، فهذه النفس أنت مقلها وفي برد ظلك يكون مقلها ، فله مجدك وما تأتبه لا زلت للوفاء تحييه ، ودانت لك الدنيا ودانت لك العليا إن شاء الله تعالى "

ولما وافت رقعته أبا بكر بن عبد العزيز ركب إليه وتلقاه في أعيانه وجلة رجاله وأنزله في قصر مجاور لقصره ، وجامله مجاملة لم تعهد في عصره ، وأشركه معه في نهيه وأمره ، ولم ينفرد عنه في شأن من الشؤون ، وأقبل عليه الشعراء يسئلونه عن نكبته ويتضمنون له العودة إلى ملكه وسابق مكانته من ذلك قول أبي جعفر البني :

يَقُولُونَ لَيْتَ الْغَابَ فَارَقَ غَيْلَهُ فَقُلْتُ لَهُمْ أَنْتُمْ لَهُ الْآنَ أَخَوْفُ
وَلَنْ تَرْهَبُوا الصَّمَامَ إِلَّا إِذَا غَدَا لَكُمْ خَارِجًا مِنْ غَدْرِهِ وَهُوَ مَرْهُفُ (٣)

(١) ديوان ابن عمَّار : قصيدة " ٥٨ "

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٦٢

(٣) علي أدهم : المعتمد بن عباد ، ص ١٦٤

ولما كان ابن عبد العزيز هو الذي سهل لابن طاهر طريق نجاته وسمى
في خلاصه وأكرم مشواه في بلنسية لذلك اعتقدها ابن عمار غدره جرت على
يديه ، واشتد حقه عليه ، وأخذ يعمل الحيلة في الإضرار به ، وتقبيح وصفه
والتشهير به .

وبالرغم من إختلاف الروايتين إلا انهما تؤكدان مدى العداوة الشديدة
التي بين ابن عمار وجيرانه من طوك الأندلس بعيدة .

والمعتصم بن صمادح أمير المرية وحليف المعتمد كان ينظر إليه برية وحقد
وقلق ، فقد عاتب المعتصم بن صمادح ابن عمار بأبيات فرد عليه :

وزهدني في الناس معرفتي بهم	وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلم تُرني الأيامُ خلاً تُسرُنِي	مباديه إلا ساءني في العواقب
ولا قلت أَرْجوه لدفع مَلَمَّة	من الدهر إلا كان إحدى المصائب

فأجابه ابن عمار بقوله :

فديتك لا تزهد فشم بقية	سترغب فيها عند وقع التجارب
وابق على الخُلصان إن لديهم	على البدء كرات بحسن العواقب
تكففتي بالنثر والنظم جاهداً	وسقت على القول من كل جانب
وقد كان لي لو شئت رد وإنما	أجر لساني ذكر تلك المواهب
ولا بد من شكوى ولو بتنفيس	يسكن من حر الحشا والترايب
كتبت على رسمي وبعد نسيئة	قرأت جوابي من سطور الماكب
ثلاثة أبيات وهيأت إنما	بعثت إلى حربي ثلاثة كتائب
وكيف يلذ العيش في عتب سيد	وما لذ لي يوم على عتب صاحب
وقبل جرت على بعض كتبي جفوة	ألحت على وجهي بغمز الحواجب
سلكت سبيلي للزيارة أثرها	فقابلت دفعا في صدور الركائب
وما كنت مرتاداً ولكن لنفحة	تعودت من ريحان تلك الضرائب
ولو لمعت لي من سماءك برق	ركبت إلى مفناك هوج الجنائب
فقبلت من يملك أعذب مورد	وقضيت من لقياك أوكد واجيب
وابق خفيف الظهر إلا من النوى	وخليت للعافي ثقال الحقائق

سواك يمي قول الوشاة من العدى وغيرك يفضي بالظنون الكواذب (١)
وكذلك كانت علاقاته سيئة مع الملك عبدالله بن زيرى ملك غرناطة (٢)،
ومع ذلك فلم يكن يعتقد أنهم سيكونون مصدر خطر عليه وسببا في أذاه
فكان يسلقهم بلسانه ويكيل لهم الشتم والسباب ويهددهم بالويل
والشبور .

شقة الخلاف مع المعتمد
=====

اتصلت أشعار ابن عمّار إلى المعتمد ، والتي هجا بها ابن عبدالعزيز
وهدد بلنسية فضاغت عنقه عليه ، وكان قد اشتد غضبه على ابن عمّار
لعميانه أمره وإهماله طلبه ، فنظم الأبيات التالية هازئا صاخبا يذكر فيها
أوليته ويقارن بين حاله في أيام بؤسه وخموله ، وحاله الآن وقد وصل إلى
درجة ينازع فيها ولي نعمته الملك ، ويخرج عليه ويبدى تمرده (٣) وقد
بدأها بالإشارة إلى بني عمّار تعليقا على قول ابن عمّار عن نفسه " رجل
الحقيقة من بني عمّار " .

الأكثرين مُسوداً ومملّكاً ومتوجاً في سالف الأعصار
المكثرين من الكباء لنارهم لا يوقدون بغيره للسارى
والمؤثرين على العيال يزادهم والضاربين لهامق الجبار
إن كوشروا كانوا الحصى أو فاخروا فمن الأكاسر من بني الأعرار
يُضحى مؤملهم يوءمل سبيته ويبيت جارهم عزيز الجار
تبكي عليهم شنبوس بعبرة كاتبيها المتدافع التيار
يبكي لها القصر الضيف تلالاً شرفاته في خضرة الأشجار
ما ضاحكته الشمس إلا خلته نضحت جوانبه بماء نزار
تبكي القيام تجاوزت أوتاهها في ساحته تجاوب الأطيّار
يا شمس ذاك القصر كيف تخلّصت فيه إليك طوارق الأقدار

(١) ابن دحية : المطرب في أشعار أهل المغرب ، ١٦١

(٢) انظر محاولته ضم غرناطة ص ١٢٩ من هذه الرسالة

(٣) دوزى : ملوك الطوائف ، ص ٢٥٦

لما تلتنك شعوب حتى جاوزت غلب الرجال وسامي الأسوار
 كم كان من أسير هنالك خادر لك حارس بأسنة وشفار
 من قومك الزهر الوجوه إذا الوغى كست الوجوه الفرثوب القار
 من كلر أشوس خائض في لجة نحو الكماة بشعلة من نار
 لما ناهم للعلی عمارهم تركوا الحداة قصيرة الأعطار (١)

وسرا بن عبد العزيز بهذه القصيدة سرورا لا يقدر ، أما ابن عمار فاعتم
 لذلك غماً شديداً ، وبدا من فوره ، ينظم شعرا يناقض فيه شعر المعتمد
 حشاه بالهجاء والمثالب وعرض فيه لشأن المعتمد مع زوجه اعتماد وقذف
 زوجته ، وكشف عن عيوبه وفضائحه ، وأسف فيها إسفاً كان يجمل به
 أن يترفع عنه ، قال في مطلع قصيدته النكدة :

ألا حيي بالغريب حياً حلالاً أناخوا جِمالاً وحازوا جِمالاً
 وعرج بيومين أم القـرى ونم فعمسى أن تراها خيالاً
 لتسأل عن ساكنيها الرماد ولم تر للنار فيها اشتعالاً
 وعرض باعتماد الرميكية زوجة المعتمد وأم أولاده قائلاً :

تغيّرتها من بنات الهجان رُميكية لا تساوى عقلاً
 فجاءت بكل قصير العذار لثيم النجارين عمّاً وخالاً
 بصفر الوجوه كأن إستهبها رماهم فجاءوا هيارى كسلاً
 قصار القدود ولكنهم أقاموا عليها قروناً طوالاً

ومضى بعد هذا التعريض القبيح يطعن المعتمد في رجولته وينكر
 عليه الكرم والشجاعة وينذره بأنه سيستمر في هتك عرضه وتشويه سمعته :

فيا عامر الخيل يا زيدها منعت القرى وأبحت العيالا
 أراك تورى بحب النساء وقد ما عهدت لك تهوى الرجالا
 أتذكر أيامنا بالصبا وأنت إذا لحت كنت الهلالا

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٥٩ " / ابن بسام : الذخيرة ،

أعانق منك القضيب الرطب وأرشف من فيك ماء زلالا

إلى أن يقول :

سأكشف عرضك شيئا فشيئا وأهتك سترك حالا فحالا (١)

ولم يطلع أحد على هذه القصيدة التي نظمها وهو في ثورة غضب سوى نفر من أصدقائه الذين يثق بهم ومنهم يهودى يتجسس لابن عبدالعزيز كان يثق به أيضا ، ولم يكن مهماً عنده . وقد حصل اليهودى بأيسر كلفة ، وأقل عناء على نسخة من القصيدة مكتوبة بنفس خط ابن عمار وقدماها للأمير ابن عبدالعزيز صاحب بلنسية وهذا كتب في الحال كتابا في طيه القصيدة وأرسله إلى المعتمد في إشبيلية .

ومن هذه اللحظة التي اطلع فيها المعتمد على الرسالة والقصيدة أصبح التوفيق بينهما أمرا مستحيلا فلا المعتمد ولا اعتماد ولا بنوهما جميعا ينفروا لابن عمار هذه السقطة التي كبا فيها كوة لا قيام له بعدها ، وعثر عثرة لا يقيه منها أحد . وقد حان حين ابن عمار وجاء وقت القصاص منه بنفسه ، بل هناك آخرون قد تعهدوا له بذلك وهم له بالمرصاد . (٢)

(١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٦١

(٢) دوزى : ملوك الطوائف ، ص ٢٥٧

محاولته قلب الحكم في طليطلة

=====

ما كادت حال ابن عمّار تستقر في مرسية حتى قرر حوالي ٤٧٦ هـ التدخل مباشرة في أمر طليطلة فتوجه إليها تاركاً في مرسية مساعده ابن رشيق (١) يدير الأمور ويرتب شؤن المدينة ، وفي طليطلة اتصل ابن عمّار بأشراف المدينة وادعى أنه رسول من ملك قشتالة المسيحي الألفونس السادس واقترح عليهم مشروعاً أمل أن يحظى هو عند تنفيذه بحصة الأسد .

ويتلخص مشروع ابن عمّار الذي قدمه لنبلاء طليطلة وأشرافها ، في أن يطرد أهل طليطلة أميرهم القادر بن ذي النون ويحكموا أنفسهم مباشرة بواسطة مجلس من الأشراف على أن يؤدوا للألفونس أتاوة سنوية معينة ، أسوة بما يفعله الأمراء الأندلسيون الآخرون ليأمنوا شره ويحفظوا بحمايته ، واعتقد فريق من الأشراف الطليطليين بجدية مهمة ابن عمّار ووافقوه عليها واتخذوا الأهمية لتنفيذ مشروعهم ، إلا أن القادر علم بالمؤامرة قبل تنفيذها فأحبطها ، ونكل بالمتآمرين ففروا ملتجئين إلى الملك المسيحي وهذا يدل على نسج المؤامرة بالتعاون مع الألفونس السادس وإلا لما هرب المتآمرون إلى ملك قشتالة .

أما ابن عمّار نفسه فتوجه إلى سرقسطة وما كاد يصل إليها حتى وصلت إليه الأنباء المريحة بخروج ابن رشيق مساعده وحليفه في مرسية وتمرده عليه واغتصابه حكم المدينة واستيلائه على ثروة ابن عمّار الطائلة لنفسه ولم يجد ابن عمّار وسيلة لإسترداد ملكه السليب .

ويقول عبد الله بن زيري ملك غرناطة آنذاك في مذكراته وهو الوحيد الذي ذكر لفظ هذه الحادثة (٢) أن ابن عمّار كان مرسلًا من قبل الملك المسيحي وأنه كان في خدمته .

(١) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٢٥٧ / محمد رضوان الداية :

مختارات من الشعر الأندلسي ص ٨٣-٨٤

(٢) عبد الله بن زيري : التبيان ، ص ٨٠

وعلى رغم أننا لا نستطيع تحديد غرض ابن عمّار من مفامته في طليطلة
ولا نعرف فيما إذا كانت لحساب الأندونيس السادس كما يذكر ملك غرناطة
أو كانت لحساب غيره ، فإن ما نعرفه عن نفسية ابن عمّار وأغراضه يدفعنا
إلى التساؤل فيما إذا كان شاعرنا يجد في طليطلة وهي في أزمتها
الخانقة فريسة سهلة المال يرضي بها طموحه ويقنع مطامعه !
وعلى كل فقد كان حصيد ابن عمّار من هذه المفامرة فشلا ذريعا
وضربة قاضية فضلا عن فشل مؤامراته فان غيابه عن مرسية كلفه غاليا
وفسح المجال لابن رشيق الطموح لكي يضرب ضربته بحذق وبراعة .

=

=

الفصل الرابع

= محنة ابن عمار =

- الإطاحة بابن عمار في مرسية
- ابن عمار في سرقسطة
- ابن عمار في سجن شقورة
- ابن عمار في سجن إشبيلية
- مصرع ابن عمار
- أحكام الموءرخين المسلمين على ابن عمار

الإطاحة بابن عمار في مرسية

=====

انصرف ابن عمار إلى مباحجه ولذاته ، ولم يكن ليكثرث للأمر أو يفطن لما يدور حوله ، أو يقدر في حسابه أن ابن رشيق سيخونه بمساعدة خصمه العنيف ملك بلنسية وقد ثاب إلى رشد و فطن للأمر ، ولكن بعد أن فاتت الفرصة ، ومضى الوقت (١) فلم يشمر إلا والجند بتحريض ابن رشيق جاءوا في حال دياج وثورة وصخب مطالبين بأعطياتهم المتأخرة ولم يكن باستطاعته في هذا الظرف أن يشبع نهمهم ، فتوعدوه بتسليمه إلى المعتد إذا هو عجز عن الوفاء لهم بما يطلبون . ولم يربداً أمام هذا التهديد والوعيد إلا أن يفلت من أيديهم ، ويسارع إلى اللوذ بالفرار والتجأ بعد فراره إلى الأثفونس ليحتمي به وليجد منه عوناً على فتح بلنسية وقد ظهر أنه كان واحداً فيما قدره ، بعد أن خيب الأثفونس أمه ، وجعل كلامه دبراً أنه ، وبأن له أن ميله إلى جانب ابن رشيق كان لقاء الأموال والهدايا التي قدمها إليه ، وقد كاشفه الأثفونس بقوله " أنا لا أرى فيكم إلا أنكم جماعة لصوص ، فاللص الأول قد سرق ، وجاء الثاني فسرق من الأول ما سرقه ، وجاء الثالث فسلب من الثاني ما سرقه الأول (٢)

هكذا استقبل الأثفونس هذا المحدث ببرود تام ، ويبدو أن ابن رشيق لم يهمل الأثفونس من حسابه حين قام بحركته فاسترضاه بما يكفل بقاءه محايداً على الأقل (٣) وكان ابن رشيق قد أحكم تنظيم خطته فوضع أصدقاءه وأقرباءه في المراكز المهمة ، وولاهم إمرة القلاع الحصينة وجمع حوله (٤) الجند ، ثم ولى شطر الأثفونس السادس حليف ابن عمار الوحيد

(١) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٢٥٧

(٢) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٢٥٨ / ابن الأبار : الحلة السيرة

ج ٢ ص ١٤٦

(٣) نفس المرجع : ص ١٤٦

(٤) نفس المرجع ، ص ١٤٢

فأرضاه بالمال والهدايا ، حتى إذا تم له الأمر في الداخل والخارج وجه ضربته إلى رئيسه وأغلق أمامه أبواب المدينة . وبالفعل قام ابن رشيق بتنفيذ مخططه هذا ، فأغلق أبواب مرسية في وجه ابن عمار مما اضطره إلى محاصرتها بمن معه أياما ، فامتعت عليه ، ولم يقدر على دخولها ، فبقي حائرا لا يدري ما يصنع ولا أين يتوجه ، وقد بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب قلعاً ، فهرب حتى لحق ببني هود بسرقسطة (١)

ابن عمار في سرقسطة =====

لم يجد ابن عمار بعد أن يغس من الرجوع لمرسية من ملجأ يأوى إليه سوى سرقسطة في الشمال الشرقي من أسبانيا المسلمة حيث يحكم المؤتمن بن هود الذي يكاد يكون الوحيد من بين أمراء الأندلس المسلمين الذي لا تزال علاقاته الطيبة بابن عمار ، فاستقبله استقبالا حسنا وخصص له منزلا يسكنه هو وأهله وضحه رزقا يساعده على العيش . (٢)
ولكن الإقامة لم تكن ممتعة في سرقسطة بعد فقد المال والأصدقاء وزوال الملك والسلطان ، فأزمع السفر إلى لاردة التابعة لإمارة سرقسطة حيث يقيم حاكما فيها المظفر بن هود ، ولكن الإقامة هناك لم تكن أشد امتاعا له من إقامته في المدينة الأولى فعاد بعد فترة وجيزة إلى كنف المؤتمن يتحين الفرص للقيام بعمل ما يظهر فيه براعته ودماؤه ويرضي به حاجته إلى الحركة والعمل . وبالرغم من حال ابن عمار السيئة العنيفة التي حاقت به ، فإنه لم يبيس من استمادة نفوذه وتحقيق مطامعه ولم يفقد ثقته بنفسه ، ولكن الفرص لم تكن كثيرة والظروف لم تكن مواتية .
وأخيرا سنحت فرصة نادرة لم يتوان ابن عمار عن انتهازها ، فقد تمرد أحد قواد الحصون المنيعة في إمارة سرقسطة على المؤتمن . وكان من معارف

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٨٢

(٢) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٢٥٨

ابن عمار ، فاقترح ابن عمار على الأمير أن يكفيه شره ويعيد الحصن إلى الطاعة والخضوع . ففسح المؤمن المجال لابن عمار لإبداء دهائه وبراعته في هذا الأمر ، فلم يطلب منه شاعرا غير عدد قليل من الجنود سار على رأسها إلى الجبل الوعر حيث يقوم الحصن المنيع .

وكان ابن عمار يعرف عن صاحب الحصن الشيء الكثير ، يعرف أنه عنيد ، وأنه الحاكم الوحيد في الحصن وأن لا أحد غيره ينازعه القيادة ويجرأ على طلبها . واستنادا على معلوماته هذه وضع خطته . فما كان يصل مع جنوده أمام هذا الحصن حتى طلب مفاوضة قائده ، فوافق صاحب الحصن اعتمادا على سابق المعرفة بينهما . على أن يذهب ابن عمار نفسه إلى الحصن ، فوافق ابن عمار على ذلك وذهب مع اثنين من رجاله الأشداء .

فارتقى حتى وصل الباب ففتح له ودخل القلعة المنيعة . وكان قد أوصى رجله بأن يهجم على قائد الحصن حالما يمسك بيده ، ويقتلاه ، وحدث هذا ، إن ما كان يتقدم القائد لإستقبال ابن عمار صديقه القديم حتى هجم الرجلان عليه وأوسعاه طعنا فسقط مخرجا بدماؤه قبل أن ينتبه أتباعه من المفاجأة فيتدخلوا لضمهم وإيقافهم . ولكن فات أوان التدخل ،

فبهت الجميع ووقفوا حائرين ولم يجدوا بدا من طلب الأمان من ابن عمار لأنفسهم فضمهم إياه ، وعاد الحصن خاضعا للمؤمن ، فسر بذلك وأعجب بدهاه ابن عمار ومكره (١) وحسب ابن عمار أن محنته انتهت ، وأن أبوابا من الأمل تفتحت أمام عينيه . وكان المؤمن نفسه يرجوه منذ آواه ، ليستطيع الاستفادة منه واستغلال مواهبه لتنفيذ أغراضه ، لذا ما كان ابن عمار يقترح على المؤمن ويتعهد له بإخضاع قلعة شقورة (٢) المحصنة بأسلوبه الخاص حتى وافقه الملك على ذلك وأرسله مع جيش صغير لتحقيق هذا الغرض

(١) دوزى : ملوك الطوائف ، ص ٢٥٩ / علي أدهم : المعتمد بن

عباد ص ١٧٢

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٩ .

وقلعة شقورة هذه القائمة على قمة جبل وعمر بقيت مستقلة بعد أن استولى
المقتدر بن هود على مملكة علي بن مجاهد العامري أمير دانية . وكان يحكمها
أحد أبناء علي المسمى سراج الدولة ، ثم تولى إدارتها بعد موته بنو سهيل
الذين كانوا يشرفون على تربية أولاده الصغار ، وكان بنو سهيل يرغبون في
بيع القلعة إلى أحد الأمراء المجاورين ، ولكن ابن عمار وعد المؤتمن بأنه
سيحصل عليها بأيسر سبيل .

سار ابن عمار إلى الحصن يقود كتيبة صغيرة من الجند ، وما كاد يصل إلى
القلعة الشامخة حتى طلب من بني سهيل أن يأنذروا له بمقابلتهم مصمما
كما بيدو على أن يستعمل الأسلوب نفسه الذي لجأ إليه في الحصن السابق .
ولكن حدث في هذه المرة ما لم يكن يتوقعه الشاعر المخامر (١)
إذ ما كاد يصل باب الحصن مع تابعيه ويسحب هو أولا لمدخله المرتفع حتى
ألقي جنود القلعة القبض عليه وأنذروا صاحبيه اللذين فرّا هاربين ليحولار
بجنود سرقسطة من حيث أتوا بعد أن يئسوا من إنقاذه . أما هو فسيق
مقيدا إلى بني سهيل الذين كانوا يحقدون عليه لإبتيات هجاءهم بها قبل
ذلك بوقت قصير ، فألقوا به في السجن (٢) ووجدوا فيه غنيمة باردة
قد تدر عليهم الريح الوفير .

ابن عمار في سجن شقورة

=====

(٣) لقد حدث القبض على ابن عمار في شقورة في ربيع الأول من عام ٤٧٧ هـ
ولهذا التاريخ أهمية خاصة إذ أنه يحدد نهاية النشاط السياسي لابن
عمار ولكنه في الوقت نفسه يشير إلى ابتداء فترة أدبية خصبة في حياته رغم
قصرها .

فلما رأى ابن عمار ما آل إليه في سجن شقورة ، طلب من صاحب الحصن وكان

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٤٩

(٢) نفس المصدر ص ١٥٠

(٣) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٨٢

يدعى ابن المبارك أن يعرضه على ملوك الأندلس قائلا له : لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك وتعرضني عليهم فها منهم إلا يرغب في (١) فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالا ووجهت بي إليه ! ففعل ابن المبارك ذلك ، فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه - وكتب فيمن كتب إلى المعتمد . وفي ذلك يقول ابن عمار :

أصبحتُ في السوق يُنادى علي رأسي بأنواعٍ من المالِ
واللوما جاز على ماله من ضنني بالثمن الغالي ! (٢)

فلم يكن بين أمراء الأندلس من يرغب في منافسة المعتمد بن عباد في هذا المضمار ، كما لم يكن في أخلاق ابن عمار وماضيه ما يشجعهم على اصطناعه والاستفادة من خدماته وأدرك هو هذه الحقيقة بعد أن فشل في استنجاد الأصدقاء . فقد كتب إلى صديقه القديم الفضل بن حسداى قصيدة يصف له فيها حالته البائسة الشقية وافتقاده الأصدقاء .

أدرك أخاك ولو بقافية كالظلم يوقظ نائم الزهر
فلقد تقاذفت الركاب به في غير مؤما ولا بحر !
طفت صحابته بلا سنة وتساقطوا سكرًا بلا خمير
ثم ينتقل إلى وصف قلعة شقورة المنيع التي يسجن فيها فقال :
بمعارج أدت إلى جرد حتى من الأنواء والقطر
عال كأن الجن إن مرد جعلته مرقاه إلى النسر
وحش تناكرت الوجوه به حتى استربت بصفحة البدر
ملكش عنان الريح راحتته فجيادها من تحته تجوى (٣)

وفي هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعى نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعى موسى فأتى بها فقال في ذلك :

بؤسي شقورة عندي أربي على كل بؤسي

(١) عبدالواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٨٣

(٢) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٣٩٠

(٣) ابن خاقان : قلائد الحقيان ، ص ٩٢

فقدت هارون فيها فظلت أطلب "موسى" (١)

وهكذا وقع ابن عمار أسيرا في يد أعدائه من بني سهيل الذين اعتقلوه في الحصن وأودعوه غيابات السجن لا خلاص له منه . وبقي على سوم الشراء حتى اشتراه المعتمد وأرسل ابنه الراضي في جماعة من الحرس لأخذه من صاحب شقورة ، فقاده إليه في حالة مزرية مكبلا بالأغلال ، بل واشترى القلعة نفسها منهم ، (٢) ولم تجد الأبيات التي نظمها في مدح الراضي (٣) عند قدومه شيئا في استشارة عطفه ورحمته .

ابن عمار في سجن إشبيلية
=====

بعث المعتمد على الله من تسلّم ابن عمار من يد ابن المبارك ، بعد أن بعث إليه بقال وخيل . وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه ، على بغل بين عدلي تبين ، وقيوده ظاهرة للناس ، وقد أمر المعتمد باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقد كان ابن عمار إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم وروّسائهم ، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده (٤) أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم لا يصل إلا إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه ، فسبحان محيل الأحوال ومدّيل الدول ! دخل ابن عمار قرطبة ، بعد الحزة القعساء والملك الشامخ والرياسة الفارعة ذليلا خائفا فقيرا لا يملك إلا ثوبه الذي عليه ، فسبحان من سلبه ما وهبه . ومنعه ما كان به أمتعته .

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٨٣

(٢) دوزى : ملوك الطوائف ، ص ٢٦٠

(٣) ديوان ابن عمار : " قصيدة ٧٢ " / ابن الأبار : الحلة السيرا ، ج ٢ ص ١٥١

(٤) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٨٣ / دوزى : ملوك الطوائف ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤

وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال :
 "لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارس من البلد يركض
 يقصدنا فلما رآه ابن عمّار وكان معتما أزال الحماطة عن رأسه ، فجاء الفارس
 حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمّار ودخل معنا في الصف فمشى ، فسألناه
 فم جاء ؟ فقال الذي جئت فيه صنعته هذا الرجل قبل أن أصل إليه !
 فصلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته .

أدخل ابن عمّار على المعتمد ، يرسف في قيوده ، فجعل المعتمد يمدد
 عليه أياديه ونعمه ، وابن عمّار في ذلك كله مطرق لا ينبس ، إلى أن انقضى
 كلام المعتمد ، فكان من جواب ابن عمّار أن قال : ما أنكر شيئا مما يذكره
 مولانا أبقاه الله . ولو أنكرته لشهدت عليّ به الجمادات فضلا عما ينطق ،
 ولكني عثرت فأقل ، وزلت فاصفح ! فقال المعتمد : هيهات ، إنها عشرة لا
 تقال ! (١) وأمر به فأحدر في النهر إلى إشبيلية فدخل به إلى إشبيلية
 على الحال التي دخل عليها قرطبة ، وجعل على باب قصر المعتمد المعروف
 بالمبارك فطال سجنه هناك .

وكتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توسل بها إلى الدهر لنزع عن
 جوره أو إلى الفلك لكفّ عن دوره ، فكانت رقى لم تتجع ، ودعوات لم تسمع ،
 وتمايم لم تنفع (٢) فمنها قوله :

سجايك إن عافيت أندى وأسمحُ وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضحُ
 وإن كان بين الخطتين مزيةُ فأنت إلى الأدنى من الله أجنحُ
 حنانيك في أخذى برأيك لا تطعُ عداتي وإن أشتوا عليّ وأفصحوا
 وإن رجائي أن عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرحُ
 ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمةً يكرّان في ليل الخطايا فيصبح ؟
 وهبني قد أعقت أعمال مفسدٍ أما تفسد الأعمال ثمّة تصلح ؟
 أقلني بما بيني وبينك من رضى له نحر روح الله باب مفتوحُ

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٨٤

(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٥

وعف على آثار جرم جنيتته بهبة رضى منك تمحو وتمصرح
ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم
إلى أن يقول :

وبين ضلوعي من هواه تميمه ستفعل لو أن الحمام مجلج (١)

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة كان بحضرته أحد الأدباء القادمين
من بغداد ، فجعل يزرى بالبیت الذى ختم به ابن عمار قصيدته ويقول " ما
أراد بهذا المعنى ؟ " فكان رد المعتمد عليه أن قال : " أما لئن
سلبه الله المروءة والوفاء لما أعدمه الغطنة والذكاء ، وإنما نظر إلى بيت
الهدلي من طرف خفي وهو :

وإذا الضية أنشبت أظفارها ألفت كل تميم لا تنفع (٢)

على أن تضرع ابن عمار لم يوءثر في مليكه الصارم ، ولم تجد الرحمة سبيلا
إلى قلبه (٣) على رغم كثرة الشفاعات التي كانت ترد إليه من مختلف
الجهات للمفو عن ابن عمار .

=
=
=

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٧٦ " / ابن بسام : الذخيرة قسم ٢ ص ٢٦٦

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٦٧

(٣) محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) ص ٩٦

مصرع ابن عمار

=====

ولم يزل ابن عمار في سجن المعتد بن عباد إلى أن قتله سنة ٤٧٧هـ (١)
ويقول المراكشي في المعجب إن مصرع ابن عمار وقع في سنة ٤٧٩هـ (٢)
والأرجح أنه قتل على يد المعتد بن عباد سنة ٤٧٧هـ وإلى هذا
يشير معظم المؤرخين الذين تحدثوا عن هذه الفاجعة الأليمة التي
ختمت بها حياة ابن عمار .

وكان أقوى الأسباب في قتله أنه هجا المعتد بشعر ذكر فيه أم بنيهِ
المعروفة باعتماد الرميكية (٣) واعتماد هذه هي التي أوغرت صدر المعتد
على قتل ابن عمار لكونه هجاها ، وكان ابن عمار قد أكثر من خصومه
لكثرة دسائسه واشتغاله بالفتنة ، واتهم أيضا أيام استبداده بمرسية
بموالاته للاندلس ملك قشتالة .

وكان من أشد الناس تحريضا للمعتد على صديقه القديم غير الوفي ،
أبو بكر بن زيدون ابن الشاعر المعروف أبو الوليد بن زيدون (٤) .
ومن جملة ذنوب ابن عمار عند المعتد ما بلغه عنه من هجائه
وهجاء أبيه المعتد بن عباد في بيتين كانا من أكبر أسباب قتله وهما : (٥)
مما يرّهدني في أرض أندلسٍ تلقيبٌ معتدٍ فيها ومعتدٍ
ألقابٌ مملكةٍ في غير موضعها كالهريحي إنتفاخاً صولة الأسد
والبيتان لابن رشيق القيرواني ، ولعل ابن عمار تمثل بهما فنسبت إليه .
وعلى كل اجتمعت العوامل السياسية والشخصية ، لتؤكد محنة ابن عمار .

(١) صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ /

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٥٣ . ابن العماد : شذرات

الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٥٦ .

(٢) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٨٧

(٣) انظر ص ١٤٨ - ص ١٤٩ من هذه الرسالة

(٤) محمد رضوان الداية : مختارات من الشعر الأندلسي ، ص ٨٤

(٥) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٩٩ / ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤

وتلخيص خبر قتله ، أنه لما طال سجنه كتب للمعتمد بالقصيدة التي مطلعها :

سجايك إن عافيت أندى وأسمح وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

فأدركت المعتمد بعض الرقة ، فوجه إليه ليلاً وهو في بعض مجالس أنسه

فأتي به يرسف في قيوده ، فجعل المعتمد يعدد منه عليه وأياديه قبله ،

فلم يكن لابن عمّار جواب ولا عذر ، غير أنه أخذ في البكاء ، وجعل يترقق

للمعتمد ويمسح عطفه ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له

الرأفة في قلب المعتمد ، فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعطفت المعتمد

عليه سابقته وقديم حرمة ، فقال له قولا يتضمن العفو عنه تعريضاً لا تصريحاً (١)

وأمر برده إلى محبسه . فكتب ابن عمّار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى

ابنه الراضي بالله فوافاه الكتاب وحضرته قوم كان بينهم وبين ابن عمّار

إحسان قديمة ، فلما قرأ الراضي الكتاب قال لهم : ما أرى ابن عمّار إلا

سيخلص ، فقالوا له : ومن أين علم مولانا بذلك ؟ فقال : هذا كتاب ابن

عمّار يخبرني فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص ، فظهر القوم

الفرح وهم يبطنون غيره .

فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا حديث ابن عمّار أقبح نشر وزادوا

فيه زيادات قبيحة فبلغ المعتمد ذلك ، فأرسل إلى ابن عمّار وقال له :

هل أخبرت أحداً بما كان بيني وبينك الباردة ؟

فأنكر ابن عمّار كل الإنكار ، فقال المعتمد للرسول قل له ، الورقتان اللتان

استدعيتهما ، كتبت في إحداهما فما فعلت بالأخرى ؟ (٢)

فادعى أنه بيض فيها القصيدة ، فقال المعتمد : هلم المسودة ! فلم

يجد جواباً . فخرج المعتمد حنقاً وبيده الطبرزين (٣) حتى صعد الغرفة

التي فيها ابن عمّار ، فلما رآه ابن عمّار علم أنه قاتله لا محالة ، فجعل

ابن عمّار يزحف وقيوده تثقله ، حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما ،

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٨٧

(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٧

(٣) الطبرزين : آلة حادة أشبه بالبلطة

والمعتمد لا يثنيه شيء ، فعلا به بالطبرزين الذي في يده ، ولم يزل يضربه
به حتى برد ورجع إلى الرميكية وقال لها : " قد تركته كالمهدد " (١)
ورجع المعتمد فأمر بفسله وتكفينه ، وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك .
وكان مصرع ابن عمار على هذا النحو المؤسي في أواخر سنة ٤٧٧ هـ
أوائل (١٠٨٥ م) . ورثاه صديقه الشاعر ابن وهبون المرسى بأبيات
منها :

لله من أبكيه ملء مدامعي وأقول لا شئت يمين القاتل (٢)
هكذا كانت خاتمة ابن عمار ، وكان لهذه الفاجعة الأليمة والمأساة
الدامية دوى شديد في مختلف الأندلس ظل حيناً من الزمن حتى
غلبت عليه حوادث أشد خطورة وأسوأ عاقبة وأجل شأناً ألا وهي حركة
الاسترداد الأسبانية .

=
=
=

(١) ابن سمييد المقرئ : المصرب في حل المصرب ج ١ ، ص ٣٩١

(٢) ابن بسام : الفخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٧٣

أحكام المؤرخين المسلمين على ابن عمّار

=====

لقد كانت أحكام مؤرخي الأندلس المسلمين على ابن عمّار على وجه العموم قاسية ، فمعظمهم وسمه بالخيانة والغدر واتهمه بخدمة المسيحيين والتمرغ على أعتاب الألفونس فابن خاقان قال عنه " إنه اصطفاه العدو فانفق به السكون والهدوء ، وتهالك فيه كلفا وهياما وأمطر من الحظوة غماما " (١) ثم يقول متحدثا عن نهايته " فأخذه الله بغدره ، وأعان على وضعه رافع قدره " (٢) وقد رد ابن سميد في المغرب (٣) ما قاله ابن خاقان ، ويقول عبدالله بن بلقين ملك غرناطة وهو معاصر لابن عمّار وعليم بأهوائه وأخلاقه " فإنه بقسوته كان يتكبر على أولاد المعتمد ، ويضيق عليهم ، ويسىء الصنيعة مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه ، والمعتمد في هذا كله يصبر له ، وإنه استمال النصارى ، واندخل معهم بحيلته ، فمتى ما دهم أمر من قبلهم ، وجه إليهم ، فينجلي من أمرهم ما يضيق الصدر به ، وكان ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيامه وهو بجهله يمتقد أن ذلك لا يتهيا إلا بسببه ، ويرد الحسن كله إلى نفسه ، حتى عقب عليه بما كان جديرا به ، وأمكنه الله منه ، وجازاه بما لم يكون له منه بد ولا رآه لغيره أهلا " (٤) ويرد ابن بسام كثيرا وصف ابن عمّار بأن " حب الرياسة في رأسه يدور " بل وأنه " قد تجاوز في طمعه بالرياسة طمع أشعب " (٥) ومثل هذه الآراء تفهم من حديث ابن الأبار حيث يقول " وهون على نفسه الغدر فأداه ذلك إلى رده ، وكان كالذى نفخ فوه وأوكت يده " (٦) .

(١) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٨٣

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٣

(٣) ابن سميد : المغرب في حلى المغرب ، ص ٣٨٩

(٤) الأمير عبدالله بن زيرى : التبيان ، ص ٨١

(٥) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٥٥

(٦) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٣٤

ولم نر مؤرخا دافع عنه ولا مالمعتمد على قتله سوى لسان الدين بن الخطيب
في كتابه " أعمال الأعلام " .

ويعلق على خبر قتله ابن الخطيب وقد كان من الوزراء الذين عرفوا نزعات
الطوك ونقمتهم بقوله " سبحان الذي جعل نفوس أكثر الطوك تنقاد في أزمة
حب التشفي ، وطلب الإنصاف ، فلا تتوقف في مطاوعته ، وذلك لأنها نفوس
غير مقهورة بالرياضة والملكات ، ولا مرغبة بفراق الشهوات ، إلا القليل النادر ،
فمن كانت نفسه متصفة بالرحمة في أصل جبلتها ، فهي ساكنة الفورة " (١)
وعلى رغم هذا السخط الذي أبداه المؤرخون على ابن عمار نراهم جميعا
يعدونه شاعرا قديرا بل يعدونه في الطبقة الأولى من الشعراء الأندلسيين .
لقد كان إنتاجه الأدبي ينسجم تماما مع ذوق المدة التي عاش فيها والقرون
التي تلتها ، فقد جمع كل ما كان معاصروه يتطلبونه من الشاعر . قال
عنه صاحب المعجب " ولم ألف أحدا ممن أدركته سني من أهل الآداب
الذين أخذت عنهم إلا رأيته مقدما له مؤثرا لشعره . (٢)
وقال عنه ابن خاقان في قلائده إنه " كان مع نقص إبراهيم ، ورفض
إمامه شاعرا مطبوعا ، قد عمل للاحسان منازل وريوعا (٣) وقال ابن بسام
في كتابه الذخيرة " إن شعره غرب وشرق ، وأشأم في نغم الهداة
وعلى السنة الرواة وأغرق ، ولا جرم فإنه كان ساحرا لا يجارى وشاعرا لا يبارى " (٤)
وهذه العناية بسيرة ابن عمار وثرائه الشعري من معاصريه وتدل على
أهمية هذه الشخصية البارزة في تاريخ طوك الطوائف ، وعن رفيع
مكانتها السياسية والأدبية .

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٦٢

(٢) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٦٩

(٣) ابن خاقان : قلائد الحقيان ، ص ٨٤

(٤) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٣٥

الباب الثالث

=====

= شمره =

الفصل الأول

=====

= ديوانه

= منزلته الشعرية

ديوانه

=====

لدينا من المعلومات ما يشير إلى أن ديوان ابن عمار كان كثير الانتشار في الأندلس بعد وفاته (١) ولكن هذه المعلومات بالإضافة إلى الظروف العصية التي أحاطت بموت الشاعر لا تسمح لنا بالقول بأن الشاعر قام بجمع ديوانه بنفسه قبل مصرعه ، وأول من وصلت إلينا أخبارهم من هؤلاء الأديباء هو أبو القاسم محمد بن يوسف الشلبي من معاصري ابن عمار وأهل بلده ، فقد كتب هذا المؤلف كتابا خاصا عن المعتمد بن عباد ويبدو أنه خصص قسما مهما من هذه الدراسة لابن عمار وأعماله وشعره ، فابن الأبار الذي كتب فصلا مهما جدا عن حياة الشاعر وشعره (٢) في كتابه " الحلة السيرة " يقول إنه اعتمد في ما نقله من أخبار عن الشاعر الوزير على كتاب أبي القاسم الشلبي هذا ولكن عدا ما نقله ابن الأبار لا نعلم شيئا عن هذا الكتاب .

وبعد مرور ما يقرب من عشرين عاما على مصرع الشاعر ، اهتم المؤرخ الأندلسي المعروف بابن بسام به ، ونعرف أنه كتب في أخباره وشعره كتابا سماه نخبة الاختيار في أشعار ذي الوزارتين ابن عمار (٣) ويبدو أن هذا الكتاب لم يقتصر على أشعار ابن عمار فحسب وإنما هوى قسما من أخباره ولكن كتاب ابن بسام هذا مع الأسف لم يصل إلى أيدينا هو أيضا ، إلا أنه وصلنا كتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " الذي وقف فصلا مهما منه على أشعار الشاعر وأخباره (٤) وبعد ابن بسام بقليل جاء الأديب الفتح ابن خاقان فخصص هو أيضا فصلا من كتابه " قلائد العقيان " للشاعر فذكر منتخبات من شعره وطائفة من أخباره .

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٦٩

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٣٤ - ١٦٥

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ص ٣٠٣

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٣٥ - ٢٧٥

ولا بد أن نضم إلى هذه المصادر الرئيسية عن ابن عمار أهم مؤلف عن شعره ، وهو كتاب أبي الطاهر محمد بن يوسف التميمي فقد بذل هذا الكاتب جهده في جمع قصائد الشاعر ومقطوعاته وأبياته باحثاً عنها كما يقول ابن الأثير من مظاهرها .^(١)

ويبدو أن الوريقات الأربع عشرة الممزقة التي استخرجت من أنقاض مكتبة جامع القرويين هي كل ما نعرفه من بقايا هذا الكتاب (٢) نعتقد أن هذه المصادر الرئيسية لشعر ابن عمار هي التي اعتمد عليها المؤرخون الذين جاءوا بعد ذلك . وربما أنها لم تصل كلها إلى أيدينا . كانت المؤلفات التي كتبت بعد ذلك معتمدة على هذه المصادر وهي ذات أهمية كبيرة لنا في الإطلاع على شعر ابن عمار ولا سيما كتاب الحلة السيرة الذي اعتمد فيه مؤلفه عند كتابته عن ابن عمار على كتب أبي القاسم الشلبي وابن بسام وأبي الطاهر التميمي .

ولذلك فقد اعتمدنا حين دراستنا لشعر ابن عمار على جميع ما تيسر لنا من مصادر سواء كانت متقدمة أم متأخرة وقد ساعدنا وذلك الصعوبات التي واجهتنا ما جمعه الدكتور صلاح خالص من شعر ابن عمار باسم ديوان ابن عمار وطبعه في بغداد سنة ١٩٥٧ م وقد اعتمد الدكتور صلاح خالص على المخطوطات المنتشرة في مختلف مكتبات العالم وخاصة مكتبة جامع القرويين في فاس حيث توجد الوريقات الممزقة والتي تأكلت من الحشرات وهي المتبقية من ديوان شاعرنا . وقد كنا نعود بين الحين والآخر إلى الكتب المطبوعة ككتاب " الحلة السيرة " لابن الأثير والمعجب للمراكشي وكتاب القلائد لابن خاقان ، ونفع الطيب للمقرئ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب والمغرب لابن سعيد ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، والمطرب في أشعار أهل المغرب لابن دحية بالإضافة إلى مخطوطة الذخيرة القسم الثاني حيث أورد ابن بسام ترجمة لشاعرنا كأحد

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، قسم ٢ ، ص ١٣٤

(٢) صلاح خالص : محمد بن عمار ، ص ١٧٦

شعراء غرب الأندلس . وعلى رغم ما اطلعنا عليه بعيد جدا من أن يكون كل شعرا بن عمّار بل ولا أكثره فإنه يسمح لنا بمتابعة تطور ابن عمّار منذ لقائه ببلاط بني عباد وحتى مصرعه ، أما إنتاجه قبل هذا اللقاء فليس لدينا منه شيء فقد أحرقه الشاعر بنفسه (١) ويبدو أنه لا قيمة لهذا الشعر الفنية ولا مركز ابن عمّار المتواضع في تلك الفترة دفعت مؤرخي الأدب إلى الاحتفاظ به ونقله إلينا .

ولدينا ما نظمه الشاعر في حكم المعتمد بضع قصائد طويلة ، أما ما نظمه في حكم المعتمد فليس لدينا منه سوى مقطوعات قصيرة نظمت في مناسبات مختلفة ، لا نعتقد أنها ذات قيمة أدبية كبيرة .

ولكن أحسن ما وقع بين أيدينا من شعرا بن عمّار هو ما نظمه في المدة الأخيرة من حياته ولا سيما أثناء مقامه في سجن المعتمد ، إذ وجدنا في هذه المدة من حياته قصائد طويلة جيدة جدية بكل إهتمام وتقدير .

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٣٤

منزلة الشعرية

=====

كان ابن عمار شاعر الأندلس غير منازع (١) واكب حياة بلاده في عصر ملوك الطوائف ، إلى أن فارقت روحه جسده على يد صديق عمره المعتمد بن عباد ، عاصر الأحداث واشترك فيها وتقلب معها ، وتجاوبت أصداءها في نفسه تجاوبا عنيفا وهو يرى بلاده فريسة يطمع فيها ملك قشتالة ، فعمل ما في وسعه بذكائه حتى رد الأندلس عن إشبيلية ، فكان مثالا للسياسي البارع المحنك الحارف بمصالح شعبه غيلة توليه وزارة المعتمد بن عباد في إشبيلية . حتى أن الباحث المدقق يستطيع أن يوضح كثيرا من الأحداث السياسية والاجتماعية في عصر ملوك الطوائف من خلال شعره .

وقد كان شعره صورة صادقة معبرة عن نفسيته سواء في قمة مجده أو محنته وسجنه مع تنوع ألوانه وفنونه الشعرية ، فكان في كل ذلك رساما مبدعا .

ولطالما أكثر من استعطافه للمعتمد بشعر كان يرسله من ذوب نفسه ،

إرسالا لا تكلف فيه ولا اصطناع ، فجاء شعره سلس العبارة إجمالا ، سائخ اللفظ ، وريشته قادرة على التصرف بالمعاني ورسم الصور المبتكرة ، وتأليف اللوحة بالخطوط الزاهية ، والألوان التي تجمع بين الانطباعات الشعورية الوجدانية ، وبين معالم الموضوع ، كما تلتقطه عدسة الرؤية من البيئة الطبيعية في محيطه الأندلسي المشرق ومن مجالس لهوه وأنسه .

ولا ريب فقائده محببة للنفس سواء في مدحه أم وصفه أو غزله ، إنه أحد شعراء الطبقة الأولى في الأندلس على قلة في الكم وجودة في النوع .

فضلا على أنه بين شعراء القصور من أكثرهم استقلالا وأوفرهم شخصية وأقربهم إلى التفرد بطابع خاص مميز .

ففي مدحه ، له أسلوب خاص بتصوير المعاني وترتيبها ، يعرض صوراً مختلفة من الأخيلة التي كانت معروفة في الأندلس بعبارة سهلة رشيقة ، كما في قصيدته الدالية التي مدح بها المعتمد وهي تدل على مقدار ملكة الشعر

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٣٤

وقوتها في نفسه ، وأنه شاعر بفطرته ، يشعر بجمال القول ، ويعرف كيف يصل إلى إقتناص المعاني الجميلة ويصيفها في أسلوب جميل ، وخيال جميل ورقة في الذوق ، وكأننا نقرأ كلاما معثورا لا شعرا منظوما ، وكأننا نسمع نغمات الأوتار ، أو رنات المثنى أو حفيف الأشجار والنسيم يداعبها ، ونحن أننا في روض تفتحت فيه الأزهار ، ومالت علينا ظلال الأشجار ، وكأننا نرى كتابا مفتوحا سطرت فيه حياة المعتضد أو مرآة تنعكس فيها أعماله ، أو مصورا يرسم بالقلم والبيان لا بالريشة والألوان كما قال من قصيدة في مدح المعتضد مطلعها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرّت الليل منا العنبر
ومن هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

شقيث بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود وإن تسموا بربرا
أثمرت رحك من رؤوس كما تهم لما رأيت الفصن يعشق مشرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحمر
ماضي وصد الرمح يكمهم والطبا تنبو وأيدى الخيل تعثر في البرى
قاد الكتائب كالكوكب فوقهم من لا مهم مثل السحاب كهمورا
من كل أبيض قد تقلد أبيضاً عضباً وأسمر قد تأبط أسمر
ملك يروك خلقه أو خلقه كالروض يحسن منظرا أو خيرا (١)

وكان ابن عمار يتخذ الشعر وسيلة للتعبير عن كل شيء فلم تكن تمر به حادثة من الحوادث إلا ذكرها في شعره ، فكان إذا أراد أن يشكو ، شكا في شعره ، وإذا أراد أن يذكر خبرا ذكره في شعره ، وكأنما كان شعره صحيفة من صحفه اليومية .

ويخيل إلى من يقرأ شعره أن المعاني كانت تنهال عليه إنهيالا ، أو

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ١ " / المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢

أن الشعر صقل لسانه وتمكن منه ، حتى أصبح لا يقول إلا شعرا ، ولا يقدر على التعبير إلا بنظم المعاني ، أو أن الشعر كان عنده كالنثر في سهولة التعبير وأكثره خال من الخيالات الشعرية ، ولكنه يحسب من صميم الشعر لأن به جمال الشعر وهو امتلاك النفوس بهذه العبارات السهلة ، وإعجاب الإنسان بزلاقة لسانه وتناسق ديباجته .

إن ليس كل شعر خيالا ، وليست بهجة الشعر وصناعته محصورة في الخيال . من تشبيه حسن أو كناية عجيبة أو مجاز غريب . فقد يكون الشعر معرفة التعبير عما في النفس وكشف ما بها وحسب الشاعر أن يصل بعبارته إلى امتلاك الأسماع وإعجاب النفوس بقوله ، وليس الشعر غير ذلك كقوله من قصيدة إلى المعتمد عندما سجن ابنه الرشيد على يد ريموند :

أَرْكَبُ قَصْدِي أَمْ أَعُوجُ مَعَ الرِّكْبِ فَقَدْ صَرْتُ مِنْ أَمْرِي عَلَى مَرْكَبٍ صَعْبٍ ؟
وَأَصْبَحْتُ لَا أَدْرِي أَفِي الْبُعْدِ رَاحَتِي فَأَجْعَلُهُ حَظِي أَمْ الْخَيْرُ فِي الْقُرْبِ
عَلَى أَنْتِي أَدْرِي بِأَنْكَ مُؤَثِّرٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، مَا يَزْهَجُ مِنْ كَوْبِي
أُيْظَلِّمُ فِي عَيْنِي كَذَا قَمَرُ الدَّجَى وَتَبْنُو بِكَفِي شَفْرَةِ الصَّارِمِ الْمَضْبِ ؟
حَنَانِيكَ فِيمَنْ أَنْتَ شَاهِدٌ جَدِّهِ وَلَيْسَ لَهُ حَاشَا انْتِصَاحُكَ مِنْ حَسْبِ
وَمَا جِئْتُ شَيْئًا فِيهِ بَقِي لَطَالِبِ يَضَافُ بِهِ رَأْيِي إِلَى الضَّعْفِ وَالْمُجْبِ
سَوَى أَنْتِي أَسْلَمْتَنِي لَطْمَةٍ فَلَلَّتْ بِهَا حَدَى وَكَسَّرَتْ مِنْ غَرْبِي
أَمَا إِنَّهُ لَوْلَا عَوَارِفُكَ التِّي جَرَتْ فِيَّ جَرَى الْمَاءِ فِي الْفَصَنِ الرُّطْبِ
لَمَا سُمْتُ نَفْسِي مَا أَسْوَمُ مِنَ الْآدَى وَلَا قَلْتُ إِنَّ الذَّنْبَ فِيمَا جَرَى ذَنْبِي
سَأَسْتَمْنِجُ الرُّحْمَى لَدَيْكَ ضِرَاعَةً وَأَسْأَلُ سُقْيَا مِنْ تَجَاوُزِكَ الْعَذْبِ
وَأَنْ نَفَعْتَنِي مِنْ سَمِّكَ حَرْجَفٌ سَأَهْتَفُ : يَا بَرَكَةَ النَّسِيمِ عَلَى قَلْبِي (١)

وكان لآلامه أثر عظيم في شعره ، فكانت قصائده في استعطاف المعتمد وسيلة من وسائل التعبير عن آرائه وخطرات نفسه ، وليس أرق في كلامه من

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٥٥ " / ابن الأبار : الحلة السيرة ،

استعطافه ، ولا أشد أثرا في النفس من كلامه حين تضيق في وجهه الدنيا
على رحبها فمن ذلك قوله في قصيدة يستعطف فيها المعتمد :

سجايك إن عافيت أُندي وأُسمحُ وعذركَ ، إن عاقبتَ أجلى وأوضحُ
وان كان بين الخطّتين مزيةٌ فأنت إلى الأدنى من الله أجحُ

إلى قوله :

وبين ضلوعي من دواه تميمه ستنتفع لو أن الحمام مجلجُ
سلامٌ عليه كيف دار به الهوى إليّ فيدنوا وعليّ فينحُ
ويهنيه إن متَّ السلوُ فإنني أموتُ ولي شوقٌ إليه مُبرِحُ (١)
وقال من قصيدة أخرى ، يصف سجنه لصديق له وكأنما هي أنة من
أنينه ولوعة من لوعاته :

أدرك أخاك ولو بقافيةٍ كالطلّ يوقظ نائم الزهرِ
فلقد تقاذفت الركاب به في غير مؤما ولا بحرٍ
طفحت صحابته بلا سنّةٍ وتساقطوا سكرابلا خمِرِ
بمارج أدت إلى جررٍ حتى من الأنواء والقطرِ
عال كأن الجن إن مردتْ جعلته مرقاةً إلى النسرِ
وحشٌّ تناكرت الوجوه به حتى استربت بصفحة البدرِ
قصرٌ تمهد بين خافقتي نشرين من فلك ومن وكرِ
متحير سال الوقار على عطفيه من كبرٍ ومن كبرِ
ملكك عنانَ الريح راحتَه فجيادها من تحتها تجرى
مأوى العزيز وقد نصحت فإن يهمل فقد أبلت في العذرِ
ووصلت خدمة قاطع سببي وأطعت أمر مضيع أُمري
دع ذا وصلنا غير مؤتمِرٍ مستأثرا بالحمد والشكرِ (٢)

(١) ابن خاقان : قلائد الحقيان ، ص ٩٨ / ابن الأثير : الحلة

السيراء ، ج ٢ ص ١٥٤

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة "٦٧" / ابن خاقان : قلائد الحقيان ص ٩٢

وله مدائح كثيرة في المعتضد وابنه المعتمد كلها من جميل القول .
وبالفعل لقد كانت مواهبه الشعرية ، ألمع ما في خلاله ، والقارىء المتمعن
لشعره ، يلمس ما في شعره من الرقة والمعاني الوجدانية ، وما له من
السهولة في الأسلوب ولا سيما خلوكلامه من المعاني الفلسفية ، فقد
قصر شعره على الوجدانيات في شكواه وبثآلامه .
فليس هو من الشعراء المفكرين ، ولا ممن كانت للتربية العلمية أثر
في نفوسهم وكأنه لم يطلع على شيء سوى أوزان الشعر وعبارات البلغاء
حتى امتلأت نفسه من ذلك ، وما إلى قول الشعر ، فأصبح من أكبر
الشعراء الوجدانيين .

= =

=

الفصل الثاني

= فنونه الشعرية

= الممدح

= الوصف

= الفزل

= الهجاء

= الشكوى والإستعطاف

= فنون أخرى

فنونه الشعرية

=====

كان الشعر هو النافذة التي أطل منها ابن عمار ، على الحياة فقد تفجرت بواكير شاعريته وهو شاب يجوب ممالك الأندلس بحثا عن لقمة العيش ، ومنذ ذلك الحين ألع بالشعر فأنهضه بعد خموله ، فجاء شعره ترجمة صادقة لإحساسه المرهف في مختلف أطوار حياته وقد مر شعره في ثلاث مراحل : -

المرحلة الأولى : باكورة إنتاجه أثناء تنقلاته بين ممالك الأندلس يسترفد العطاء ويتخذ وسيلة للتكسب به ، فكان يمدح كل من وصله ، مهما كانت مكانته أو مركزه (١) .

وهذه المرحلة لم نعثر فيها على شيء من شعره ويبدو أنه لا قيمة هذا الشعر ولا مركز ابن عمار المتواضع في تلك الفترة دفعت مؤرخي الأدب إلى الاحتفاظ به ونقله إلينا وقد أورد ابن الأثير في الحلة السيرة أنه أحرقه ومحا آثاره ، فما يوقف منها اليوم على شيء سوى أمداحه في المعتضد بن عباد ، وما لا اعتبار به لنزوره (٢) .

المرحلة الثانية : في ظل بلاط بني عباد حيث اتخذ شعره طابعا من الرسميات ، يمدح به الملوك فكانت الرائية هي قصيدته الأولى في مدح المعتضد ملك إشبيلية وولي عهده إسماعيل ومن ثم مقطوعاته في مدح صديق عمره وولي نعمته المعتمد بن عباد وهذه المدة إحدى مدتين خصبت فيهما قريحة الشاعر وجادت بخير ما لدينا من شعره .

المرحلة الثالثة : تتمثل في مدة مهنته وسجنه في شقورة وإشبيلية وهي مرحلة يبلغ فيها شعره أوج قوته ويأتي ترجمة صادقة لإحساسه والآفة ولقد نظم شاعرنا في فنون شتى نظم في المدح والهجاء والغزل والوصف والفخر والإستعطاف ، وكان أبرز هذه الفنون جميعها المدح والإستعطاف ،

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٢٣

(٢) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٣٤

حيث يحتلان ثلثي إنتاج شاعرنا والثلث الباقي في فنون مختلفة كانت تستجد على الشاعر حسب ظروفه المتغيرة .

ولا نستطيع أن نتحدث عن أدب أدب ، قبل أن نعرف هذا الأدب ونحصره حصرا دقيقا ونطمنن على أصالة روايته وبعد هذا نستطيع أن نقوم بدراسة فنية دقيقة لهذه الآثار .

وإذا أردنا أن نطبق هذا على شاعرنا ابن عمّار فإننا نصادف عنا كثيرا لأن آثاره الأدبية لم تصلنا كاملة ولا مضبوطة شأنها في هذا شأن كثير من مصادر الآداب الأندلسية في شتى العصور ، ونحن نعرف أنه كان شاعرا وسياسيا وإداريا ، ولكن معظم آثاره عدا عليها الزمان ، وما بقي اعترته عوامل الاضطراب والتخريف ، فقد كان سفيرا للمعتمد لدى الأثفونس ولكننا للأسف لم نقع على كلمة من كلماته لدى القصور التي كان يقصدها ولا ردا على خطبة كان يسميها ، ولكن يظهر لنا من أشعاره أنه أرسل عدة رسائل في العتاب لخطبها من جيد شعره . ومهما يكن من أمر فقصاده لم يبق منها إلا القليل حفظتها لنا الذخيرة والحلة السيرة والقلائد وخريدة القصر .

وهذه القصائد تمثل أزهى مراحل ابن عمّار إذ أنها تكشف بجلاء عن حياته منذ اتصاله بالبلاط المهادي حتى مصرعه عام ٤٧٧ هـ . وعلى رغم ندرة شعره الذي بين أيدينا فإنه يمثل معظم الفنون التي شاعت في عصره وسنتناول هذه الفنون بالتفصيل والنقد البناء وأعطي شاعرنا ماله وما عليه حتى يحتل مكانه الذي يليق به بين شعراء الأندلس في عصره .

المدح

=====

نظم الأندلسيون المدائح وأكثروا فيها حتى أن بعض كبار شعرائهم من أمثال ابن عمار وابن درّاج القسطلي ، وابن حمديس الصقلي ، قد خرج معظم شعرهم في المديح ، ومعظم مدائحهم موجهة إلى أمراء الأندلس وطلوكه وخلفائه ، وإنها من حيث المضمون أو المحتوى لها جانبان : جانب يخلع الشاعر الصفات التقليدية على المدوح من صفات المروءة والشجاعة والكرم أما الجانب الآخر فيدور حول انتصارات المدوحين التي تعد نصراً للإسلام والمسلمين ، ويدخل في ذلك أحياناً وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية . أما طرائقهم في بناء قصائد المدح ، فإنها تختلف من شاعر إلى آخر ، فمنهم من يبنى قصيدته على موضوع المدح وحده ، ومنهم من يبنيتها على موضوعين فيستهلها بالفزل أو وصف الطبيعة أو وصف مجالس الأئس أو الشكوى ، ثم يخرج إلى المدح ، ومنهم من يبنيتها على ثلاثة موضوعات ، فيستهلها بأثنين من الموضوعات السابقة ، وحتى إذا بلغ غايته منهما انتقل إلى المدح . (١)

وقد نهج شاعرنا هذه السبيل فأحياناً يستهل قصائده في المدح بوصف الطبيعة وأحياناً بوصف مجلس الطرب والخمر وأحياناً بالشكوى والعتاب . وقد شاعرنا إلى البلاط الإشبيلي في وقت كان فيه المعتضد في قمة مجده ، فقد انتصر على ابن الأقطس أمير بطليوس وعلى الأمراء الصفار من البربر وغيرهم ممن استقلوا بالأمر بعد انحلال الخلافة في قرطبة . لقد كان ملك إشبيلية آنذاك في حاجة دون شك أكثر من أي وقت مضى إلى أن تمجد انتصاراته ويخلد اسمه ويتفنى بأعماله ومآثره ، ولم يكن ابن عمار ليترك فرصة ثمينة مثل هذه تغترب من يده فتقدم إلى المعتضد بقصيدته الرائية المشهورة يمدح المعتضد ويشيد ببطولته وانتصاراته الرائعة على أعدائه ، ثم يمجّد كرمه وبسطه يده ، ويصف هجومه العنيف على أعدائه البربر ويصمهم بأشنع النعوت .

(١) عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ، ص ١٩٠

قال ابن عمار في قصيدته التي مطلعها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى

والنجم قد صرف العنان عن السرى

إلى أن يقول :

ملك إذا ازدهم الطوك بمـورد

ونحاه لا يردون حتى يصدرا

أندى على الأكباد من قطر الندى

وألد في الأجران من سنة الكرى

قداح زند المجد لا ينفك من

نار الوغى إلا إلى نار القرى

يختار إن يهب الخريدة كاعباً

والطرف أجرد والحسام مجورا

أيقنت أنى من ذراه بجنّة

لما سقاني من نداه الكوثر

وعلمت حقاً أن روضي مخصب

لما سألت به الخمام المطر

يا سائلي ما حمص إلا خاتم

أبصرت إسماعيل فيه الخنصر

من لا توازنه الجبال إذا اجتبي

من لا تسابقه الرياح إذا جرى

ماضي وصدور الرمح يكهم والطبا

تنبو وأيدي الخيل تفتّر في البرى

لا شيء أقرأ من شفار حساميه

إن كنت شبهت الكتائب أسطرا

قائد المواكب كالكواكب فوقهم

من لأهم مثل السحاب كنهـورا

من كل أبيض قد تقلد أبيضاً

عصبا وأسمير قد تقلد أسمر

للمرسلة بآفاق المدى
برقا تصوب عارضا متعجرا
عباد المخضر نائل كفه
والجو قد لبس الرداء الأعبر
ملك يروقك خلقه أو خلقه
كالروض يحسن منظرًا أو مخبر
أعلمت بالايان حتى شئت
فرأيت في بردتيه مصورا
وجهك معنى الجود حتى زرت
فقرأته في راحتيه مقسرا
فاح الثرى متعبرا بشائيه
حتى حسبنا كل تزي عنبرا
وتوجهت بالزهر صلح ضابيه
حتى حسبنا كل كظم قيصرا
همرت يدي غصن الفنى من كفه
وحننت به روض السرور مورا
السيف أفصح من زياد خطبه
في الحرب إن كانت يمينك منبرا
ما زلت تفني من غدا لك راجيا
نبيلا وتفني من طفى وتجبرا
حتى حلت من الرياسة محجرا
رحبا وضمت منك طرفا أحورا
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد
إلا اليهود وان تسما بربرا
أثمرت رمحك من رؤوس كمارهم
لما رأيت الفصن يمشق مشرا

وَحَضَبْتُ سَيْفَكَ مِنْ دَمَاءٍ نَحْوِهِمْ

لَمَّا عَهِدْتَ الْحَسَنَ يُلبَسُ أَحْمَرًا

فلئن وجدتُ نسيمَ مدحي عاطرًا

فلقد وجدتُ نسيمَ بَرِّكَ أعطرا

واليكها كالروضِ زارته الصَّبَا

وحنا عليه الطَّلُّ حتى نُورًا (١)

نظم شاعرنا هذه الأبيات من قصيدة طويلة لإرضاء المعتضد وإشباع رغبته ووقف جل قصيدته على الإشادة بمدوحيه كمادة المداحين من الشعراء فأسبغ على المعتضد شخصية مثالية تتصف بكل مثل المجتمع العليا وتكاد تنحصر في أربع صفات مجد بانح ، ومكانة رفيعة ، وشجاعة منقطعة النظير ، وكرم لا يعرف الحدود . فلا يكاد يخلو بيت من أبيات القصيدة التي خصصها لمدح المعتضد من الإشارة إلى واحدة من هذه الصفات أو عرض لها بشكل من الأشكال سواء أكان الحديث عن المعتضد أم عن ابنه اسماعيل وما يلفت النظر براعة الشعر في التعبير عن نفس الأفكار بأشكال مختلفة وطرق متباينة .

ويستمر الشاعر يجول حول مدوحيه بشكل لا تكاد نحس تجاهه بغير

الإرهاق الذي أرهق به الشاعر نفسه لكي ينحت من أفكار سطحية مبتذلة أبياتا ذات قيمة لسامعيه .

إن في هذه القصيدة أبياتا تظهر في جلاء كيف تمتزج الوحشية بالجمال فالرمح على سنانهِ الرأس غصن مشر ! والسيف غضبه الدم هو الحسن الذي يلبس أحمر ولعل شاعرنا قصد اجتماع القسوة والجمال في نفس مدوحيه ولعله حينما مدح جاءت هذه الأبيات في زحمة المديح ورأى نفسه يمدح شخصا لائه قتل فأراد أن يمتدزعا فعل ويمتدز للممدوح عما قتل .

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ١ " / المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٧٨

عبدالواحد المراكشي : المصجب ، ص ١٧٥

بالإضافة إلى التكلف البياني وجه الشاعر جهدا غير قليل للمحسنات البديعية كالطباق والجناس ، ولكن التكلف والتصنع فيها واضحا بين يفقدها كل جمال فني أو تأثير أدبي ، لقد كان عصر ابن عمّار مولعا بالصنعة شغوبا بتزويق الكلام ، فلا جرم إذا رأينا نقاد العصر يعجبون بالشاعر ويطنهون فسي مدحه بينما تنحصر أهميته لنا بالتركيب اللغوي لأبياته لا غير .

ولكن من حق الشاعر علينا أن نستثني من هذا الحكم بعض الأبيات كقوله يمدح الملك المعتضد بن عباد :

أندى على الأغباد من قطر الندى وأندى في الأجفان من سنة الكرى
فلا شك أن الشاعر عبر بنظمه لهذا البيت عن مجموعة معقدة من العواطف والأفكار فالتكلف يمتنع بصفات هي مزيج من اللطف والطيبة وكرم النفس وغير ذلك مما نحسه حين قراءتنا لهذا البيت ، لم يجد الشاعر السبيل لتصويرها إلا بهذا الأسلوب الجميل المصغر .

ولا شك أن روحا جديدة ابتدأت تظهر في أبيات القصيدة الأخيرة

حيث انتقل الشاعر للحديث عن نفسه وتصوير لهفته إلى نوال الملك وجهده في ارضائه وجلب عطفه وأمله في أن تحظى أبياته التي بذل فيها ما بذل من جهد وبراعة بالقبول لدى الملك .

كقوله :

فلئن وجدت نسيم مدحي عاطرا فلقد وجدت نسيم برك أعطرا
واليكها كالروغ زارته الصبا وحنا عليه الطل حتى نورا

إن هذه اللمحة وهذا التوسل والرجاء المنبعث من هذه الألفاظ القوية والتراكيب المثينة البنيان يعطي هذه الأبيات قيمة أدبية لا نجد لها في الأبيات السابقة وعلى كل حال ، نرى أنفسنا أمام شاعر مصور ملهم ، يستعير من الطبيعة أرق وأجمل عناصرها ثم يمزجها بعناصر المدح ، ويؤلف من هذه وتلك لوحة فنية حية ، يقطر منها الندى والشذى ، وتتناغم فيها الظلال والألوان ، لوحة ينقل فيها الطبيعة إلينا ، أو ينقلنا إليها في سباحة خيالية تمسك فيها حواسنا كل ما يروقها ويشوقها ، وكل ما يبهجها

ويطربها !

بالإضافة إلى هذه الرائية لدينا ست قصائد لا بد أن يكون الشاعر قد كتبها عند انضمامه إلى بلاط بني عباد أهمها القصيدة الدالية التي تستحق أن نوجه نحوها إهتماما خاصا وعناية كبيرة مطلعها :

ألا للمعالي ما تعيد وما تبدى وفي الله ما تخفيه عنا وما تبدى
ويبدو أن الشاعر نظم هذه القصيدة بعد الانتصار الرائع الذي أحرزه الجيش الإشبيلي على البربر المقيمين في قرمونة قرب إشبيلية ويبدو واضحا في أبيات هذه القصيدة تحمس ابن عمار لهذا النصر وفرحمه، ولا غرابة في ذلك فقد كان بين الأندلسيين والبربر حقد متبادل جد يربأ أن يفرح كلا منهما بمصائب خصمه، وقد كان لهذا الشعور دون شك أثره في إعطاء هذه القصيدة قيمة خاصة قال ابن عمار يمدح المعتضد :

نوالٌ كما اخضرا لعدار وفتكة كما خجلت من دونه صفحة الخد
جنيت ثمار النصر طيبة الجنى ولا شجر غير المثقف الملبس
وقلدت أجساد الربى رائق الحلى ولا درر غير المطهمة الجرد
بكل فتى عارى الأشاجع لابس إلى غمرات الموت محكمة السرد
يكر فكم طعن كسامعة الفرا يضاف إلى ضرب كهاشبة البرد
نجوم سماء الحرب إن يدج ليلىها يدور بهم أفواجا فلك السمند
خميس تردى من بنيك بمرهف حكاك كما قد الشراك من الجلد

ثم يصف هجوم الأمير إسماعيل بن المعتضد على قرمونة :

وربَّ ليلٍ ظلام سار فيه إلى العدى ولا نجم إلا ما تطلع من غمد
أطلَّ على قرمونة متلججا مع الصبح حتى قيل كانا على وعد
فأرملها بالسيف ثم أعارها من النار أثواب الحداد على الفقر
فيا حسن ذاك السيف في راحة الندى ويا برد تلك النار في كبر المجد (١)

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٢ " / ابن خاقان : قلائد العقيان

نحس في هذه الأبيات برضى الشاعر وابتهاجه وبتشفيه بما هل بالبربر
من ضيم ، وعداء ابن عمار للبربر متأصل في نفسه ، فلا عجب إذن في أن
نحس بمخاطف الشاعر وإحساسه في أبياته التي يتحدث فيها عنهم فيقول
مشيراً إلى ابن اسحق البرزالي حاكم قرمونة وباديس بن حبوس حاكم
غرناطة ، وكانا من أشد أمراء البربر شكيمة وأقواهم سطوة :

يهوداً وكانت بربراً فانتضى الطبي وأنبيهم منها بالسنة لـ
أقول وقد نادى ابن اسحق قومَه لأرضك يرتادُ المنية من بعد
لقد سلكت نهج السبيل إلى الردى طباء دنت من غابة الأسد الوردي
كأنني بباديس وقد حطَّ رحلهُ إلى الفرس الطأوى عن الفرس النهدي
إلى الفرس الجارى به طلق الردى سريعاً غنياً عن لجام وعن لـ
يحنُّ إلى غرناطة فوق متنه كما هنَّ مقصوَصُ الجناح إلى الوردي
ظفرت بهم فارتج وأومض كؤوسها بروقا لها من عودها ضجة الرعد (١)
وكل ما نلاحظه في هذه الأبيات ما هو إلا انعكاس للعداء المستحكم بين
الأندلسيين والبربر وهو صفة بارزة من صفات القسم الأول من عهد طوك
الطوائف في الأندلس .

وكما فعل ابن عمار في قصيدته الأولى فعل في هذه القصيدة ، إن
خصص الأبيات الأخيرة منها لاستدراار عطف الملك واستجدائه وكسب
رضاه ونواله والواضح أن الشاعر لم يتورع عن الاستجداء الصريح والالاحاح في
طلب هبة الأمير مينا بوضوح أنه إنما مدح ليحصل على الجزاء ، ولا شك في
أن أصل ابن عمار الطبقي وما كان يعانيه من فقر وعوز هما اللذان دفعا إلى
سلوك هذه السبيل في استجداء الملك .

يقول في آخر قصيدته :

ودونكها من نسج فكري حلـة مطرزة العطفين بالشكر والحمد
ألدُّ من الماء القراح على الصدى وأطيب من وصل الهوى عقب الصدى

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة ٢٣* / ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٨٨

وما هذه إلا شعار إلا مجامر تزوع فيها للندى قطع الند
وكت نثرت الفضل في وانما نثرت سقيط الطل في ورق الور
وما أنا باغ من نذاك بقبر ما يضاف لتأملي ويعزى إلى ودي
فأقسم لو قسمت جودك في الوري على قدر التأمل فزت به وهدى
قتعت بما عندي من النعم التي يفسرها قولي قتعت بما عندي (١)

لقد جاءت هذه الأبيات متينة البنيان ناجحة في التعبير عن لهفة الشاعر
وأمله وعمق ثقته بالملك وأعجابه بالأمير وبما بذله هو نفسه من جهد في
نظم قصيدته .

وعلى رغم أن هذه القصيدة تفوق سابقتها ، كما نعتقد في قيمتها الأدبية ،
لم تحظ بالاهتمام التي حظيت به القصيدة الرائية من قبل المؤرخين عدا
صاحب الخريدة فقد خصها بقسط كبير من المدح والاطراء .

وقال ابن عمار من قصيدة في مدح المعتضد بن عباد مطلعها :
أشاكك برق أم جفاك حبيب فليلك فضا الرءاء رحيب
ومنها :

إلى الله أشكو أن مالك في دمي شريك ومالي في هواك نصيب
أترين من كلفت عينيك قتله وقلت فتى لا يستفيد غريب
ستتضره من مهرة الخيل ترتضي بأعلام نصر في الوغى وتوؤب
تسامرا بلخم فاستهلت سماؤهم بخيمين منها ذائب ومذيب
بدور ولكن السماء محارب وأسد ولكن العرين حروب
مزحت فأنى يا ابنة القيل لم أكن لأقضي سراً ضمنته قلوب
سأشهد قومي أن طرّفك من دمي برى وإن كان الفتور يريب
وكيف أرى في القدر نهجاً لسالك وعهدى بالملك الوفي قريب
فتن نسج الغدر اقتضاء وفائيه فلا تحكمن أن الوفاء غريب

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة "٢" / ابن خاقان : قلائد المقيان ،

أغرَّ ينيرُ الملك منه بكوكبٍ له في سماءِ المشكلاتِ ثقبُ (١)

مما يلفت النظر في هذه الأبيات علاقة الشاعر بالملك ، فالشاعر يمدح فيها المعتضد ولكنه يعبر في الوقت نفسه عن خوف داخلي وحذر من وقوع مكر ويحاول تجنبه بالتحدث عن الوفاء والفدر ولا سيما وفاء الملك ومحافظة على المهود وعزوفه عن الفدر . إن الحاح الشاعر على هذه الناحية مع ما نعرفه من بطش المعتضد وغدره ليترك في نفوسنا انطبعا قويا عن حذر الشاعر وخوفه وإحساسه بتخيير نفس الملك تجاهه .

وله قصيدة أرسلها إلى المعتضد بن عباد من مفاه في أقاصي الأندلس مطلعها :

جاء الهوى فاستشعروه عارُهُ ونعيمُهُ فاستعذبوه أوارُهُ !

قالوا أضرب بك الهوى فأجبتهم يا حبيذاً وحبيذاً أضراره

ثم ينتقل إلى غرضه الأساسي وهو الاعراب عن شوقه الشديد لإشبيلية ومدحه لمليكه المعتضد بن عباد حيث يقول :

فوحسني لقد انتديت لوصفه بالبخل لولا أن حِمَصاً داره

بلد رمتني بالمنى أغصانُهُ وتفجرت لي بالندی أنهارُهُ

بلد متى أنكره هيج لوعتي وإذا قد حمت الزند طار شراره (٢)

ومن قصائده الرائعة قصيدته الميمية وتشتمل على ثلاثة وتسعين بيتاً أرسلها الشاعر من سرقسطة إلى صديقه المعتمد في إشبيلية وضمها كل ما كان يجول في نفسه من أفكار وانطباعات ، وما يعتل في قلبه من مشاعر وعواطف وانفعالات وإحساسات ، كما سكب فيها كل ما يمتلك من مقدرة على نظم القصيد وبراعة في سبك الألفاظ ، حتى أننا نستطيع اعتبارها النموذج الحي لشاعرية ابن عمار في وجودها المختلفة ، يقول ابن عمار في مدح المعتمد وأبيه المعتضد :

أبا القاسم اقبلها إليك فإنما ثاؤك مسكي والقوافي لطائي

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٧ "

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة " ١٠ " / عبد الواحد المراكشي : المعجب

محملة عذراً فإنك جملـة من الفضل لم أستوفها بتراجـم
قد يُتَكَ ما حبلُ الرجاء على النوى بواهٍ ولا ربحُ الوفاء بقاتـم
أنا العبدُ في ثوبِ الخضوعِ لو أنني أرى الهدرَ تاجي والنجومَ خواتمي
وما عَزَّ في الدنيا طلاب لما جدٍ ولا اعتاصَ في الأيامِ وردَ لحائم
ولكن ذاك الظل أهدى غضارة لضاحٍ وذاك البرق أوفى لشائم
وإني إذا أنصفتُ ، بمدك خادمٍ لدهرى وكان الدهرُ عندك خادمي
تراك قد تنسَمَّت الذي قد أنعته فأرضاك أم عابتُ لدَيْكَ مقادمي
لمصرى قد أفحمت كلَّ مُفاخيرٍ بما فيك من تلك السجايا الكرائم
أنازعة فيك الشاء فينتشي كأنني نازعتُ الكوهِ ومن مناد مـي
ولا غرو أن حيثك بالطيب روضة سمحت لها بالعارض المتراكم
وثقت بحظي منك لم أخش نبوةٍ عليه وأرم بالظنون الرواجـم
ولو نهضت بي قدرة كل ساعة لا ديت من تقبيل كفك لازمي
لعل الذي أقدى بترحة راحل عيوناً سيجلوها بفرحة قادم
فترجع أيام مضت وكأنهـا إذا امتثلتها النفس لذة حالم
وان غالني من دونهن منيتي فأقدار رب بالمنية حاكم
توالى عليك السعد ألزم صاحبٍ وكان لك الرحمن أكلاء عاصم (١)

فالشاعر يفتن في استعمال البديع والبيان ويفوص خلف التشابيه النادرة
والمجازات الغريبة فيستثير إعجاب نقاد عصره ومن جاء بعدهم ممن
أولعوا بالصنعة وشغفوا بتنميق الكلام ، ولكن على رغم ذلك نحن بلوعة
الشاعر وتلفه إلى رضى المعتمد ، ونحس بشعور عميق يحرك الشاعر
ويدفعه إلى التوسل والرجاء والإستعطاف بل البالغة في المديح .

إننا نستطيع أن نكتشف من خلال هذه الأبيات شاعرا مبدعا جديرا بأن
يحتل مكانا أحسن بكثير مما يحتله الآن ، شاعرا يجمع بين غزارة الشعور
وتدقيقه ، وتملك ناصية الصياغة الشعرية والصناعة الكلامية . وله مداخل

تخللت قصائد التوسل والإستعطاف إلى المعتمد وأبنائه تستحق كل عناية

واهتمام لما فيها من شعور عميق وإحساس فياض أوجدتهما حال ابن عمار
البائسة وخوفه من الموت يقول في مدح الرشيد بن المعتمد :

غير أني سأصطفي لك جُهدى من ثناء طيب وذكر حميد
في قليل من القوافي كثير ونلول من المعاني شرود
كلمات كأنها الدرُّ نظمًا طوقت منك أي طوق وجيد
أنت بدر النجوم تحت سنى الشم س أبكم على سماء السُعود
أنت ريحانة العلى لبني عبدا د السادة الكرام الصيد
أنت إما اعترضتم درة التاج ج فرند الحسام وسطى الفريد
وإذا ما مدحتم نكتة الخطيب بق قصد الحديث بيت القصيد
وإذا ما ركبتم الخيل صدر الـ جيش عين اللواء قلب الحديد
أنت فيهم إن يعمتوا ليلة القدر ر وإن يصبحون يوم العيد
فهنيئًا أبا الحسين خـلال وصفات جلّت عن التَّحدِيد
وشفوق على الجميع بسـنن وسناء إلى سنى مدود (١)

يمدح الشاعر الرشيد بن المعتمد بكل ما يمكن أن يمدح به ملك ، فأبوه
الشمس وهو بدر النجوم ، وريحانة العلى ودرّة التاج وفرند الحسام ووسطى
الفريد ونكتة الخطبة وقصد الحديث وبيت القصيد وعين اللواء في الحرب
وقلب الحديد ، وهو في الليل ليلة القدر وفي النهار يوم العيد .
والأبيات كما نرى تحتوى على مجموعة من التعابير الأدبية البارة تلفت
النظر وتجلب الإهتمام ، تدل على دقة الحس وقوة الإدراك .
وعدا هذه القصيدة التي أرسلها ابن عمار للرشيد بن المعتمد ، لدينا
قصيدة أخرى كتب بها إلى الفتح بن المعتمد الطقب بالمأمون يمدحه
ويتوسل فيها إليه أن يشفع لدى والده فيمزع المدح بالرجاء :

مالي أُنْبِيَهُ نَاطِرًا لَمْ يَفُ عَنِ حَظِيهِ مِنْ دُنْيَاهُ أَوْ مِنْ دِينِ
 وَأَهْزُ مِنْ عَطْفِ شَاهُ عَطْفِهِ حَتَّى خَشِيتُ عَلَيْهِ فَرَطَ اللَّيْنِ
 بِيَدِي مِنَ الْمَأْمُونِ أَوْثَقُ عَصْمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمْرِي فِي يَدِ الْمَأْمُونِ
 أَمْرِي إِلَى مَلِكٍ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَكَفَاهُ مِنْ فَوْقِ كَفَاهُ وَدُونِ
 حَيْثُ اسْتَوَى الْخَصْمَانِ حَقًّا وَالتَّقَى عِزَّ الْغَنَى بِذَلِكَ الْمُسْكِينِ
 مِنْكَ طَوَى سِرُّ الْمَهَابَةِ شَخْصَهُ لَوْلَا أَسْرُهُ وَجْهَهُ الْمِيمُونِ
 مَتَوَقَّدُ الْجَنَابَاتِ كُلِّ دَوْحِهِ بَجْنَى وَفَجَّرَ صَفْحَهُ بَحْيُونِ
 وَأَنْتَ لَا يَدَى الْمُجْتَنِينَ قُطُوفِهِ وَدَنَا إِلَيْهِمْ مِنْ ظِلَالِ غُصُونِ
 وَنَأَى لَابْصَارِ الْعَصَاةِ فَإِنَّمَا يَتَوَهَّمُونَ نَعِيمَهُ بِظُنُونِ
 بَحْرًا إِذَا رَكَبَ الْعَفَاةَ سَكُونَهُ وَهَبَ الْغَنَى فِي عِزَّةٍ وَسَكُونِ
 وَإِذَا طَمَى لِلذَّنْبِ لَمْ يَسْمَعْ بِهِ إِلَّا الدَّعَاءُ يَمَانٍ بِالتَّأْمِينِ (١)

يَمِزْ شَاعِرُنَا مَدْحَهُ لِلْمَأْمُونِ بِالرَّجَاءِ وَيَتَفَنَّى فِي ذَلِكَ أَيْمًا تَفَنَّى ، فَيَصِفُهُ
 تَارَةً بِالتَّقَى وَأَنَا بِالْمَهَابَةِ وَطَوْرًا بِالتَّوَاضُعِ .

وَهَذِهِ الْأَبْيَاتُ تَسْتَحِقُّ الْإِهْتِمَامَ وَتَلْفَتِ النَّظْرَ بِتَمَازِيرِهَا الْبَارِعَةِ وَمَا يَزِدُّهُمْ
 مِنْ مَشَاعِرٍ وَأَحَاسِيْسٍ .

وَهَكَذَا نَرَى شَاعِرُنَا لَهُ أَسْلُوبٌ خَاصٌّ فِي مَدْحِهِ وَفِي تَصْوِيرِ مَعَانِيهِ
 وَتَرْتِيْبِهَا ، يَعْضُرُ صُورًا مُخْتَلِفَةً مِنَ الْأَخْيَلَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعْرُوفَةً فِي
 الْأَنْدَلُسِ بِعِبَارَةٍ سَهْلَةٍ رَشِيقَةٍ يَرْسُمُ بِهَا صُورَةَ نَاطِقَةٍ لِمَدْحِهِ تَهْدُو مِنْ
 شَأْيَاهَا أَعْمَالَهُ وَخِلَالَهُ .

=

=

=

الوصف

=====

نظم الأندلسيون شعرهم في وصف كل ما وقع عليه حسهم من مشاهد الطبيعة في بيئاتهم وعصورهم المختلفة ، ومنهم من غلبت عليه الإجابة في وصف أشياء معينة ، أكسبتهم خصوصية فيها واشتهار بها .

وفن الوصف من أكبر فنون الشعر عند الأندلسيين ، ذلك لأنه يأتي في أكثر أغراض الشعر ممتازجا بها ، وقيل أن نجد قصيدة بنيت على موضوع الوصف وحده ، اللهم إلا في القطع القصار .

وقد أبدع الأندلسيون في شعر الوصف كما وكيفا ، وتوسعوا ونوعوا في موضوعاته توسعا وتنوعا فاق كل اعتبار . ومرجع ذلك أولا إلى طبيعة الأندلس ، هذه الطبيعة الرائعة الخلابة التي عبرت فيها الأرض عن نفسها أجمل تعبير ، من طيب التربة وخصوبتها ، ومن الأنهار الفزيرة ، والعيون العذبة ، والحدائق والرياحين ، ومن الاعتدال الخالب فيها على الهواء والجو والنسيم ، ومن المدن الحصينة ، والقلاع المنيعة ، واستبحار التمدن والممران ، ثم من ابيضاض الألوان ، ونبل الأذهان ، وشهامة الطباع .

هذه البقعة الكريمة من الأرض ، والغنية بشتى المناظر ، والمشاهد التي تأسر الطرف ، وتستهوئ الأفتدة ، وتستثير المشاعر والمواطف ، كان لها الأثر القوي في عقول أبنائها وأخلاقهم ، وأمزجتهم ورهافة حسهم وصفاء أخيلتهم . ومن ثم فكل هذه المحاسن التي حبت الطبيعة بها بلاد الأندلس هي في الواقع المصدر الأول الذي استلهمه شعراء الأندلس ، واستمدوا منه الفيض الزاخر من أغاني الطبيعة التي نظموها تمجيذا لجمال طبيعة وطنهم .

وهذه المحاسن هي التي جعلت ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأكبر في

الأندلس يهتف بجمالها قائلا :

يا أهل أندلسٍ لله دركم ماءً وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارٌ

ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرتم هذا كنت أختار
لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار (١)
ومرجع آخر زاد من ازدهار شعر الطبيعة ووصفها ، هو حياة اللهو والاستمتاع
التي كان يمارسها الشعراء ، ممثلة في مجالس الأئس والطرب والشراب وقد عب
شاعرنا في مجالس اللهو والأئس أيام كونه في شلب مع المعتمد يوم كان الأخير
حاكماً على شلب من قبل أبيه المعتضد بن عباد مما دفع المعتضد إلى نفيه
إلى شرق الأندلس ، ثم عاد إلى وصف مجالس لهوه وأنسه ، عندما تولى وزارة
المعتمد في إشبيلية بعد وفاة المعتضد وعودة الصديقين إلى أيام لهوهم
وأنسهم .

فهذه المجالس أوجت إلى أمثال ابن عمار بشعر غزير ، عبروا فيه عن حبهم
ولهوهم وأشواقهم ، ويخيل لمن يستقرئ شعر الوصف في الأديب الأندلسي
أن الطبيعة استحوذت عليهم ، فعاشوا معها في متحف كبير مساحتها مساحة
الأندلس !

نقول ذلك لأننا نرى أنهم لم يفادوا شيئاً في الأندلس من طبيعتها
الحية أو طبيعتها الصامتة ، صغيراً كان ذلك الشيء أو كبيراً ، إلا انفعّلوا
به ورسوموا له في شعرهم لوحات رائعة .

أبدع الأندلسيون في وصف القصور ومظاهر الحضارة والعمران ، فخلّفوا
لنا وصفاً واقعياً لمارحاً ، يستوعب أكثر ما حوته هذه القصور من نوافير ، وتماثيل
ونقوش ، يلقون عليها أحياناً بعض أحاسيسهم ويثثون فيها روحاً من عواطفهم
فإذا ذهبنا نتلمس الأسباب التي دفعت الشعراء إلى وصف القصور ، وجدناها
في اهتمام ملوك الأندلس بالعمارة ، واحتفالهم بمظاهر الأبهة ، وقد شجع
هؤلاء الملوك شعراءهم على وصفها ، يبرزون في وصفهم لها مواطن الجمال
فيها .

ويحتفظ الأديب الأندلسي بعدد من شعراء القرن الخامس الهجري احتفالاً
بوصف القصور وما يتصل بها من زخارف وتماثيل ، ونعد من هؤلاء ابن زيدون
وشاعرنا ابن عمار ، وعبد الجليل بن وهب ، وقد نقل صاحب الحلة السيرة عن

ابن عمار بيتين قالهما في طبق من الفضة مذهب الباطن :

وسمائي من الغنى قد أسالت ذهباً في قرارة من لجيش
فاجتنت حولها العيون بلطف زهر الحسن من بنان اليد (١)

أما ابن حمديس فقد شهد له بالبراعة في الوصف القدامي والمحدثون ،
والعرب والأجانب في ذلك سواء (٢) قال صاحب نفح الطيب : " الحسن
والإحسان ، يقادان في أرسان لعبد الجبار بن حمديس ذي المقاصد الحسان
وخصوصاً في وصف المباني والبرك ، فما أبقى لسواه في ذلك حسناً ولا تركاً .
وأهم ما غلب على شاعرنا الإجابة في وصف مجالس اللهو والأنس بالإضافة
إلى قطع قصار في اتجاهات الوصف المختلفة .

يقول ابن عمار في وصف مجلس من مجالس الأنس حضره مصحوباً بالخمير ثم
يصف الطبيعة التي تضي عليه كل مظاهر الجمال والبهجة ومن متمات
مجالس الأنس لدى الأندلسيين الحداثق الفناء والطبيعة الجميلة التي
تكتنف هذه المجالس أو تحيط بها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منه العنبراً
والروض كالحسنا كساه زهره وشياً وقلده نداءه جوهراً
أو كالغلام زها بوردي رياضه خجلاً وتاه بأسه من مَنذراً
روض كان النهر فيه مصم صافٍ أطل على رداء أخضرا
وتهزه ربح الصبا فتخاله سيفكبن عباد بيد عسكراً (٣)

من الواضح أنه من الصعب أن نبحث في هذه الأبيات عن عواطف قوية
ومشاعر صادقة مثيرة أو أفكار عميقة ، فقد اختفى كل ما هنالك من عواطف
ومشاعر وأفكار سطحية تحت حجب من الصنعة البيانية هي التي تلفت النظر
وتجلب الانتباه ، لقد بذل الشاعر جهده في البحث عن التشبيهات
وتركيب استعارات لم يستطع مع جهده هذا في أن يعتمد بها عما هو مألوف

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٦٤

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ص ٣٩

(٣) ابن خاقان : قلائد الحقيان ، ص ٩٦

في عصره ، فالظلام كالعنبر وضوء النهار كالكا فور ، والروض كالحناء ، والزهور كالوشي والندى كالجوهر ، أو الروض كالغلام يتيه بخديه الأحمرين اللذين يشبهان الورد ، وبالشعر النابت عليهما والشبيه بالأس . والنهر كالمصم فوق الرداء الأخضر .

ولا شك أن هذه المحسنات البيانية تسهم في تكوين القيمة الفنية للنص إذا كان الغرض منها زيادة قوة تعبيره فضلاً عما يضمه من المشاعر والمواطف والأفكار . أما أن تكون غرضاً في ذاتها فذلك مما يجعل النص الأدبي شكلاً أجوف قد يثير الإعجاب بتركيبه وحذق صياغته ولكنه لا يمس الحاسة الفنية ولا يثير في النفس الشعور الجمالي الذي يحسه المرء أمام قطعة فنية حقيقية .

وقال ابن عمار قصيدة يصف فيها مجلساً من مجالس الأنس حضره المعتضد ابن عباد :

الكأسُ ظاميةٌ إلى يُمناكَ والروضُ مرتاحٌ إلى لُقيَاكَ
والدهرُ جارٍ في عنانِكَ لم تقلْ هاتِ الضى إلا أجابَ بها كما
فأدرُ بِأفانِي السرورِ كواكباً تَحْدُثُ أَكْفَ سُقَاتِهَا أَفلاكاً
راحاً إذا هبَّ النسيمُ حَسِبْتِهَا مسروقةً الأنفاسِ من رِيَاكَ
في مجلسٍ يسطرُّ الربيعُ بساطَهُ زهراً ورقرةً عليك أَرَاكَ
سَقَطَ الندى فيه سُقُوطُ نَدَاكَ وجلتْ عليه الشمسُ مثل سَنَاكَ
روضٌ تَفْتَحُ زَهْرُهُ فَكَأَنَّهُ مُقْلُ المذارى حَدَقَتْ لَتَرَاكَ
(١) يَسْرَى على رِيحَانِهِ نفسُ الصبا سَحراً فيوهِمُ أَنَّهُ ذُكْرَاكَ

يصف الشاعر في هذه الأبيات مجلساً من مجالس الأنس حضره المعتضد ، وتتضح في هذه الأبيات صفات شعر ابن عمار كاهتمامه بالمحسنات البديعية وتعلقه بالتزويق اللفظي مع براعة في اختيار الألفاظ وصياغة الأبيات تلفت النظر .

ويقول في مطلع قصيدة طويلة فائقة مطلعها :

عليّ وإلا ما بكاء الفمائم ؟ وفيّ وإلا ما نياح الحمائم

ومنها يصف النهر والروض :

وليل لنا بالسد بين معاطف من النهر ينساب أنسياب الأراقم

بحيث إتخذنا الروض جارا تزورنا هداياه في أيدي الرياح النواسم

تبلغنا أنفاسه فنردّه بأعطر أنفاس وأذكي مناسم

تسر إلينا ثم عنا كأنهم حواسد تمشي بيننا بالنمائم

سقتنا به الشمس النجوم ومن بدت له الشمس في جنح من الليل فاحم

ومتنا ولا واش نحس كأنهم حللنا مكان السر من صدر كاتم (١)

نلاحظ في هذه الأبيات أن شاعرنا قد أبدع في تصوير منظر النهر والروض

وينقلها إلينا وكأننا نراها شاخصة ماثلة كأنها معروضة على ستار سينمائي

وقد يزيد على هذه المناظر فيلون الصورة بأحاسيسه ومشاعره ، ويحملنا

ببراعته على أن نشاركه في هذه المشاعر والأحاسيس .

وقد كلف شاعرنا في الغناء ومجالس الأئس واللهم ، يهرع الأدباء إلى

مجالسه ويسرون بحضوره وقد روى أن بعض الكتاب اصطبح يوما والجو مسكي

الموارف ، والروض أنيقة والنسيم معتل ، ومعه قومه ، فكتب إلى ابن عمّار وهو

ضيغه .

ضمان على الأيام أن أبلغ النسي إذا كنت في ودّي سرّاً ومعلمنا

فلو تسأل الأيام من هو مفرّج بود ابن عمّار ؟ لقلت لها : أنا

فإن حالت الأيام بيني وبينه فكيف يطيب العيش أو يحصل النسي (٢)

فلما وصلت الرقعة إليه تأخر عن الوصول ، فقال أحد الحاضرين : إني لأعجب

من ابن عمّار ، كيف قعد عن هذا المضمار ، مع ميله إلى السماع ؟ فلما كان

الغد ورد ابن عمّار ومعه الجواب وهو :

هصره لي الآمال طيبة الجنسى وسوّغتني الأحوال مقبلة الدنسى

وألستني النسي أغص من الندى وأجمل من وشي الربيع وأحسننا

(١) ديوان ابن عمّار : قصيدة " ٩ "

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٨٨

وكم ليلةً أخطيتني بحضورها فبتُ سميماً للسناء وللسنا
أعللُ نفسي بالمكارم والعُلا وأذني وكفي بالغناء وبالغنى
سأقرنُ بالتمويلِ ذِكراكُ كلما تعاورتِ الأسماءُ غيرَكَ والكُنَى
لاؤسفتُني قولاً وطولاً كلاهما يُطوقُ أعناقاً ويُخرسُ السُنا
وشُرفتُني من قطعةِ الروضِ بالتي تناثرَ فيها الطبعُ ورداً وسوسنا
تروقُ بجيدِ الطلحِ عقداً مُرصعاً وتزهو على عطفيه برداً مزيّناً
فدُم هكذا يا فارس الدُستِ والوعى لتطعنَ طوراً بالكلام وبالقنا (١)

هذا كلام وجداني جميل ، يسوغ للنفس تذوقه ، لأنه عذب سهل في لفظه
ومعناه ، مدح ولكنه ليس من المدح الجاف المقصور على ذكر الفضائل
وجميل الأوصاف التي ربما لم يكن للممدوح حظ وافر فيها ، بل هو مدح
ممزوج بوصف جمال أوقات السرور والسعادة وآثار النعيم في النفوس وأثر
النعمة على المنعم عليه .

وله مقطوعة يصف مجلساً من مجالس الأئس حضره مع الرشيد بن
المعتمد فلما دارت الكأس وتمكن الأئس وغنيت الأصوات ذهب الطرب بابن عمار
فارتجل يصف الخمر :

ما ضرَّ أن قيلَ إسحقٌ وموصلُهُ ها أنتَ، وذى حمصٍ وإسحقُ
أنتَ الرشيدُ فدعْ ما قد سمعتَ به وان تشابهَ أخلاقُ وأعراقُ
للهِ دُرُكُ دارِكها مشعشعة وأحضرُ بساقيكَ ما قامت بنا ساقُ (٢)
هكذا كان يعمل الخمر في رأس ابن عمار فيصف فيحسن الوصف وكأنه
لا يبالي بما يقول ، ولا سيما إذا ذكرت الراح .

وقال يصف جدولاً يصب في غدير :
ومطرِدُ الأجزاءِ يصرُقُ متنهُ صبا أعلنتُ سرَّ الندى في ضميره
كأنَّ حُبَاباً ريجَ تحتَ حُبابِهِ فسارعُ يرمي نفسه في غديره
جريحٌ بأطرافِ الحصى كما جرى عليها شكى أوجاعهُ بخيرِره

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٨٧ - ١٨٨

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة " ١٩ "

شَرُّنا على حافاتِهِ دورُ سكرةٍ وأكثرُ سكرًا منه عينًا مديرة
وقد لاحَ نجمُ الصبحِ بادٍ كأنهُ مُطَرِّقُ جيشٍ مؤذِنٍ بِأَميرِهِ (١)
نلاحظ في هذه الأبيات أن العواطف تحاول أن تشق طريقها بجهد
خلال البهرجة الكلامية والتصنع اللفظي .

وقال ابن عمار في مقطوعة أرسلها من سجنه في شقورة إلى
صديقه القديم الفضل بن حسداى يصف فيها سجنه :

بمعارج أدت إلى جُردٍ	حتى من الأنواء والقطر
عالٍ كأنَّ الجنَّ إنَّ مردَّتْ	جعلته مرقاةً إلى النسر
وحشٍ تناكرت الوجوه به	حتى استرئت بصفحة البدر
قصرٌ تمهدُ بينَ خافقتي	نسرٍ من فلكٍ ومن وكر
متحيرٌ سالَ الوقارُ على	عطفيه من كبرٍ ومن كبر
ملكتُ عنانَ الريحِ راحتُهُ	فجياذها من تحتِهِ تجرى (٢)

يصف ابن عمار في هذه الأبيات حياته السيئة في سجنه وافتقاده
كل شيء فيه ويصف قلعة شقورة الضيقة وصفا فيه كثير من الروعة
والإبداع وقوة التأثير .

وأهم ما نلاحظه في هذه الأبيات هو أن شاعرية ابن عمار تتفتح
بعد أن منعتها مشاغل السياسة والإدارة من الظهور والتدفق ، فيبدو
خياله الخصب وعواطفه الزاخرة ومقدرته على التعبير ، كل ذلك بأسلوب
متين رائع .

عدا هذه القصائد التي أشرنا إليها ، لشاعرنا مقطوعات متعددة في
الوصف وفي مجالات مختلفة نحاول عرضها حتى نحكم على هذا اللون
من فنه حكما يعطيه حقه .

قال ابن عمار في وصف زورق :

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٣٨ "

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٩٢

وجاريةٍ مثل الهلالِ ألفتها
على نهرٍ مثل السماءِ رقيق
تجلّى لنا الإصباحُ وهو زُمرّدُ
فالتُّ عليه الشمسُ ثوبَ عقيق (١)

وقال في الخرشف :

ونبت ماٍ وتُربِ جودُها ابداً
لن يُرجيه في ثوبٍ من البخل
كأنها في جمالٍ وامتناعٍ نرى
خودٌ من الرومِ في قلعٍ من الأسفل (٢)

وقال في وصف القلم :

نحن خليلانٍ ما دعانا
للموصلِ ودَّ ولا اختيارُ
نفصلُ ما كان ذا اتصالٍ
كأننا الليلُ والنهارُ (٣)

وقال يصف يوماً غائماً :

يومٌ تكاثفَ غيمُهُ فكانه
دون السماءِ دُخانٌ عودٍ أخضر
والطلُّ مثلُ برادةٍ من فضةٍ
مشورةٍ في تربةٍ من عنبر
والشمسُ أحياناً تلوحُ كأنها
أمةٌ تُعرضُ نفسها للمشتري (٤)

وقال في فارسين تبارزا فسبق أحدهما الآخر فطعنه :

كم من شجاعٍ قُدته تحت الردى
يدم من الأوداج كالأرسان
رؤى ليضربُ فانتهدت بطعنة
إن الرماحُ بدايةُ الفرسان (٥)

وكما تغنى شعراء الأندلس بوصف الطبيعة الحية الصامتة نراهم قد
تغنوا كذلك بوصف طبيعتها الصناعية متمثلة في وصف قصور الأمراء
والخلفاء والطوك وقد سلك الشعراء في وصفها مسالك شتى منهم من
وقف الوصف عند حد القصر أو مزج وصفه بمدح صاحبه . وكان شاعرنا
من شارك في وصف الطبيعة الصناعية فقد وصف قصر دمشق بقرطبة

(١) ابن الأثير : الحلة السيرا ، ج ٢ ص ١٦٤

(٢) نفس المرجع ، ص ١٦٣

(٣) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٣٢ "

(٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٥ ص ١٣٧

(٥) العماد الأصفهاني : خريدة القصر وخريدة العصر ، ج ٢ ص ٨١

وهو كما يقول المقرئ في التعريف به " هو قصر شيد به بنو أمية بالصفاح
والحمد ، وحرروا من اتقانه إلى غاية وأمد وأبدع بناؤه ، ونمقت ساحته ،
وفناؤه ، واتخذوه ميدان مراحهم ، ومضمارا لانسراحهم وحكوا به قصرهم .

بالمشرق واطلعوه كالكوكب المشرق (١)

كُلُّ قَصْرٍ بَعْدَ الدَّمَشْقِ يُدَمُّ فِيهِ طَابَ الْجَنَى وَفَاحَ الشَّمُّ
مَنْظَرٌ رَائِقٌ ، وَمَاءٌ نَمِيرٌ وَثَرَى عَاطِرٌ ، وَقَصْرٌ أَشَمُّ
بِتُّ فِيهِ وَاللَّيْلُ وَالْفَجْرُ عِنْدِي غَيْرُ أَشْهَبَ ، وَمِسْكٌ أَحَمُّ

وهكذا بعد عرضنا لقصائده العديدة في الوصف ولقطوعاته
المختلفة نجد شاعرنا لم يخرج في وصفه عن الوصف الجميل والأدب
اللائق بمثله ، يشعر الانسان عند قراءته بخفة روحه وحسن ذوقه ،
وبراعته في سهولة الكلام والتعبير عما يريد ، بدون تكلف وحسن في
الصناعة وافتتان في التعبير وهو سر جمال شعره ، وقد اكتسب أسلوبه
من أساليب زمانه المعروفة عند أكثر الشعراء في حسن الوصف ودقته .
فقد كان حلو الفكاهة في جميع أوقاته تثله الخمر أحيانا فتزيد من
رقة شعره وكانت بديهته تملي عليه جميل القول .

كل ذلك كان له أثر عظيم في شعره ، ولا عجب فشاعرنا من كبار
الشعراء في عصره الذي كانت صناعتهم الشعر وكل ميولهم في الحياة
قول الشعر .

الغزل

=====

كان الغزل ينساب على شفاه الشعراء ويدعو إليه كل ما في
الأندلس من طبيعة جميلة وحياة حضرية ناعمة ومجالس أنس ورخاء وخمر
وغناء ، كما أن أسواق النخاسة التي كان يباع فيها الفلمن والجواري قد
شجعت هذه الحياة اللاهية التي وجد الغزل فيها مرتعا سهلا . وقد
استطاع الشاعر الأندلسي أن يرسم حبه ولهوه بأبيات تعد من الشعر الجيد
لأنها استطاعت أن ترسم الأجواء وتعبر عن خوالج النفوس . (١)
كان كل شيء في بيئة الأندلس الجميلة يفرى بالحب ويدعو إلى الغزل ،
ومن ثم لم يكن أمام القلوب الشاعرة إلا أن تتقاد إلى عواطفها ، فاحببت
وتغزلت ، ثم خلفت وراءها فيضا من شعر الغزل الرائع الجميل .
وأوضح سمات هذا الغزل تنجلي في رفته الناشئة من التفنن البياني
بوصف محاسن من يقع الشعراء في حبهن من نساء الأندلس الجميلات ،
وفي تصوير مشاعرهم المتضاربة تجاههن ، من وصل وهجر ، وقرب وبعد ،
واقبال وإعراض ، وما أشبه ذلك من التجارب التي يدور حولها موضوع
الغزل .

وكان المتوقع أن ينفعل الشاعر الأندلسي بموثرات الحياة الجديدة من
طبيعية واجتماعية ، فيبدل من نظرته إلى المرأة ، ومن مفهومه لقيم الجمال فيها ،
ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وظل الغزل الأندلسي غزلا حسيا بعيدا عن
تصوير خلجات النفوس ، وما يضطرب فيها من شتى المشاعر .
ولم يكن هذا اللون الحسي الذي شاع في مجالس الأنس واللهو وساجلات
الشعراء ، ومقدمات قصائد المديح صادقا كله ، بل كان جله لونا من ألوان
البراعة الفنية ، والتباهي بالمقدرة الشعرية ، والرغبة في التفوق على الأقران من
الشعراء . (٢)

وإلى جانب تصوير المواقف التي تنشأ عادة بين المحبين من قسوة ولين .

(١) جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، ص ١٢١

(٢) سعد شلبي : البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر ، ص ٤٥٤

ووصل وهجران ، وشكوى وعتاب ، وما أشبه ذلك ، وقف الفزل عند حدود الوصف المادى لما يتعشقه الشاعر من أعضاء جسم حبيبته ! فالقائمة قضيب يان ، والوجه قمر ، والشعر ليل أو ذهب ، والمحاجر نرجس ، والأنامل سوسن ، والرضاب خمر ، والخدود تفاح .

كذلك شاع بين شعراء الأندلس " الفزل بالمذكر " وكانوا فيه مقلدين لبعض شعراء العباسيين من أمثال حماد عجرد ، وحسين بن الضحاك ، وأبي نواس (١) ولكنهم لم يسفوا فيه ويفحشوا كما فعل هؤلاء الشعراء ، ولم يكثروا منه كثرة أبي نواس مثلاً .

ومن أكثر شعراء الأندلس غزلاً بالمذكر ابن سهل الإسرائيلي ، ولشاعرنا مقطوعات تغزل فيها بالمذكر حيث مجالس الأئس والطرب والخمر . ومع ما يبدو على الفزل الأندلسي من سمات الاناقة والدماسة ، فإن نبض العاطفة في أغلبيه نبض ضعيف ، اللهم إلا عند أبي الوليد بن زيدون ، شاعر الفزل الأندلسي ، فإن عاطفة الحب في غزله عاطفة قوية صادقة . ومن شعراء ابن عمار في الفزل فاتحة قصيدة طويلة أرسلها إلى الممتضد من مغناه في سرقة وهي خير نموذج لفزل ابن عمار :

جاء الهوى فاستشروه عاره	ونعيمه فاستعذبوه أواره !
لا تطلبوا في الحب عزاً وإنما	عبدانه في حكمه أحراره
قالوا أضربك الهوى فاجبتهم	يا حبذا وحبذا أضراره
قلبي هو اختار السقام لجسمه	زياً فخلوه وما يختاره
غيرتموني بالنحول وإنما	شرف المهن أن ترق شفاؤه
وشمت لفراق من ألفت	ولربما حجب الهلال أسراره
أحسبتم السلوان هب نسيمة	أو أن ذاك النوم عاد غراره
إن كان أعيا القلب من هجر الجوى	خذلته من دمي إذن أنصاره

إلى أن يقول واصفاً حبيبته :

(١) عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ، ص ١٧٣

مَنْ قَدْ قَلْبِي إِذْ تَشَى قِدْهُ وَأَقَامَ عَذْرَى إِذْ أَطْلَ عِذَارُهُ
 أَمْ مَنْ طَوَى الصَّبْحَ الضَّيْرَ نِقَابَهُ وَأَحَاطَ بِاللَّيْلِ الْبَهِيمِ خِمَارُهُ
 غَصْنٌ وَلَكِنْ النُّفُوسُ رِيَاضُهُ رَشَاءٌ وَلَكِنْ الْقُلُوبُ عُرَارُهُ
 سَحَرْتُ بِبَدْرِ التَّمَّ غَرَّتْهُ كَمَا أَزَرْتُ عَلَى آفَاقِهِ أَزْرَارُهُ
 وَمَا زَالَ لَيْلُ الْوَصْلِ مِنْ فُتُكَاتِهِ تَسْرَى إِلَيَّ بِعَرَفِهِ أَسْحَارُهُ
 وَيَجُودُ رَوْضُ الْحَسَنِ مِنْ وَجَنَاتِهِ دُمُوعِي فَيَنْدِي رَنْدُهُ وَنَهَارُهُ
 حَتَّى سَقَانِي الدَّهْرُ كَأْسَ فُرَاقِهِ فَسَكِرْتُ سُكْرًا لَا يَفِيقُ خُمَارُهُ
 وَوَقَفْتُ فِي مِثْلِ الْمُحَصَّبِ مَوْقِفًا لِلْبَيْنِ مِنْ حُبِّ الْقُلُوبِ حِمَارُهُ
 حَيْرَانٌ أَعْمَى الطَّرْفَ وَهُوَ سَمَاوُهُ وَأَنَا أَيْ فِيهِ الْقَلْبُ وَهُوَ قَرَارُهُ
 وَلَكِنْ يَذْبُهُ وَهُوَ مِثْوَاهُ مُنْكَمُّ قَدْ أَهْرَقْتُ عَوْدَ الْعَفَاةِ نَارُهُ
 إِنْ يَهْنِهِ أَنِي أَضَعْتُ لِحُبِّهِ قَلْبِي وَذَاعَتْ عِنْدِي أَسْرَارُهُ
 فَلَيْسَ قَلْبِي أَنْ شَكَاهُ وَشَاحَهُ لِسَوَارِهِ فَاقْتَصَّ مِنْهُ سَوَارُهُ (١)

هذه الأبيات تعتبر خير نموذج لفن ابن عمار ولأسلوبه في وصف
 مشاعر الحب والصباية ، وهو أسلوب قد يرضي نقاد عصر الشاعر حيث تغلب
 عليه الصنعة البيانية والمبالغة المملة على حساب العواطف العميقة والتحسس
 الفني ، فلا نحس في هذه الطباقات المتكلفة والجناسات المصطنعة أي
 أثر للشعور الحي والإحساس العميق !

إن هذه الظاهرة لدى كثير من الشعراء المتمكنين من النظم
 لتجلب إليها الانتباه فطما نعرفه عن ابن عمار يدل أنه كان منهمكا
 بالذات مغرما بالنساء ، حساسا تجاه الفلطان فلم لا ينعكس هذا الميل في
 الشعر ! فنه نكاد نلاحظ في الشعر الذي نظمه شاعرنا في هذه
 المناسبات سوى معانٍ مهتذلة وأفكار أخلقها الشعراء إعادته وتكرار .
 ولعلنا نعتذر عن ابن عمار أن يخلص ويبدع وهو لم ينظم هذه الأبيات
 تغزلا بحسنا أو شوقا إلى حبيب وإنما اتخذها وسيلة يبدأ بها قصيدته

لينتقل بعد ذلك إلى غرضه الأصيل وهو الإعراب عن شوقه الشديد لإشباعه ومدحه لمليكمها المعتضد بن عباد .

وكان شعره في اللهو والغزل من أحسن ما قيل في نوعه ، وإن كانت معانيه ككل المعاني ، إلا أن له بهاء في أسلوبه ككل الشعراء الفنيين ، ولقد يقول المعنى فيخيل إلينا أنه شيء جديد .

وكان ابن عمار في مجلس الموءت من هود ، فدخل غلام متدري يستشير الموءت من هود في الخروج لموضع بعثه إليه فطلب منه ابن عمار أن يخلع درعه ويسقيهم الخمر ، فأمر الموءت الغلام أن يطيعه ففعل ، وفي ذلك أنشد ابن عمار متغزلاً بالغلام :

وهويته يسقي الدمام كأنه	قمر يدور بكوكب في مجلس
متأرجح الحركات تندي ريحه	كالغصن هزته الصبا بتنفس
يعسفي بكأس في أنامل سوسن	ويدير أخرى من محاجر نرجس
يا حامل السيف الطويل نجاده	ومصرف الفرس القصير المحبس
اياك بادرة الوغى من فارس	خشن القناع على عذار أطس
جهم وان حصر اللثام فإنها	كشف الظلام عن النهار الشمس
يطغى ويلعب في دلال عذاره	كالمهر يدرج في اللجام المجرس
سلم فقد قصف القناصه النقا	وسطاً بليث الغاب طبي المكس
عنا بكأ سأك قد كفتنا مقله	حوراء قاتمة بسكر المجلس (١)

وله من قصيدة أخرى يتغزل في غلام رومي للموءت ، قد لبس درعا قال فيها :

وأغيد من طباء الروم عاط	بسالفتيه من دمعي فريد
قساً قلباً وسنن عليه درعا	فباطنه وظاهره حديد
بكيت وقد دنا ونأى رضاه	وقد ييكى من الطرب الجليد
وإن فتى تملكه بنقيد	وأهرز رقعة لفتى سميده (٢)

(١) ابن خاقان : قلائد المعيان ، ص ٨٥

(٢) ابن خاقان : قلائد المعيان ، ص ٨٤

وقال يتفزل :

رشاً يَرْنُو بَنْرِجْسَةً وَيَقْطُو
تَشِيرُ إِلَى قُرْطَاهُ وَتُصَفِّي
بَسُوسَانَ وَيَهْسِمُ عَنْ أَقْحَاحٍ
خَلَاخِلُهُ إِلَى نَفَمِ الْوَشَاحِ (١)

وقال في غلام :

تعلقته جهورى النَّجَا
من النَّفْرِ الْبَيْضِ جِرَ الزَّمَا
ولا غرو أن تغربَ الشارقا
ولا وصل إلا جمان الحد
ر حلو اللَّمَى جوهرى الثنايا
ن رقاق الحواشي كرام السجايا
ت وتبقى محاسنها بالعشايا
يث تساقطه من ظهور المطايا
شِنْتُ المثلث للزعفرا
ن وملت إلى خضرة في التقايا (٢)

ومما نلاحظه في هذه المقطوعات الغزلية أن شاعرنا كان حساسا تجاه المخلطان منهمكا باللذات وقد غلب الإرتجال عليه لأن أفعاله كانت تأتي عفوا خاطرووليدة الساعة كما يغلب عليها الخيال واستخدام الألفاظ التي تتضافر على بناء الصور الشعرية التي تروق لحساسة أو أكثر الحواس . ففلامه قمر يدور في المجلس خفيف الحركة ويمشي في دلال وكأنه المهر يدرج في اللجام المجرس . ولم يقتصر تفزل ابن عمار بالفلمان فحسب بل كان مفرما بالنساء ، قال يتفزل بحسنا :

وما لحمام الايكَ تكيك كَلَمَا
تُفْنِي فَمَا تَنْفَكُ تَشْرَبُ نَفْبَةً
تَسْمُ تَفْرُ للصباح شَنِيبُ
من الدمع يهديها إِلَيْكَ وَجِيبُ
فتاة عداها الحسن حتى كأنها
هي الحسن أو الْفُ عليه حبيبُ
فممين كما عين المها ومقلد
كما ارتاع طيبي بالفلاة غريبُ
وردف كما انهال القضيبي وضمه
وشاح كما غنى الحمام طروبُ
وشفر كمثل الأقحوان يشوبه
لي حسنات الصير عنه ذنوبُ (٣)

(١) ابن خاقان : قلائد الحقيان ، حر ٨٤

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٣٩ "

(٣) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٢٦ "

لفاتكة الأَحَاطِرُ وهي عَلِيلَةٌ وناعمة الأعْطَافِ وهي قُضِيبٌ
 كسا الخَجَلُ المَعْتَادَ صَفْحَةً خَدَّهَا رِداء طرازاه ندى ولَهَيْبٌ
 ودبت من الأَصْدَاغِ فيه عَقَارِبُ لَهَا فِي فَوَاهِ الْمُسْتَهَامِ دَبِيبٌ
 أَمَا وَنَسِيمُ الرُّوحِ زَارٌ نَسِيمُهَا فَأَهْدَتْهُمَا نَحْوَ الْمَشُوقِ جَنُوبُ (١)
 نلاحظ أنه يضفي كل صفات الحسن على فتاته فصيونها عيون المها وشرها
 مثل زهر الأقحوان عند تفتحه ، فاتكة العيون ، ناعمة الأعطاف ، رقيقة في
 أحاسيسها ، يعلو صفحة خدها الخجل ما يزيد جمالاً في فواه
 المستهام ، كل ذلك في صور متناسقة ومعبرة ، وهو نوع من الإفتنان في
 الفزل وأساليبه .

وقال يتفزل في جارية اسمها نعى .

نَفْسِي وَإِنْ عَذَّبَتْهَا تَهَوَّكُ وَيَهْزُهَا طَرْبٌ إِلَى لُقْيَاكِ
 عَجَبًا لِهَذَا الْوَصْلِ أَصْبَحَ بَيْنَنَا مَعْتَذِرًا وَمُضَايَ فِيهِ مُنَاكِ
 مَا بَالُ قَلْبِي حِينَ رَأَيْتُكَ لَمْ يَنْلُ وَلَقَدْ تَرَوْتُكَ مَقْلَتِي فَتَرَاكِ
 اللَّهُ أَعْلَمُ مَا أَزُورُ لِحَاجَةٍ ذَاكَ الْمَحَلَّ لِغَيْرِ أَنْ أَلْقَاكِ
 لَيْتَ الرَّقِيبَ إِذَا التَّقِينَا لَمْ يَكُنْ فَأَنَالَ رِيًّا مِنْ لَذِيذِ لَمَّاكِ
 مَتَرَهَا فِي رَوْضِ خَذِكِ شَارِبًا كَأَنَّ الْفَعْمُورَ تَدِيرُهَا عَيْنَاكِ
 حَكَتِ الْفُصُونَ جَمَالَ قَدْرِكَ فَانْثَنَتْ وَالْفُضْلُ لِلْمَحْكِي لَا لِلْحَاكِي
 لَا تَغْرِيبِي يَا رَوْضَةً مَطْمُورَةً حَتَّى أَمُدَّ يَدِي إِلَى مَجْنَاكِ (٢)
 فالشاعر في شوق إلى لقاء جاريته ويتمنى أن يلقاها ليتمتع بجمالها وهو
 لا يزور ذلك المحل إلا ليلقاها ثم يصف جمالها ويحن إلى قطف ثمار
 روضها المثمر في أسلوب سهل ومعمانٍ يخيل إلينا وكأنها شيء جديد .

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٢٦ "

(٢) ابن الأثير في الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٦٤

الهجاء

=====

الهجاء ضد المديح . ولما كان المدح الجيد المصيب إنما يكون بالفضائل النفسية ، كذلك الهجاء الجيد إنما يكون بسلب هذه الفضائل .

والهجاء غرض هام من الأغراض التي اتجه إليها الشعر ، وله شعراء في هذا العصر عرفوا به ، نعد منهم " خلف بن فرج الألبيري " - السمسير - وله في الهجاء كتاب " شفاء الأغراض في أخذ الأعراض " (١) والفقير الزاهد ابن المسال ، وغالب بن رباح المعروف بالحجاء ، والعميان الثلاثة : أبا بكر محمد المخزومي الأعشى ، المكنى بشار الأندلس ، والنحوي الشاعر الكفيف محمد بن عبدالله المعروف بابن الأصغر ، وعلي بن عبد الفني الكفيف - الحصري - وأبا جعفر البني وحكم بن محمد - ذخيرة الدولة - وابن سارة الشنتريني ، وشاعرنا ابن عمارة وغيرهم كثير . ولو أن صاحب الذخيرة - وهي المرجع الأساسي لشعر هذا العصر أباح لنفسه أن يذكره في مؤلفه لوجدنا منه الكثير ولكنه تدم من إدراج أشعار الهجاء في كتابه ، ولذلك فإن صورة الهجاء لا تعد مستوفاة أو واضحة .

ويقسم ابن بسام صاحب الذخيرة الهجاء قسمين : قسم يسميه هجاء الأشراف ، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً ولا هجاءً مستشهماً وإنما هو توبيخ وتعبير .

والقسم الثاني الهجاء الفاحش الطيء بالقذف والسياب ، مما يؤذي المشاعر ، ويبيح الإشمئزاز في النفوس . والعجيب أننا نرى شاعرات الأندلس قد تورطن في هذا الهجاء القبيح ، ومن هؤلاء نزهون بنت القلاعي ، (٢) وولادة بنت المستكفي الأموية . (٣)

(١) سعد شلبي : البيئة الأندلسية وأشهرها في الشعر ، ص ٤٦٩
(٢) مصطفى الشكعة : صور من الأدب الأندلسي ص ٢٣٠ ، ص ١٣١
(٣) نفس المرجع ، ص ١٥٨ ، ١٥٩

والمهاجاة التي قامت بين أبي بكر المخزومي ونزهون بنت القلاعي دليل على مستوى هذا الهجاء.

وانقسام الدولة إلى دويلات متعادية ، وتنافس الأدباء حول الطوك وازدياد الشعراء ونقص موارد الدولة نتيجة للحرب والمنازعات ، وفوز فحول الشعراء بالمعطايا ، واحتيال المنتهزين بالمجون ، جعل هؤلاء أنفسهم يتحاسدون ويتهادون ، وجعل صفار الشعراء الذين كسدت بضاعتهم ، وسكنت ريحهم يحسدون غيرهم من الناجحين حيناً ، ويلعنون ذوي النفوذ والسلطان أحياناً ، أسرفوا في سخطهم فاتجهوا إلى الأقدار يصبون عليها جام غضبهم ونقمتهم ، ويلقون عليها مسوؤلية الفشل في حياتهم . ومن خلال الهجاء الأندلسي تطالعنا عدة اتجاهات لهذا الفن عندهم .

فمن هذه الاتجاهات هجاء الطوك والحكام ، وزعيم هذا الاتجاه أبو القاسم ابن خلف السميصر ، وابن ساره الشنتريني (١) وقد أسهم شاعرنا ابن عمار في هذا المجال حيث هجا طوك وأمرأ الأندلس وعلى رأسهم ولي نعمته المعتمد بن عباد وزوجه إعتاد الرميكية مما أثار غضب سيده وزوجه التي ظلت تذكره بأبيات ابن عمار حتى أدى به ذلك إلى مصيره المحتوم .

يقول ابن عمار في هجاء المعتمد وذويه :

أناخوا حملاً وهازوا جملاً	ألا حيّ بالفرب حيّاً حملاً
ونم فمسي أن تراها حياً	وعرج بيومين أم القُرى
ولم تزل النار فيها اشتعالا	لتسأل عن ساكنيها الرماذ

ويذهب إلى أبعد من ذلك فيتناول إعتاد الرميكية زوج المعتمد ويصفها وأولادها بأقبح الصفات :

حميت الحمى وأبحت الميلا	أيا فارس الخيل يا زيدها
وقد ما عهدت أن تهوى الرجالا	أراك تورى بحب النساء
ن رميكية ما تساوى عقالا	تخيرتها من بنات الهجا
ر لئيم النجارين عمّا وخالا	فجاءت بكل قصير العذا

(١) احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)

بصفر الوجوه كأن استهـا رماهم فجاءوا حيارى كسالا
 قصار القدود ولكنهم أقاموا عليها قروناً طوالا
 ويتلو ذلك بهجاء مقذع ، شديد الإقذاع للمعتمد نفسه فيصفه بأقبح
 الصفات وينعته بأبشع النعوت :
 أتذكر أيا منا في الصبا وأنت إذا لحت كنت الهلالا
 أعانقُ منك القضيب الرطب بـ وأرشفُ من فيك ماء زلالا
 وأتبعُ منك بدون الحرا م فتقسم جهدك أن لا حللا
 سأكشفُ عرضك شيئا فشيئا وأهتكُ سترك حالاً فحالا (١)

ويذكر مؤرخو الأدب الأندلسي أن ابن عمار حرض على أن لا تتجاوز
 هذه الأبيات خاصته المقربين إليه ، فقد كان على اعتداده بنفسه
 يخشى غضب المعتمد ، إلا أن القصيدة قد تسربت لابن عبدالعزيز أمير
 بلنسية فأرسلها هذا بدوره سرعا إلى المعتمد ، فما مرت فرصة أحسن من
 هذه لإثارة حقد ابن عباد على عدوه اللدود . فما كادت تصل القصيدة
 إلى يدى المعتمد حتى أثارت حفيظته وألهبت غضبه وأضرت حقه وقضت
 على آخر ما تبقى من ذكريات صداقته لوزيره القديم .

وكان شأن اعتماد ، التي خصها ابن عمار في قصيدته بنصيب وافر
 من سبابه وشتائمه بشأن زوجها ، بل وربما كان حقد ها أعظم أثرا وأقوى
 جذورا . وقيل أن ابن عمار لم ينظم هذه الأبيات وإنما قيلت على
 لسانه (٢) لإثارة غضب المعتمد واضرام نار الحقد في قلبه ، وذكر أن ابن
 عبدالعزيز هو مدبر هذه المكيدة وملك هذه التهمة .

ولكننا نرجح أن ابن عمار قال هذه الأبيات فعلا فهي تتلائم مع
 نفسيته ، وينسجم أسلوبها وأفكارها مع أسلوبه وأفكاره ، ثم أن المعتمد ذكر
 بصراحة ووضوح في رسالة بعث بها لأحد معارفه من الحكام أن ابن عمار قد

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٥٩ "

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٥٧

أسرف في الكلام القبيح والسباب الشائن لحد لا يمكن التفاضل عنه. (١)
ولا نعتقد أن هجاء ابن عمار لابن عباد كان يصل لهذه الدرجة من
الخطورة لو لم يكن بهذا الشكل الذي رأيناه في هذه القصيدة .

ومما ينسب إلى ابن عمار قوله في هجاء المعتمد وأبيه المعتضد :

ما يقبحُ عندي ذكرُ أندلس سماعُ معتضدٍ فيها ومعتدٍ

أسماءُ ملكةٍ في غيرِ موضعها كالمهرِّ يحكي انتفاهاً صولةً الأسدِ (٢)

ونسب المقرئ هذين البيتين إلى ابن رشيق القيرواني، (٣) ولكننا نرجح

مع المقرئ أن هذين البيتين لابن رشيق القيرواني، وأن ابن عمار استشهد

بهما عند هجائه للمعتمد وأبيه المعتضد .

وله هجاء لأهل سرقسطة أثناء منفاه يتحامل فيها عليهم فيقول :

وصحبة قومٍ لم يهذب طبايعهم لقاءً أديبٍ أو نوارٍ عالمٍ

صعاليكُ هاموا بالفلا فتدعوا جلودَ الأقاعي تحتَ بيني النعائم

ندامى ولا غير السيوفِ أزاخرى لدِيهم ولا غير الغمودِ كعائمي

وما حالٌ من ريتهُ أرضُ أعرابٍ وألقت به الأقدارُ بين الأعاجم

يقبحُ لي قومٍ مقامي بينهم وقد رسفت رجل السرى في الأُداهم

يقولون لي دع أيدي العيسِ إنها توءى إلى أيدي الطوكِ الخضارم

فدِيتهم لم يبعثوا حرص عاجزٍ ولا نهوا إن نهىوا طرفَ نائمٍ

ولكنها الأيامُ غيرُ حوافلٍ بأربٍ أريبٍ أو هزامةٍ حازمٍ (٤)

فابن عمار يشكو من كل شيء ، من صعوبة العيش وجهاء الناس وجهلهم

وما يحيط به من دسائس ونمائم ويهجو أهل سرقسطة هذا الهجاء المقذع

فهو يجمع بين غزارة الشعور وتدفعه ، ويعبر عما في نفسه تجاه أهل

سرقسطة وما عاناه منهم تعبيرا صادقا ولديه لهفة إلى العودة إلى حياته

الأولى في إشبيلية حيث اللهو والطرب حول صديقه المعتمد بن عباد .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ١٥٦

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٥٥

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٩

(٤) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٩ "

ويفضب ابن بسام لتحامل الشاعر على أهل سرقسطة هذا التحامل
العنيف وهجائهم هذا الهجاء اللاذع فيقول " ما ينقضي عجيبي من ابن
عمار أن ينكر تلك الهيئة على أهل ثغراً أبناء قتلى وبقايا أسرى فلما
خلوا من هيعة النصارى إذ مسافة ما بينهم أقصر من إبهام الحبارى ،
ويلد هم مجر عواليهم وموقد صاليهم ومحقق أعلاهم ودربة سهاهم (١)
وقال في هجاء ابن عبد العزيز أمير بلنسية عندما نكت الأخير
العهد الذي عاهد عليه ابن عمار وهو التخلي عن أحد الحصون لقاء
إطلاق سراح ابن طاهر :

جاء الوزير بها يكشف ذيلها	عن سوءٍ سوى وعارٍ عارٍ
نكت اليمين وحاد عن سنن التقى	وقضى على الإقبال بالإدبار
أوى لينصر من نبا المثنى بو	وداه خذلان من الأنصار
بر اليمين ولم يمرر نفسه	ونقوسكم لمصارع الفجار
ما كنتم إلا كامة صالح	فرماكم من طاهر بقدر
هذا وخصكم بأشأم طائر	ورعى دياركم بأسوأ جار
لا بد من مسح الجبين فإنما	لطحته غدرا غير ذات سوار
ميهات يطمع بالنجاة لطالب	ساع إذا ولت الكواكب سار
كيف التفلت بالخدعة من يدى	رجل الحقيقة من بني عمار (٢)

نلاحظ في هذه الأبيات أن الفضب أخذ من ابن عمار كل مأخذ فنظم
هذه القصيدة ضمنها كل حقه على ابن طاهر وابن عبد العزيز منددا
بهما ومتهما إياهما بشتى التهم ، ولا سيما بنقض العهد والوعود ، ولم
يكتف بذلك بل هدد بالويل والبشور ويدعو أهل المدينة إلى الثورة ضد
حكامها :

يا أهلها من غائب أو حاضر	وقطينها من حاضر أو سار
جازوا بني عبد العزيز فأنهم	جروا إليكم أسوأ الأثدار

(١) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ص ٢٣٩

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٥٦

ثوروا بهم متأولين وقلدوا ملكاً يقوم على العدو بنار (١)
وينتقل في البيت الأخير للفخر بنفسه ، ولعل هذا البيت أحسن ما
تحتويه القصيدة إذ تلوح من خلاله بوضوح غطرسة ابن عمار وكبريائه
واعتداده بنفسه .

وكان له أيام تمرده بمرسية خاتمان ، أحد هط للمعتمد والإختر للأد فونيس
السادس ، فتندر بذلك الوزير ابن عبد العزيز وابن طاهر ، فلما وصل
خبر ذلك إلى ابن عمار قال يهجوهُ :

قل للوزير وليس رأى وزير	أن تتبع التدبير بالتدبير
إن الوزارة لو سلكت سبيلها	وقف على التعزيز والتوقير
وأرى الفكاكة جُلَّ ما تأتي به	رُحماك في التعجيز والتصدير
بلغت دعابتك التي أهديتها	في خاتم التأمين والتأمير
وأظنُّها للطاهري فان تكن	فجديرة التقديس والتطهير
ولعلَّ يوماً أن يصير نقشه	في طيبة التطيب والتنزير
فرسا رهان أنتما فتجاريا	لنقول في التقديم والتأخير
وإذا سلكت سبيله فحقيقة	كي تتبع التطفير بالتصفير
وترى بلنسية وأنت قدارها	سينالها التدمير من تدمير (٢)

نلاحظ في هذه الأبيات أن أفكار ابن عمار جاءت مضطربة حاول سردها
قاصدا الإفراط في السب والإغراب في الهجاء والتحقير ، ولكن قيمتها في
حياة الأديب ذات أهمية بالغة ، إذ أنها كشفت عن ناحية مهمة من نفس
ابن عمار ورسمت لنا صورة عن حاله مع أمراء الطوائف المسلمين وموقفه منهم .
ولكن شاعرنا الذي كان يعرف حق المعرفة حال ملوك الطوائف
آنذاك ، لم يكثر كثيرا بفضيهم أو رضاهم ، فانطوى على نفسه يتمتع بملكه
الجديد في مرسية ويعب كوءوس المتعة واللهو بكل وسائلها المتيسرة

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٩ "

(٢) ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ٢ ص ١٤١

وسبلها المعروفة ، وابن عمار كما عرفناه ، شديد التعلق بالخمير ، قوى الميل
للمجالس الانس وما نبيها من لهو وطرب منعطف نحو اللذات الحسية لا تكاد
تفوته منها واحدة ولعل إحساسه بأنه بعيد عن متناول أيدي أعدائه شجعه
على الإنصراف إلى لهوه وعيشه وأنسه .

وحين مقامه بسر قسطة بلغه أن أهلها يعيرون عليه معاقرة الراح فقال

يهجوهم :

نقمتم عليّ الراح أد من شربها وقلتم : فتى لهو وليس فتى جد
ومن ذا الذي تاد الجياد إلى الوغى سوى ومن أعطى الكثير ولم يك
قد يتكم لو تعلموا السرّ أنـه قليتكم جهدي فابعد تكم جهدي (١)
نلاحظ أن شاعرنا يدافع عن نفسه ويذكر ماثره ، ويفتخر بنفسه ، ومع ذلك فقد
برع في المجون ، وكان شعره أصدق منه في غيره وأجمل ديباجة وأسلوباً لأنه
صادق عن شعور صادق وله في ذلك خيالات ومعان جميلة .

وللشاعر مقطوعات قصار في هجاء العامة منها هجاء مفن يكتي أبا الفضل :

غنى أبو الفضل فقلنا له سبحان مخليك من الفضل
غناؤه حدّا على شربها فاعرب فانت اليوم في حلّ (٢)

وقال أيضا يهجو شخصاً اسمه مسلم :

روائح مسلم قدرة وأقصى دبره دسره
وأدخل فيه أصبحه قاس بناته العشرة
فلم يمكن وصول الدهن دون تجاوز الكمره
وهذا عذر مأبـون أبوه سارق البقرة (٣)

فهذه المقطوعات ليس فيها سوى طائفة من الأفكار المضطربة حاول الشاعر
سرد ما قاصدا الهجاء والإفراط في السب والإغراب في التحقير .

(١) ابن خاقان : قلائد الحقيان ، ص ٨٤

(٢) الصمد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، ج ٢ ص ٨١

(٣) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٣٥ "

الشكوى والاستعطاف

=====

نستطيع أن نسلك هذين الفنين في نسق واحد عند ابن عمار
لأنه كان يشكو في عتابه ويحسب في شكواه ، ومعظم قصائده في هذا
الباب تتبع من محنته أيام سجنه أو نفيه عن إشبيلية .

والشكوى قد تنبعث عن مزاج سوداوى يضيق بكل أمر ويتبرم بكل
شأن لا نظرا وتفكير وانما قلق واضطراب ، وقد تكون منبعثه عن نظرة
فلسفية عميقة تضيق بأوضاع الحياة وما تنتهي إليه من مصير رهيب ،
والشكوى في هاتين الحالتين لا ينبعث عنها العتاب وان العتاب ينشأ
عن أمل في الإصلاح أو ترقب للخير وكلاهما سمة من سمات التفاؤل لا
القتوط ، والشكوى عند شاعرنا لا تصدر عن نظرة فلسفية عميقة ولا عن
مزاج سوداوى مضطرب ، فليس ابن عمار فيلسوفا متشائما وليس سوداوى المزاج .
وإنما هو رجل مقبل على الحياة ينهل لذاتها وينعم بمصراتها ما
دامت مواتية ، فاذا حالت بينه وبين لذاته الحوائل أو حلت به النكبات
جأ بالشكوى ، فاذا تحسنت أحواله انقطع عن الشكوى والآنين وعاد إلى
الانغماس في الترف والنعيم ، وهو في شكواه يوجه عناية إلى من بيده إزالة
الشكوى أو من يستطيع التوسط في إزالتها .

ولما كانت شكوى شاعرنا وعته يدوران حول محنته حين زج به إلى
السجن في شقورة أو في إشبيلية عندها بدأ يوجه شكواه إلى أصدقائه في
مختلف ممالك الأندلس أحيانا وإلى المعتمد وأولاده في بعض الأحيان .
ولقد بدأ شاعرنا يث أنينه وشكواه منذ نفاه المعتضد إلى سرقسطة
وأرسل بقصائده إلى صديقه ابن زيدون لعله يشفع له لدى مليكه المعتضد
ابن عباد فقال :

تأملت منك البدر في ليلة الخطب ونلتُ لديك الخصب في زمن الجذب
وجردتُ من محروسِ جارك مرفقا تولت به خيلُ الحوادث عن حرب
وما زلتُ من نعماك في ظلِّ لذةٍ تذكرني أيامها زمنُ الحبي

إذ العيشُ في أغْياءِ ظلكِ بارئٍ فمن مرتعِ خصبٍ إلى موردٍ عذبٍ
 أحين سقى صوبَ اعتنائكِ ساحتي فنعمها واهتز روضي في تربي
 ثيت لعطفٍ قد ثيت مدائحي عليه وسرب قد بدلت به سربي
 أما أنه لولا عوارفك التي جرت في جري الماء في الفصن الرطب
 لما نوت طير الودِّ عن شجرِ القلى ولا صنت وجهَ الحمودِ عن كلفِ العتبِ
 ولكني سأكفي بالوفاء عن الجفا وأرضي ببعد بعدما كان من قرب
 وإن لفحتني من سماءك حرجفٌ سأهتفُ يا برِّك النسيم على قلبي
 وإنني إذا قلت جاهدك مطلبتي وأخفت فيه قلت يا زمني حسبي
 أيطلم في عيني كذا قمر الدجى وتنبو بكفي شفرة الصارمِ المضبِ (١)
 أما القصيدة الثانية ففيها من الإبداع الشعري ما يلفت النظر ويجلب الانتباه
 ومطلعها :

كيف اعتززت على الليلِ وقطعت أسبابَ الوصولِ ؟

وفي القصيدة عتاب مريب وشكوى قارصة من موقف ابن زيدون تجاه صديقه
 القديم برغم ما يجمعهما من ذكريات وما تمتعا به مشتركين من سويعات .

أبرزت في خلقِ الكرى	م وراءه خلقُ البخيلِ
ودعوتني حتى أجب	تُك ثم حِدَّت عن السبيلِ
جُدُّ بالقليلِ فإنَّ نفـ	سي منك تقنعُ بالقليلِ
وانكز على زمنٍ قلعـ	ناه بصافية شمسـ
إن نسحبُ الأذيالَ ما	بينَ الخليجِ إلى النخيلِ
ونحلُّ من سيفِ الفديـ	ر بقيةِ الظلِّ الظليلِ
والروضِ مطوّرٍ تنمـ	عليه أنفاسُ القبـ
والشمسُ ترمقنا خـلالـ	الغيمِ عن طرُقِ كليلِ
أيان يحدو الرعدُ من	ورقِ السحابِ كالحمـ
ويهرزُ كفَّ البرقِ فـي	الاتفاقِ مرهقةِ النـ

زمنٌ ستبكيه الحمامُ معي وتذهل عن هذيل
يا برقُ أُرِّ رسالتني تفديك نفسي من رسول
عرجٌ بثلب محيياً ما شئت من تلك الطلول
واطلع على شرفات حمص قرارة الشرف الأثيل
فإذا اجتلاك ابوالوليد بناظر اليقظ النبيل
فاقرأه من قلبي سلاماً يقتضي حسن القبول

ثم يمضي الشاعر بعد ذلك في مدح الوزير طالبا منه الشفاعة لدى
الملك المعتضد :

اشفع عنايتك الجليّة لي لدى الملك الجليل
ولئن أحبت لراغب وأقلت عشرة مستقيـل
فلكم أبيت بمثلهم وهي الصنيعة من مثلي
يا أنسَ بدرٍ في الطلا م وبرد ظلٍ في المَقِيل (١)

وواضح أن في هذه الأبيات قوة التركيب ومثانة التعبير بتفجير من
الألفاظ فينفذ إلى النغوس ، شيئاً نستطيع أن نقول أنه جزء من نفس
الشاعر نجح في أن ينتزعه انتزاعاً ويصله بإحساسنا ، فشعرنا به دون أن
نستطيع تميزه بوضوح .

وعندما فشل شاعرنا في حملته الأولى على مرسية ، أخذت تملأ نفسه
المرارة والخيبة ، فقد فشل مشروعه بعد أن أنفق في سبيله ما أنفق من
جهته ، وفقد من الجهة الأخرى ثقة مليكه ورضاه ، ومن المحتمل أن لا يصل
الأم والقلق بآبن عمار إلى هذا الحد لو لم يكن في مثل هذا الموقف الحرج
يمصر قلبه الخذلان وتملاءه مرارة الهزيمة .

ولنترك أبيات الشاعر نفسها تصف لنا النزاع الذي كان يعانيه والصراع
الذي يتجاذبه والقلق الذي كان يملك عليه نفسه ويستحوذ عليه إن يقول :

أأركبُ قصدي أم أعوج مع الزكبر ؟ فقد صرْتُ من أمرى على مركبٍ صعب
وأصبحتُ لا أدرى أفي البُعدِ راحتي فأجعلُه حظي أم الخيرُ في القرب ؟

على أنني أدرى بأنك مؤثرٌ على كلِّ حالٍ ما يزحزحُ من كربي (١)

فشاعرنا على رغم تردده وقلقه ، يدرك أن الملك أقرب إلى العفو عنه والتجاوز عن إساءته ، بل انه لا يتصور أن المعتمد يمكن أن يقف غير هذا الموقف أو يسلك معه غير هذا المسلك ، فهو على رغم جريته التي سببها الحظ العاثر لم يخن الملك أو يقيم بحمل يقصد به النيل منه واضعاف سلطانه ، كما لم يكن ضعف الرأي أو العجب والكبرياء سبب نكبتة وإنما هي ظروف أقوى منه وأشد بأسا من رأيه وتدبيره :

أَيُظْلِمُ فِي عَيْنِي كَذَا قَمَرُ الدَّجَى ! وَتَتَوَبَّكُنِي شَفْرَةُ الصَّارِمِ الْمَضْبِ !
حَنَانِيكَ فِيمَنْ أَنْتَ شَاهِدٌ جِدِّهِ وَلَيْسَ لَهُ حَاشَا أَنْتَ صَاحُكَ مِنْ حَسْبِ
وَمَا جِئْتَ شَيْئًا فِيهِ بَغْيٌ لَطَالِبِ يَضَافُ بِهِ رَأْيِي إِلَى الضَّعْفِ وَالْعَجَبِ
سَوَى أَنَّنِي أَسْلَمْتُ لِي لُطْمَاسٍ فَلَلَّتْ بِهَا حَدِّي وَكَسَّرَتْ مِنْ غُرْبِي
أَمَّا إِنَّهُ لَوْلَا عَوَارِفُكَ التِّي جَرَتْ فِيَّ جَرَى الْمَاءِ فِي الْفَصَنِ الرُّطْبِ
لَمَا سُمْتُ نَفْسِي مَا أَسْوَمُ مِنَ الْأَدَى وَلَا قَلْتُ إِنَّ الذَّنْبَ فِيمَا جَرَى ذَنْبِي
سَاسْتَمْنَحُ الرَّحْمَى لَدَيْكَ صَرَاعَةً وَأَسْأَلُ سَقِيًّا مِنْ تَجَاوُزِكَ الْعَذَابِ
وَلِنْ نَفَعْتَنِي مِنْ سَمَائِكَ حَرْجَفٌ سَأَهْتَفُ يَا بَرَكَ النَّسِيمِ عَلَى قَلْبِي (٢)

تعتبر هذه الأبيات ذات قيمة تاريخية ، لأنها تعكس لنا مرحلة من مراحل العلاقة بين المعتمد ووزيره علاوة على قيمتها الأدبية التي لا يتطرق إليها الشك . ولعل مصدر هذه القيمة ، هي أن الشاعر لم يقصد اللعب بالألفاظ و اظهار براعته في رصف الكلمات وزخرفة العبارات واستعمال المحسنات البديعية ، بل أراد التعبير فعلا عن شعور عميق كانت تضج به نفسه و يفيض به قلبه ، كان يريد أن تنعكس في كلماته مشاعر الألم والخوف والخيبة والحذر والرغبة في استرضاء الملك وكسب وده ، كان يريد أن يبهز مشاعر المعتمد ويجلب إعجابه

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٣٧

(٢) نفس المصدر : ص ١٣٨

ويستدل على أنه ، ولذلك استكملت القطعة الأدبية عناصرها الأصلية وهي
مضمون قيم ناضج ، في شكل رائع منسجم .

وقد كان لهذه المقطوعة أثرها في نفس الممتد فأجابه قائلا :
لديّ لك المتيّ تَزَاحُ عن المَتَيِّ وسعيك عندي لا يضاف إلى ذنب
وأعزُّ علينا أن تصيِّك وحاشةً وأنسك ما تدر به فيك من الحيِّ
فدع عنك سوء الظنِّ بي وتعدّه إلى غيره فهو الممكَّن في القلب
قريضك قد أبدى توحُّشَ جانبٍ فجاءت تأنيسا وعلمك بي حسب
تكلفته أبغى به لك سلوةً وكيف يمانى الشعر مشتركاً للبي؟ (١)

ومما يتصل بهذه الأبيات والتي سبقتها أبيات أخرى تشابهها في الوزن
والروى ، بل إن مؤرخي الأدب كثيرا ما خلطوها بعضها ببعض الآخر
وأوردوها في المناسبة نفسها ، ولا نجد غير ابن الأثير وحده يميزها
من الأبيات السابقة ، ويذكر نقلا عن أحد جامعي ديوان ابن عمار أبي
الطاهر التميمي أنها قيلت في حال أوجبت إياها بين الممتد ووزيره ،
وهي لا تقل عن الأبيات السابقة من حيث قيمتها الأدبية (٢) ، وتكاد

تعكس نفسا تشبه تلك النفس التي جادت بالأولى ، قال ابن عمار :
أَصْدَقُّ ظَنِّي أَمْ أَصِيحُّ إِلَى صَحْبِي وَأَقْضِي غَرِيمِي أَمْ أَعُوجُّ مَعَ الرَكْبِ ؟
إِذَا انْقَدْتُ نَحْيَ رَأْيِي مَشَيْتُ مَعَ الْهَوَى وَإِنْ أَتَعَقَّبَهُ نَكَصْتُ عَلَى عَقْبِي
وَإِنِّي لَتَتَّيْنِي إِلَيْكَ مَوَدَّةً يَفْيِرُهَا مَا قَدْ تَعَرَّضَ مِنْ ذَنْبِي
فَمَا أَغْرَبَ الْإِيَّامَ فِيمَا قَضَتْ بِهِ تَرِينِي بَعْدَى عَنْكَ آتَسَ مِنْ قُرْبِي
أَخَافُكَ لِلْحَقِّ الَّذِي لَكَ فِي دَمِي وَأَرْجُوكَ لِلْحَبِّ الَّذِي لَكَ فِي قَلْبِي
وَكَمْ قَدْ فَرَّتْ يَمْنَاكَ بِي مِنْ ضَرِيبةٍ وَلَا غَرَوْ يَوْمًا أَنْ يُفْلَلَ مِنْ غَرْبِي
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَفْوَ مِنْكَ سَجِيَّةٌ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَخَفِّفَ مِنْ عَثْبِي
وَلِي حَسَنَاتٌ لَوْ أَمْتُ بِبَعْضِهَا إِلَى الدَّهْرِ لَمْ يُرْنَعْ لِنَائِبَةٍ سَرْبِي (٣)

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٣٨

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٧

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٦

ويبدو ابن عمار في هذه الأبيات ، والتي ربما تكون قد قيلت في هذه المناسبة أو في أخرى مثلها ، على رغم قلقه وتردده ، أريط جأشاً وأشد ثقة بنفسه ، بل انه يمتن على الملك بமாثرة وأعماله ويذكره بخدماته وحسناته التي يذكرها له الدهر . وعلى هذه الأبيات أجابه المعتمد بقوله :

تقدم إلي ما اعتدت عندي من الرحب ورث تلقك المتبى حجاباً عن المتبى
متى تلقني تلق الذي قد بلكوته صفوفاً عن الجاني رؤوفاً عن الصاحب
سأوليك مني ما عهدت من الرضى وأصفيح عما كان إن كان من ذنب
فما أشمر الرحمن قلبي قسوة ولا صار نسيان الأكمة من شعبي
تكلفته أبغي به لك سلوة وكيف يعاني الشعر مشترك اللب (١)

وهذه الأبيات وجدناها كثيراً ما تختلط لدى المؤرخين مع الأبيات السابقة وتمتزج بها بحيث يصعب إثبات ما قيل منها في هذه المناسبة أو لم يقل فيها . ولكن ما نستطيع تأكيده هو أن روحاً واحدة تتخللها وتكسيها قيمة أدبية مقاربة ، مصدرها شعور الشاعر المتدفق واخلاصه في التعبير ومقدرته عليه .

وكان في جواب المعتمد لابن عمار ما يطمئنه ويبعث في نفسه الثقة برضاه وعفوه . فيقدم إليه وينال الصفيح منه .

وعندما استقل ابن عمار بمرسية بعد أن نما لديه شعور بقوته واعتداده بنفسه ، غاثبه المعتمد متمثلاً بالبيتين التاليين :

تغير لي فيمن تغير حارث وكل خليل غيرته الحوادث
أحارث إن شورك فيك فطالما نميماً وما بيني وبينك ثالث

أجابه ابن عمار بقصيدة من خيرة قصائده يتنصل فيها من سوءولية التمرد ويلقي تبعثها على النمامين والخبيثاء ، ويحاول أن يستعيد ثقة المعتمد به ، مظهراً في الوقت نفسه خدماته الجليلة للملك وتضحياته السابقة في سبيله ، وليس في هذه القصيدة اعتذار وأسف وإنما فيها عتاب :

لك المثل الأعلى وما أنا حارثٌ ولا أنا ممن غيَّرتُ الحواريثُ
 ولا شاركك الشمسُ في وإنه لينأى بحظي منك ثانٍ وثالثُ
 قد يُنك ما للبشر لم يسر برقه ولا نفحت تلك السجاياء دماثُ (١)
 ثم يشير شاعرنا إلى أن الوشايات والنمائم هي التي سببت هذه القطيعة
 وأوجدت سوء الظن ، ويعود بعد ذلك ليذكر المعتمد ملك إشبيلية بخدماته
 السابقة وتضحياته الكثيرة في سبيل تقويم دعائم مملكته وتوسيع رقعتها
 فصاحبه على عدم تقديره لخدماته ومكافأته على تضحياته .
 يقول ابن عمار :

أبعد مضت خمس وعشرون حجة تجافت بنا تلك الخطوب الكوارثُ
 مضت لم ترُبْ مني أمور شوائبٌ ولا تليتْ عني مساعٍ خبائثُ
 حللت يدًا بي هكذا وتركتني نهابًا وللايام أيدٍ عوابثُ
 وهل أنا إلا عبدٌ طاعتك التي إذا مت عنها قام بعدى وارثُ! (٢)
 إن هذه القصيدة تعكس لنا أفكار الشاعر وعواطفه وأحاسيسه تجاه المعتمد
 بل إننا نلمس من خلالها حالة الشاعر النفسية وموقفه الحقيقي من ملكه ،
 كل ذلك بأسلوب متماسك ينسجم مع غايات الشاعر وقصده من نظم الابتيات .
 هكذا تكاثرت قصائد التوسل والإستعطاف طيلة مقام ابن عمار في
 السجن إلى المعتمد وأبنائه ومن يلمس منه المساعدة والتأييد ، ولدنيا
 منها ثلاث قصائد تستحق كل عناية واهتمام لما فيها من شعور عميق وإحساس
 فياض أوجدتهما حال ابن عمار الباعسة وخوفه من الموت .

أما أولى هذه القصائد فقد بحث بها الشاعر إلى الرشيد بن المعتمد :

قل لبرق الفمام ظاهر بريدى قاصداً بالسلام قصر الرشيدِ
 فتقلب في جوه كفوء ادى وتناثر في صحنه كالفريندِ
 وانتحب في صلاصل الرعد تحكي ضجتي في سلاسل وقيدى
 فانا ما اجتلاك أو قال ماذا قلت : إني رسولُ بعض العبيدِ

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٤٣

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٤

بعض من أبعدته عنك الليلي فاجتني طاعة المحب البعيد
فجزاك الإله من ملك حر ريقاً التمكين والتهميد
من مطيع عهد الوفاء مطاع وودود على النوى مودود
نلاحظ أن شاعرنا كان مضطرباً أشد الإضطراب فاختلطت إحساساته
وتصادمت مشاعره ، فهو يفتتح قصيدته بهذه الصورة الصاخبة صخب شعور
الشاعر ، والعنيفة عنف دقات قلبه .

ثم ينتقل لمدحه ويتوسل إليه ويستعطفه مستذكراً أيام الصفاء ومقارناً
لها بما فهو فيه من عنت وتعاسة :

كنت أشد وعليك يا دوحة المجـ د ويا روضة الندى والجود
إن جناحي ندى بظلك طلقـ ولساني رطب على التفريد
وأنا اليوم تحت ظل عقابـ لقوة محوة الجناح صبور
أتقيها بناظر خافق اللحـ ظ مروع وخاطر مروع
غير أني سأصطفى لك جهدي من ثناء طيب وذكر حميد
في قليل من القوافي كثير ونلول من المعاني شرو
كلمات كأنها الدرّ نظماً طوقت منك أي طوق وجيد

ثم يذكر محله من أبيه المعتمد وفضلته الكبيرة لديه ويتوسل إليه في أن
يشفع له عنده وهل غيره أولى بهذه الشفاعة :

والى أين في الشفيح إذا ما لم ألدُ منك عنده بالرشيد
بفتى نازح المكان مظلـ غائب الشخص ندى اعتناء عنيد
مشفق يستجيب لي من قريب وأنا أستغيثه من بعيد
لو أطلت عليّ رحمة عينيه انجلى شدي وذاب حدي (١)

والقصيدة كما نرى تحتوى على مجموع من التعابير الأدبية البارعة
تلفت النظر وتجلب الإهتمام ، وتدل على دقة الحس وقوة الإدراك .

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٧٣ "

وهي قصيدة فياضة بالعواطف والشعور يمتزج فيها الخوف بالأمل والجزع بالإستعطاف، ويبدو فيها أسلوب ابن عمّار الأندلسي بأجلى وجوهه، فعدا الرقة البادية في كل بيت من أبيات القصيدة نرى بوضوح أثر الطبيعة التي غدت خيال الشاعر، فاستوحى منها صورا نقل بها كل ما يجول في نفسه من مشاعر وأحاسيس، ثم نجد بعد ذلك في هذه القصيدة نفسية ابن عمّار وأخلاقه وهو في هذا الموقف الرهيب، نجده يستخدم السلاح الوحيد الذي يمتلكه في تلك اللحظة الحرجة إلى أقصى ما يستطيع من الإستعمال فتأتي قصيدته نابضة بالحياة والعواطف، وإذا أحسنا ببعض الإضطراب في أفكار القصيدة وتسلسل أبياتها الماطفي فما ذلك إلا لأن الشاعر كان مضطربا أشد الإضطراب فاختلطت إحساساته وتصادمت مشاعره. وعدا هذه القصيدة التي أرسلها ابن عمّار للرشيد بن المعتمد، فلدينا قصيدة أخرى كلاب بها إلى الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون يتوسل فيها إليه أن يشفع له لدى والده وينقذه مما هو فيه من العذاب، يفتتحها بتساؤل بارع يوجهه لنفسه :

هلا سألت شفاعَةَ المأمون ؟ أو قلتَ ما في نفسه يكفيني
ما ضرَّ لونهبته بتحيّة يسرى النسيمُ بها على دارين
وهزرت منه فقد يقلب سيفه يومَ الجلالِ الحين بعدَ الحين ؟
يبدى من المأمون أوثقُ عصمة لو أنَّ أمرى في يدِ المأمونِ
ثم يمزج التوسل بالرجاء والمدح ويتفنن في ذلك أيما تفنن فيصفه تارة بالتقى وأنا بالمهابة وطورا بالتواضع :

متوقدُ الجناتِ كلُّ دوحه يجني وفجر صفحه بعيون
وأنت لا يدي المجتئين قطوفه ودنا إليهم من ظلالِ غصون
ونأى لأبصارِ العصاةِ فإنما يتوهمون نعيمه بظنون
ويتخلل المدح وصف لحالته المؤلمة وحظه العاثر مقارنا بين ماضيه وحاضره .
كم أسكب العذبَ الفراتَ على فمي يرمي يدي باللؤلؤ المكنون

واليوم قد أصبحت في غمراة إن لم تفتني رحمة تتجيني
بعدت سوا حله علي وأدركت أواجه فتلاعت بسفيني
لا شك في أني غرق عبابه إن لم يمد الفتح لي يمين
وأنهى قصيدته بالتوسل إلى الفتح المأمون في أن لا يأل جهدا لدى
أبيه لإنقاذه من سجنه وانتشاله من همدته :

يا فتح جردها عناية فارس بطل على حرب الولي أمين
فتقدم من جدّه بكتيبة مستظهر من لفظه بمكين
واقرن شجاعتك الكريمة عنده بتواضع عن عزة لا هون
في سكنة من هيبة وسكنية وبضجة من رحمة وحنين
فابوك من يفشى الملوك بساطه شوسا فما يرمونه بهيون
ما يعرف الجبار منه حاجة إلا برفع يد ووضعيه
يا فتح إن نازلت مستزلا فاهنا بفتح من رضاه ميين
وليخلص إليك من أعلاقيه علق يشد عليك كف ظنين (١)

وهذه القصيدة كسابقتها تستحق الإهتمام وتلفت النظر بتعابيرها
البارعة وما يزدحم في جوانبها من مشاعر وأحاسيس تدل على رقصة
الحس وقوة الإدراك في أسلوب سلس وعبارات متماسكة فجاءت نابضة بالحياة
والعواطف الصادقة.

ويقال إن المعتمد ضجر من رسائل ابن عمار وتوسلاته ، فأمر أن لا
تعطى له وسائل الكتابة ، فتوسل ابن عمار إليه في أن يسمح له للمرة الأخيرة
بورقتين فأعطاهما إليه . فكتب على إحداهما قصيدة استعطاف طويلة أرسلها
إلى الملك ، فوصلت إليه مساء وهو في مجلس مع خاصته ، فقرأها ، ويقال إنه
أحسن بالعطف والشفقة على صديقه القديم فأرسل إليه بعد انقضاء مجلسه
ووبخه وعنفه ، فاعتذر ابن عمار وتوسل إلى الملك بدعوة آنا وباعتذاراتها آخر
وبأثارته للذكرى السابقة مرة ثالثة حتى ليقال إن المعتمد أجابه بما فهم منه
ابن عمار تشجيما ووعدا بالخلاص .

وقصيدة ابن عمار هذه التي أرسلها للملك ، حصلت على إعجاب مؤرخي
الأدب فأطنبوا في مدحها والإشادة بها ، وتعتبر من أحسن ما أنتجه الشاعر ،
نحس الإخلاص والمواطف الحارة ، فيها يمتزج الخوف بالأمل واليأس بالرجاء
هاجم فيها أعداءه وحاول أن يبعث في نفس الملك عواطف الرحمة والشفقة
وأن يشير في خاطره ذكريات الماضي ، والأعمال والخدمات الجليلة التي
قدمها لمملكته افتتحها بقوله :

سجايك إن عافيت أندی وأسمح وعذرك إن عاقبت أجلي وأوضح
ولن كان بين الخطتين مزيّة فأت إلى الأذنى من الله أجنح
ويتوسل إلى المعتمد ذاكرًا أعداءه وحساده ، ومشيرًا إلى ما قدمه للملك

من خدمة في الماضي معترفًا بذنبه الذي لا يخفى على أحد :

حنانيك في أخذى برأيك لا تطح عذاتي وان أثنوا عليّ وأفصحوا
وماذا عسى الأعداء أن يتزیدوا سوى أن ذنبي واضح متصحّح
نعم لي ذنب غير أن لحلمك صفاة يزل الذنب عنها فيسفع
وإن رجائي أن عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة يكران في ليل الخطايا فيصبح
وهبني وقد أعقت أعمال مفسد أما تفسد الأعمال ثمة تصلح
أقلني بما بيني وبينك من رضى له نحو روح الله باب مقتح
وعق على آثار جرّم جنيتّه بهبة رضى منه تمحو وتمصح

ويتحدث عن أعدائه ويصف شمتهم بتثر ومرارة :

تخلّيتهم لا درّ الله درّهم أشاروا تجاهي بالشمت وصرّخوا
وقالوا سيجزيه فلان بفعله فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا إن بطشا للمؤيد يرتجي ولكن حلما للمؤيد أرجح
وبين ضلوعي من هواه تميمّة ستفعل لو أن الحمام مجلّح

وهكذا يتوسل ويرجو ويهاجم ويدافع في آن واحد إلى أن ينهي قصيدته

مسلمًا أمره للملك ليفعل به ما يشاء .

سلامٌ عليه وكيف دار به الهوى إلى فيدنواو عليّ فينحُ

وبهنيه إن مّا السلو فأنسي أموت ولي شوقٌ إليه مبرحُ (١)

والقصيدة كما نرى متينة رائعة فيها ما يتطلبه الفن من فيض العواطف

وتدقيق الشعور وقوة التعبير ، وهي كما تتفق أقوال الرواة ، آخر ما

نظمه ابن عمار من الشعر ، وكان لها في نفس المعتمد تأثير غير قليل .

وله قصائد كثيرة في سجن شقورة يث فيها شكواه ويستعطف من حوله

أصدقائه ومن بقي له مودة معهم . فكتب عندما كان سجينا في شقورة

إلى المطرز :

تراءى بصيني إن أردت مبرتي وسبب إلى الحسنى ولو بقسيم

فما شم عرف المسك دون تنشق ولا اهتز عطف الفصن دون نسيم (٢)

وقال في سجنه في شقورة مخاطبا الوزير أبا جعفر بن جورج حين اجتاز

بتلك البقاع :

لأنتي أراك أبا جعفر تقول وتبسم نحوى مشيرا

سفرت ليرجع هذا معي وزيرا فلم أزل إلا أسيرا

هو القدر الحتم يعمي الفتى وان كان بالدهر طبأ بصيرا (٣)

وقال يشكو من الدهر ، وهو في سجن شقورة ، وقد استدعى نورة يستنظف

بها فتعذرت عليه فاستدعى موسى فأتى بها :

بؤسي شقورة عندي أرى على كل بؤسي

فقدت هرون فيها فظلت أطلب موسى (٤)

وكتب إلى الرازي بن المعتمد عندما أتى ليأخذه من سجن شقورة

لينقله إلى سجن إشبيلية حيث المعتمد المتلف للقصاص منه :

(١) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٩٨ / عبدالواحد المراكشي : المعجب

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة "٦٨"

(٣) نفس المصدر : قصيدة "٦٦"

(٤) نفس المصدر : قصيدة "٧١"

قالوا: أتى الراضي فقلتُ لعلها خُلِيت عليه من صفات أبيه
 قال: جرى فحسى الموءيدُ واهبًا لي من رضاء ومن أمان أخيه
 قالوا: نعم فوضعتُ خدي في الثرى شكرًا له وتيمُّنًا ببنيته
 يا أيها الراضي وإن لم يلقني من صفحه الراضي بما أدريه
 كَبَيْتُ احتجبت لوجه عذر بيِّن بذل الشفاعة أي عذر فيه
 سهَّل على يدك الكريمة أحرفًا فيمن أسرت فتنتني تقدِّيه (١)
 ومما قاله أثناء اعتقاله في إشبيلية :

يقول قوم : إنَّ الموءيدَ قد أحال فيديني على نقده
 يا قوم ماذا الشراءُ ثانيَّة تُرى لمعنى يريب من عنده ؟
 أوحشني والسماحُ عادته سماحه بالعلاء في عبده
 الحمدُ لله إنَّ يكن حرجًا فليس في مثله سوى حمده
 وحيلة إن وصلتُ حضرتَه جعلتها رغبة إلى جُنده
 لو سامحوا في الفرندِ أرقه من طرفة لم أخفه من غمده
 لكن على الغرب عارض زجل أخضره يفتّر من جوانبه
 يا ربِّ بشر برحمةٍ وحيًا يونس من برقه ومن رعدِه (٢)

في هذه المقطوعات التي يث فيها شكواه ويستعطف كل من يسمع له
 تبدو لنا ظاهرة ذات معنى في إنتاج ابن عمّار وهي أن شاعرنا لا يجيد
 إلا إذا تملكه الخوف وملاء نفسه القلق واستبد به الرعب ، إن أن
 أبياته لا تصبح مجرد عبث لفظي وزخرفة بيانية أو بدعية مصطنعة ،
 وإنما تزخر بالشعور الصادق وتفيض بالإحساس العميق والم عاطفة الجياشة*
 ومرد ذلك طبعاً إلى الإخلاص في التعبير إن قل ما نراه في الشعر الذي
 تفرضه المناسبات ، فإذا وجد هذا الإخلاص وأضيف إلى تمكن الشاعر من
 ناحية النظم وقبضه على زمام اللغة ، جاء شعره رائعا ينفذ إلى النفس

(١) ابن خاقان : قلائد الحقيان ، ص ٨٦

(٢) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٦١

ويحرك أوتار القلب ويبعث فيها ذلك الشعور بالارتياح والمشاركة العاطفية ،
 ذلك الإحساس الذى نطلق عليه المتعة الأدبية أو التدوُّقُ الفني .
 انطلق ابن عمار أيام بؤسه وخموله ، يجوب الأندلس قاصداً ملوك
 طوائفها عارضا عليهم بضاعته المبتدلة ، وقد وفد أثناء تجواله على
 ابن طاهر أمير قُرسية ، وابن عبد العزيز أمير بلنسية ، وصاحب حصن شقورة ،
 وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أن ابن عمار اجتاز على بني عبد العزيز
 في بلنسية ، وكانوا يضمرون عداوته وتخلفوا عن لقائه ، وناب في ذلك
 عنهم أقوام فكتب إليهم ابن عمار معاتباً :

تَناهَيْتُمْ فِي بَرْنَا لَوْ سَمَحْتُمْ بوجهِ صديقٍ فِي اللِّقَاءِ وَسِيمِ
 وَسَلَسَلْتُمْ رَاحَ البِشَاشَةِ بَيْنَنَا لَوْ أَنْكُمْ سَاعَدْتُمْ بِنْدِيهِمْ
 سَأَلْتُمْ الْعَذَرَ الْجَمِيلَ عَلَى الْعُلَا وَأَحْتَالُ لِلْفَضْلِ إِحْتِيَالُ كَرِيمِ
 وَأَثَرِي عَلَى رَوْضِ الطَّلَاقِ بِالحَيَا وَإِنْ لَمْ أَفْزَ مِنْ نَشْرِهْ بِنَسِيمِ
 بَخَلْتُمْ بِأَعْيَانِ الرِّجَالِ عَلَى النُّوَى فَلَمْ تَصِلُونَا مِنْهُمْ بِزَعِيمِ
 وَلَكِنْ سَأَسْتَعْدِي الْوَفَاءَ وَأَقْتَضِي سَمَاحَكَ بِالْأَنْسِ اقْتِضَاءَ غَرِيمِ (١)
 وَكُتِبَ إِلَى مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ طَاهِرٍ أَشَاءَ مَا وَقَعَ بَيْنَهُمَا
 رَقْعَةٌ عَتَابَ خَتَمَهَا بِهَذِهِ الْآبِيَاتِ :

عِنْدِي حَدِيثٌ لَوْ سَمِعْتَ قَلِيلًا وَلَدَى نَصْحٍ إِنْ أَرَدْتَ قُبُولًا
 يَا رَاكِبًا ظَهَرَ النُّجَى وَرَاكِبًا فِي حَلْبَتِيهِ أَمَا اعْتَقَدْتَ نَزُولًا
 لِلَّهِ دَرَكٌ لَوْ طَلَبْتَ حَقِيقَتِي لَوْ جِدْتَنِي بَدَلَ الْعَدُوِّ خَلِيلًا
 خُذْ مِنْ عَنَانِ هَوَايَ يَوْمًا لِلنَّهْيِ وَانْهَجْ لِرَأْيِكَ فِي اللَّجَاجِ سَبِيلًا
 وَإِفْقٌ مِنَ الْأَنْفِ الَّذِي تَعْتَدُهُ عِزًّا فَقَدْ يَدْعُ الْعَزِيزُ ذَلِيلًا (٢)
 ونزل ابن عمار في بعض حركاته بحصن شقورة فانقبضوا عند لقائه

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٤٥

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٥٧ "

فكتب إليهم :

أَخواننا هَلْ حَالٌ مِنْ دُونِنَا أَمْرُ أَحَالِكُمْ أَمْ وَحْشَةُ الدَّارِ جَرَّهَا الدَّهْرُ
بَخْلَتُمْ بَلْقِيَانَا وَكَانَ نَزْوَلُنَا عَلَى جَفْوَةٍ مِنْكُمْ وَإِنْ عَظَمَ الْبَرْ
وَمَا هُوَ إِلَّا مَقْطَعُ كَهْوَانِكُمْ عَصِيبٌ وَخَلْقٌ مِثْلُ مَنْزِلِكُمْ وَعَرُّ
(١) ثَقَوَا بِي إِذَا عَزَّ اللَّقَاءُ فَمَا اعْتَرَى إِلَى شَيْمَتِي غَدْرٌ وَلَا بَيْدِي سَحَرٌ
وهذه المقطوعات في العتاب كما يبدو بوضوح غير ذات قيمة فنية كبيرة ،
فليس فيها سوى طائفة من الأفكار المضطربة حاول الشاعر سردها
قاصدا عتاب من يؤملهم ، ولكن قيمتها التاريخية ذات أهمية كبيرة حيث
إنها تكشف نفسية ابن عمار وترسم لنا صورة عن علاقته بأمرائه الأندلس
الذين عرج عليهم في سفراته وموقفه منهم وموقفهم منه .
ولكن شاعرنا الذي كان يصرف حق المعرفة حال ملوك الطوائف
آنذاك ، لم يكن ليكثر كثيرا بغضبهم أو رضاهم ..

فنون أخرى

=====

الفخر

لم تقتصر فنون ابن عمار على المدح والهجاء والوصف والفزل والشكوى والإستعطاف ولكنه تناول في مقطوعات رائعة الفخر عندما وصل به المجد إلى أوجه وأصبح يعتد بنفسه ويزهو بها يقول ابن عمار مفتخرا :

أنا ابنُ عمار لا أخفي على بشرٍ إلا على جاهلٍ بالشمس والقمر
وبين طبعي وذمني كلُّ سابقةٍ كالسهم يُعَدُّ بين القوس والوتر
إن كان لغيري في دهرى فلاعجب فوائدُ الكتبِ يستلحقن في الصور (١)

فابن عمار يفتخر بنفسه فقد أصبح معروفا ونجمه لامعا في الأندلس وإن كان خامل الأسرة فقد استطاع بعلو همته أن يصل إلى أوج مجده .

ونراه يفتخر بنفسه في قصيدة بعثها إلى ابن عبد العزيز وابن طاهر

متهما إياهما بشتى التهم ويهدد بلنسية بالويل والدمار :

كيف التفلت بالخدعة من يدئ رجل الحقيقة من بني عمار

رجل تطعمه الزمان فجاءه طرفين في الأحلاء والامرار

سلمى القياد إلى الجميل فان يهج فدع العنان لهبة التيار

طبن بأفراغ الأمور مجرب فطن لأسرار المكائد دار

ماغي إذا برزت إليه مصمم هون إذا التفت عليه مدار

كشاف مظلمة وسائن أمم نقاع أهل زمانه الضرار

عجبا لأشمت راضع ثدى الوغى منه وطورا في القنا الخطار

شراب أكواس المدام وتارة شراب أكواس الدم الموار (٢)

نلاحظ خلال هذه الأبيات بوضوح غطرسة ابن عمار وكبرياؤه واعتداده

بنفسه والصورة التي لديه عنها . وهذه الصفات أهم مميزات شخصية

ابن عمار . وكانت هذه الأبيات سببا في إثارة المعتمد نفسه ودفعه إلى التهكم

بوزيره .

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٦٤

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٥٨ "

وأظن أن ابن عمّار نجح كل النجاح في رسم صورة رائعة قوية للسياسي البار في ذلك العصر ، وذكر لنا بوضوح الصفات التي يجب أن تتمثل فيه ، يدل على ذلك أنه كان مدركا كل الإدراك لما يجب أن يكون عليه رجل السياسة وأنه بذل جهده في أن يكون كذلك ، وما يلفت النظر في هذا الموضوع البيت الأخير ، والواقع أن هذه الصفة كانت مصدر فخر واعتزاز في الأرستقراطية الأندلسية ، بل إنها صفة من صفات الرجل المثالي لهذه الطبقة وهو المصرف في اللهو في ساعات الانس والمسرور في الشجاعة عندما يتطلب الأمر ذلك .

الحنين إلى الوطن :

=====

كانت حياة شاعرنا متقلبة متغيرة ، أحيانا يحب في الصنوع مجالس الانس في شلب وإشبيلية وفي بعض الأحيان نازحا مشردا يهيم في أقاصي الأندلس ، فيتذكر أيام سعادته الأولى ويحن إلى وطنه ومسقط رأسه وإلى المدينة التي انتزعت من ضحك الميش إلى حلوه بعد ترحال طويل بين ممالك الأندلس .

وابن عمّار نفسه لم ينس هذه الأيام الهانئة فقد بقيت ذكراها غالقة في خاطره يستعيد ما كلما حافت به الكروب وداومت المصائب ، وما هو ذا يذكرنا في قصيدته التي بعث بها إلى الأمير محمد بعد ذلك بسنوات وهو في سرقسطة خائفا من غضب المعتضد ويطشه وطامعا في الحصول على عفوه ورضاه يقول فيها :

أشلبُ ، ولا تنسابَ عبرة مشفقٍ ! وحمص ولا تعتادُ زفرة نادِمٍ !
كساها الحيا بُرَّةَ الشبابِ فإنها بلائُ بها عَقَّ الشبابُ تماغمي
ذكرتُ بها عهدَ الصِّبا فكأنما قدحْتُ بنارِ الشوقِ بينَ الحيازِمِ
ليالي لا ألوى على رُشدٍ لائِمِ عَناني ولا أثنيه عن غَيِّ هائمِ
أنالُ سُهَادي عن عيونِ تواغمي وأجني عذابِي من غصونِ نواعِمِ
وليلٍ لنا بالسَّدِّ بينَ معاطِفٍ من النهرِ ينسابُ انسيابَ الأراقِمِ

بحيث اتخذنا الروضَ جاراً تزورنا هداياهُ في أيدي الرياحِ النواسمِ
تَهْلِفُنَا أَنْفَاسُهُ فَنَرُدُّهَا بِأَعْطَرِ أَنْفَاسٍ وَأَذْكِي مَنْاسِمِ
تَسْرِي لَنَا ثُمَّ عَنَّا كَأَنَّمَا حَوَاسِدُ تَمْشِي بَيْنَنَا بِالْمَنَاسِمِ

سَقَتْنَا بِهِ الشَّمْسُ النُّجُومَ وَمِنْ بَدَتْ لَهُ الشَّمْسُ فِي جَنَحٍ مِنَ اللَّيْلِ فَاحْمِ
وَبِتْنَا وَلَا وَاشِي يُحَسُّ كَأَنَّمَا حَلَلْنَا مَكَانَ السُّرِّ مِنْ صَدْرِكَ أَمْ
هُوَ الْعَيْشُ لَا مَا أَشْتَكِيهِ مِنَ السُّرَى إِلَى كُلِّ شَفِيرٍ أَهْلٌ مِثْلُ طَاسِمِ (١)

يبدو واضحاً أن الشاعر وصديقه الأمير المعتمد بن عباد لم يدعاً سبيلاً
من سبل الأئس لم يسلكاه ولم يتركاً باباً من أبواب المتعة لم يطرقاه ،
وظلت هذه الذكريات الحلوة عالقة في ذهنه وتهيج عواطفه إذا ذكرها
وهذا ظاهر في أبياته السابقة فنلاحظ روحاً منشوءاً بالإخلاص والصدق
في عبارات متناسقة وتراكيب متماسكة .

=

=

=

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعره

ذكرنا في منزلة ابن عمار الشعرية أن شعره مرّ بثلاثة أطوار :

الطور الأول : باكورة إنتاجه حينما بدأ ينتقل بين ممالك الأندلس

يمدح به كل من وصله مهما كانت مكانته أو مركزه .

الطور الثاني :

شعره منذ انضم إلى شعراء البلاط العبادي في

إشبيلية إلى أن أصبح الوزير الأول لدى المعتمد بن عباد .

الطور الثالث :

يتمثل في محنته وفي أوقات شدته وقلقه وينجلي ذلك

بوضوح مدة أسره في سجن شقورة ومن ثم سجن إشبيلية حيث يبلغ شعره

أوج قوته ويأتي ترجمة صادقة لأحاسيسه وآلامه .

بقي علينا أن نوضح أن لكل طور من هذه الأطوار خصائص فنية

امتاز بها شعرا بن عمار فأحيانا نجد أنه يهتم بالتزيق والصور البيانية والهدىعية

على حساب المشاعر والمواطف فإذا ما انشغل بالسياسة والإدارة لا نجد

عنده غير المقطوعات الشعرية المتكلفة الخالية من الإخلاص والمواطف

الجياشة وإذا ما اشتد به الذعر والقلق والخوف سرعان ما يعود إلى سلاحه

الوحيد الشعر يبت في المواطف المتهبة في أسلوب وجداني سهل مصحوب

بالخوف والرجاء والتعابير التي تثير الشفقة وتبعث على الإعجاب . فشعره في

الطور الأول من حياته لم يكن له قيمة أدبية جدية برفع قيمة قائلها حتى في

نظر الشاعر نفسه . فقد ذكرنا سابقا أن الشاعر أحرق جميع شعره الذي نظم

آنذاك ليطمس الذكريات المؤلمة التي خلفتها هذه الفترة من حياته القاسية .

إن هذا الحال يسمح لنا لحد ما بالقول ، إن فقدان شعرا بن عمار الذي

نظمه في هذه الحقبة من حياته ليس خسارة كبيرة تستحق الأسف ، لأنه لم

يحظ بتقدير معاصريه ولا حتى بتقدير الشاعر نفسه .

وعلى رغم أن هذه الفترة لم تحظ بتقدير أحد كانت مرحلة التحضير

والاستعداد للمراحل التي تلت هذه المرحلة من حياته .

أما الطور الثاني

: لشعره فيمكن تقسيمه إلى قسمين :

القسم الأول :

يتمثل في عهد المعتضد بن عباد وتعتبر هذه المدة من حياة شاعرنا إحدى مرحلتين خصبت فيهما قريحته وجادت بخير ما لديننا من أدبه .

القسم الثاني :

يتمثل في عهد المعتمد بن عباد ويعتبر شعره في هذه المرحلة حلية يتحلى بها كغيره من الوزراء يستخدمه كلما تطلبت المناسبات والظروف ، وهذه المناسبات والظروف لم تكن في أكثر الأحيان عميقة التأثير في نفس شاعرنا بحيث تدفعه إلى التفنن والإبداع ، فلا بد أن يرد الشاعر على صديق أرسل إليه قطعة شعرية بأخرى مثلها ، ولا بد له حين يثبary الشعراء في مجلس لوضئ منظر معين أو حال مدينة أن يدلي بدلوه بين الدلاء وأن يرهق قريحته لتجود بما يتيسر لها من أبيات ، ترضي ذوق الأصدقاء والمقربين وتحظى على وجه الخصوص بإعجاب الأمير ، إلى آخر ما هنالك من مناسبات مماثلة .

الطور الثالث

يتمثل في فترة طموحه ومحنه ما بين عامي ٤٧١ هـ و ٤٧٧ هـ (١٠٧٨ - ١٠٨٤ م) وهذه الفترة الثانية التي تخصب فيها

قريحة ابن عمار إن أن أبياته لا تصبح مجرد عبث لفظي وزخرفة بيانية مصطنعة وإنما تزخر بالشعور الصادق وتفيض بالإحساس العميق والعاطفة الملتهبة .

وسنعرض الآن لأهم الخصائص الفنية لشعره في مختلف أطواره من حيث الأفكار والعواطف والصور والأخيلة والتراكيب .

أولا : الفكرة :

كان شاعرنا صافي الذهن نقي الذوق ، عذب الحديث إذا تكلم ، حسن الاختيار لأفكاره ومعانيه ، فكان شعره في جملة رقيق الحاشية صادقا في أفكاره ومعانيه ، أكثره مأخوذ من حوادث حياته .

فأفكاره صورة من حياته وصحيفة من صحفه اليومية ، كانت تملئ عليه
الحوادث فيقول وتدفعه ميوله أو تؤخزه الآهه فيتفتق لسانه بقول الشعر
الجميل الخالي من كل تصنع أو معنى ليس له أثر في نفسه ، أو خيال
لم ينشأ من شعور صحيح فكان شعره أياما من حياته يشمل أوقات سروره
ولذاته وساعات محنته وبؤسه ، وأجاد في كل ذلك إجادة تدعو إلى
الإعجاب برقة شعره ورقى خياله .

كقوليه :

أَأَرْكُبُ قَصْبِي أَمْ أَعُوجُ مَعَ الرِّكْبِ ؟ فَقَدْ صَرْتُ مِنْ أَمْرِي عَلَى مَرْكَبٍ صَعْبٍ
وَأَصْبَحْتُ لَا أَدْرِي أَفِي الْبُعْدِ رَاحَتِي فَأَجْعَلُهُ حَظِي أَمْ الْخَيْرُ فِي الْقُرْبِ
عَلَى أَنْتِي أَدْرِي بِأَنْكَ مَوْئِلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَا يَزْهَجُ مِنْ كَرْبِي (١)
يبدو أن الشاعر كان قلقا حقا ، تملأ نفسه المرارة والخيبة ، ومن
المحتمل أن لا يصل الألم والقلق بابن عمار إلى هذا الحد لو لم يكن
في مثل هذا الموقف الحرج فعبر عن ذلك بهذه الابيات رغم تردده وقلقه ،
وهو يدرك أن الملك أقرب إلى العفوه عنه والتجاوز عن إساءته .

ثانيا العاطفة :

تتجلى عواطف ابن عمار في أجلى صورها إذا كان صادق الشعور
والإخلاص فيتفتق لسانه بقول الشعر الجميل الصافي الخالي من كل تصنع .
يقول في قصيدة يمدح فيها المعتضد بن عباد إثر انتصاره على البربر :
وَرَبِّ ظِلَامٍ سَارَ فِيهِ إِلَى الْعِدَى وَلَا نَجْمَ إِلَّا مَا تَطَلَّعَ مِنْ غَمْدٍ
أَطْلَّ عَلَى قَرْمُونَةٍ مَتَلَجًّا مَعَ الصَّبْحِ حَتَّى قِيلَ كَانَا عَلَى وَعْدٍ
فَأَرْطَلَهَا بِالسَّيْفِ ثُمَّ أَعَارَهَا مِنْ النَّارِ أَثْوَابَ الْحَدَائِدِ عَلَى الْفَقْدِ
فيا حسن ذاك السيف في راحة الندى ويا برد تلك النار في كبد المجد (٢)
تتمثل في هذه الابيات العواطف الصادقة وتحمس ابن عمار لإنصار المعتضد

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٣٧

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٨٨

على البربر في قرمونة ولا غرابة في ذلك فقد كان بين الأندلسيين والبربر
 حقد متبادل جدير بأن يفرح كلا منهما بمصائب الآخر .

وقد كان لهذا الشعور الصادق أثره في إعطاء هذه الأبيات قيمة خاصة .
 ويقول في قصيدة أخرى أرسلها إلى صديقه المعتمد بن عباد :

عليّ وإلا ما بكاءُ الفمائم وفيّ وإلا ما نباحُ الحمائم

وعني آثار الرعدُ صرخةُ طالبٍ لنأثرٍ وهزّ البرقُ صفحةً صارمٍ

وما لبست زهرُ النجومِ حدادها لغيري ولا قامت له في مكائم

وهل شققتُ هوجُ الرياحِ جيوبها لغيري أوحنتُ حنينَ الروائم (١)

ما يلفت انتباهنا إلى هذه الأبيات العواطف الملتهبة إلهاب قلب
 الشاعر خلف التكلف البياني الواضح والتشبيهات المصطنعة التي تكاد
 تقرب من الابتذال .

ومن الأبيات التي تظهر فيها الأحاسيس الصادقة والعواطف
 الملتهبة قوله يصف وطنه ويحن إليه :

أشلبُ ولا تنسابُ عبرة مشفقٍ ! وحمص ، ولا تعتانُ زفرة نادٍ !

كساها الحيا بؤرَ الشبابِ فإنها بلانُ بها عَقَّ الشبابِ تماضي

ذكرتُ بها عهدَ الصِّبا فكأنما قد حثَّ بنارِ الشوقِ بينَ الحيازِمِ

ليالي لا ألوى على رشدٍ لائمٍ عِنايَ ولا أشتيه عن غيِّ هائمٍ

أنالُ سُهادي عن عيونِ نواعسٍ وأجني عذابِي من غصونِ نواعسٍ (٢)

تظهر في هذه الأبيات العواطف الصادقة وروحاً منشوءها الإخلاص
 والصدق فهو يحن إلى عهد طفولته وصباه وإلى الليالي الهانئة التي
 كان يحياها في شلب ، وتهيج عواطفه وتبلغ أشدها في أبيات يرسلها
 للمعتمد يستعطفه فيها :

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٩ "

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٩ "

حنانيك فيمن أنت شاهدٌ جدُّه وليس له حاشا انتصاحك من حُسْبٍ
 أما إنه لولا عوارفك التي جرت في جرى الماء في الغُصن الرطب
 لما سُمْتُ نفسي ما أسومُ من الأذى ولا قُلْتُ إن الذنبَ فيما جرى ذنبي
 سأستمنحُ الرُّحى لديك ضراعةً وأسألُ سُقيا من تجاوزك العذير
 وإن نَفَحْتُني من سماءك حرجفٌ سأهتفُ يا برك النسيم على قلبي (١)
 تعتبر هذه الابتيات ذات قيمة أدبية ولعل مصدر هذه القيمة أن الشاعر
 لم يقصد اللعب بالألفاظ وأظهار براعته في رصف الكلمات وزخرفة
 العبارات بل أراد أن يبيث عواطفه فعبر فعلا عن شعور عميق كانت
 تخرج به نفسه ويفيض به قلبه حيث كان يريد أن يهز مشاعر المعتمد
 ويستدر عطفه فجاء ذلك في شكل منسجم رائع .

ثالثا الصور :

لم يستطع ابن عمار قدر جهده أن يتخلى عن الصور البيانية
 والمحسنات البديعية التي شاعت في عصره ، وهو أسلوب قد يرضي نقاد
 عصره ولكنه بعيد جدا أن يحدث هذا الأثر في نفوسنا لأننا لا نكتفي
 بالتنميق اللفظي على حساب العواطف والتحسس الفني كقوله :
 والصبحُ قد أهدى لنا كافوره لما استردَّ الليلُ منا المنبرُ
 والروغُ كالحناء كساه زهره وشيا وقلده نداءه جوهرا
 أو كالغلام زها بورد رياضه خجلا وتاه بأسهين معدرا
 روض كان النهر فيه معصم صافٍ أطلَّ على رداء أخضرا (٢)
 مما يلفت النظر ويبحث الإنباه إلى هذه الابتيات الصنعة البيانية ،
 فجعلها تشبيهات واستعارات فالظلام كالمنبر وضوء النهار كالكاغور ،
 والروغ كالحناء ، والمزهر كالوشي ، والندى كالجوهرة ، والروغ كالغلام
 يتيه بخديه الأحمرين اللذين يشبهان الورد وبالشعر النابت عليهما

(١) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٣٨

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٩٦ / عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ١٧٣

والشبيه بالأس ، والنهر كالمصمم فوق الرداء الأخضر .

ولا شك أن هذه المحسنات تسهم في تكوين القيمة الفنية للنص إذا كان الغرض منها قوة تعبيره عما يضم من المشاعر والمواقف ، أما أن تكون غرضا في ذاتها فذلك مما يجعل النص الأدبي شكلا أجوف قد يثير الإعجاب بتركيبه وحذق صياغته ولكنه لا يمس الحاسة الفنية ولا يثير في النفس الشعور الجمالي الذي يحسه المرء أمام قطعة فنية حقيقية .

ويقول ابن عمار في مدح المعتضد بعد معركة ناجحة خاض غمارها المعتضد ضد أعدائه استعمل فيها الدهاء والرأى بالإضافة إلى السلاح :

تعاطى الخوارج حتى برز ت تقوّم من خدّها ما صعر
وأقبلتها الخيلُ حمراء البنود دهم الفوارس بيض الفرود
فكروا فلم يفنّينهم من مكر وفروا فلم ينجمهم من مفر
ودارت دباؤهم كالكوءوس وفاحت نفوسهم كالزهر
فعاقر سيفك حتى إنحنى وعريد رمحك حتى انكسر (١)

يبدو في هذه القصيدة صور مليئة بالحركة والحياة وقد ساعد في إعطائها هذه الصفة وزن القصيدة المتحرك وقافيتها الساكنة .

وقال يخاطب المعتضد في مجلس أنس :

الكامن ظامية إلى يئناك والروض مرتاح إلى لقياك
والدهر جارٍ في عنانك لم تقل هات المنى إلا أجاب بهاكا
فأدر بأفاق السور كواكباً تخذت أكف سقاتها أفلاكاً
روض تفتح زهره فكأنه مقل المذارى حذقت لتراك
لم ترد من راح ولا من راحة حتى ارتوت بدم المداة فتاكاً (٢)

تتضح في هذه الأبيات صفات شعر ابن عمار الرئيسية كاهتمامه

بالمحسنات البديعية والبيانبة وشملة بالتزويق اللفظي مع براعة في اختيار

الألفاظ وصياغة الأبيات تلفت النظر .

(١) ابن خاقان : قلائد الحقيان ، ص ٨٩

(٢) ديوان ابن عمار : قصيدة " ٨ "

وقال ابن عمّار في إحدى قصائده الفزلية :

مَنْ قَدْ قَلْبِي إِذَا تَتَنَّى قِسْدُهُ وَأَقَامَ عُذْرِي إِذَا أَطْلَّ عِذَاؤُهُ
أَمْ مِنْ طَوَى الصَّبْحِ الْمُنِيرِ نَقَابُهُ وَأَحَاطَ بِاللَّيْلِ الْبَهِيمِ خِمَارُهُ
غَصْنٌ وَلَكِنْ النُّفُوسَ رِيَاضُهُ رَشَأٌ وَلَكِنْ الْقُلُوبَ عَرَارُهُ
سَكَّرَتْ بِيدِ الْيَمِّ غُرَّتُهُ كَمَا أَزْرَتْ عَلَى آفَاقِهِ أَرْزَارُهُ (١)
يتضح في هذه الأبيات أسلوب ابن عمّار في وصف مشاعر الحب والصبابة ،
وهو أسلوب قد يرضي نقاد عصره وهو مليء بالتنسيق اللفظي والعبث
البيانى ، والمبالغة المملة ، لكنه خال من العواطف العميقة والتحسس
الفني ، إننا لا نحس في هذه الطباقات المتكلفة والجناسات المصطنعة
أى أثر للشعور الحي والإحساس العميق ، خاصة وإنها جاءت وسيلة يبدأ
بها قصيدته لينتقل إلى غرضه الأصيل وهو الإعراب عن شوقه لإشبيلية .

رابعاً : الخيال :

يغضب خيال ابن عمّار إذا حل به ضيق أو اعترته مشكلات تعكر صفو
حياته فإذا ما انجلى هذا الضيق عاد إلى حياته الهانئة حياة اللهو
والمرح . قال ابن عمّار في وصف حصن شقورة من قصيدة بعث بها إلى صديقه
القديم الفضل بن حسداى :

عَالُ كَأَنَّ الْجَنَّ إِذَا مَرَدَتْ جَهْلَتُهُ مِرْقَاةً إِلَى النَّسْرِ
وَحَشٌّ تَنَاقَرَتِ الْوُجُوهُ بِهِ حَتَّى اسْتَرَبَتْ بِصَفْحَةِ الْبَدْرِ
قَصْرٌ تَمَهَّدَ بَيْنَ خَافَقَتَيْنِ نَشْرَيْنِ مِنْ فَلَكَ وَمِنْ وَكْرِ
مَلَكَتْ عَنَانَ الرِّيحِ رَاحَتُهُ فَجِيادُهَا مِنْ تَحْتِهِ تَجْرَى (٢)

فقد وصف قلعة شقورة المنيفة وصفا فيه كثير من الروعة والإبداع وقوة
التأثير . حيث يصور الحصن الذى حل فيه بالطبيعة الغاضبة الجامعة .

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٧١

(٢) ابن خاقان : قلائد الحقيان ، ص ٩٢

ويتمثل خياله بأجلى وجوهه في أبياته المرسله من سجن إشبيلية إلى
الرشيد بن المعتد يستعطفه ويرجو شفاعته لدى والده المعتد :

قُل لبرقِ الفمامِ ظاهرُ بريدِ قاصداً بالسلامِ قصرَ الرشيدِ

فتقلَّب في جوه كفوِّادى وتناثر في صحته كالفريدِ

وانتخب في صلاصلِ الرعدِ تحكي ضجتي في سلاسلِ وقُيودِ

فاذا ما اجتلاك أو قالَ ماذا قلتِ إنِّي رسولُ بعضِ العبيدِ

(١) بعض من أبعده عنك الليالي فاجتني طاعة المُحبِّ البعيدِ

فعدا الرقة البادية في كل بيت من هذه الأبيات نرى بوضوح أثر الطبيعة

التي غذت خيال الشاعر ، فاستوحى منها صوراً نقل بها كل ما يجول في

نفسه من مشاعر وأحاسيس في أسلوب سلس وعبارات نابضة بالقوة والحياة .

خامساً الموسيقى :

سيطر على فنون الشعر في عصر ملوك الطوائف تياران قويان ، أحدهما

ينزع إلى المنهج القديم المألوف ، والآخر ينزع إلى التحرر من قيود القافية

والوزن ، ثم التحرر بالتدرج من قيود الإعراب ، وكان لكل من المنزعين ،

أنصار أقوياء ، فالملوك والأمراء ، ومن يحيط بهم من الشعراء يتسكون

بالمنهج المألوف في صياغة القصائد كما كان يصوغها الأقدمون ، والشعراء

الشعبيون ينظمون الموشحات متخلصين من القافية الموحدة ، ثم يتبعون

الأوزان المألوفة حيناً ويشذون عنها حيناً آخر ، ثم يندفعون إلى النظم الشعبي

المتحرر من الفصحى ومن حركات الإعراب مبتدعين فناً جديداً أطلق عليه

المؤرخون فن الأُزجال . وقد ظهرت هذه المحاولات قبل عصرنا الذي

فتحدث عنه ثم أخذت تتسع شيئاً فشيئاً ولكنها لم تنتشر انتشاراً كافياً إلا

في أخريات عصر الطوائف .

وقد كان شاعرنا ينتمي إلى المذهب الأول فلم يخرج عن المنهج المألوف في

الأوزان وله من الثقافة الأدبية واللغوية بحيث تسمح له بنظم القصائد المتينة

التركيب، المتناسكة العبارات الصحيحة الوزن فجاءت قصائده في مختلف
بحور الشعر مع التزام بالقافية الموحدة، فلم يخرج على الأوزان والقافية
مطلقاً. ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان شاعر بلاط في أوج حياته الأدبية.
ورجال البلاط يخضعون دائماً للتقاليد الموروثة، ويتسكون بالوضع
المرسومة، وهم لا يخرجون عن العرف المألوف.
وقد تناول شاعرنا أحد عشر وزناً من الأوزان الشعرية في ست وسبعين
قصيدة مع التزامه بالقافية الموحدة كما يتضح من الجدول التالي :

المجر	عدد قصائده
الكامل	٢٤
الطويل	٢٣
البسيط	٨
المقتارب	٧
الوافر	٣
الرجز	٣
المجتث	٢
المنسرح	٢
الخفيف	٢
السريع	١
المهزج	١
المجموع	المجموع
١١ بحراً	٧٦ قصيدة

سادسا : الألفاظ والتراكيب :

عبر شاعرنا عن أفكاره بشعر رقيق صادق في معناه ، خالي من التكلف
وبألفاظ قوية وتراكيب متينة البنيان تعطي أبياته قيمة أدبية رائعة كقوله
من قصيدة يمدح فيها المعتضد بن عباد :

ودونكها من نسج فكرى حلّة مطرزة المطفين بالشكر والحمد
ألذ من الماء القراح على الصدى وأطيب من وصل الهوى عقب الصدى
وما هذه الأشعار إلا مجامر تضع فيها للندى قطع الندى
وكنث نثر الفضل في وإنما نثر سقيط الطل في ورق الورق (١)
فهذه الأبيات جاءت قوية التراكيب متينة البنيان ، ناجحة في التعبير ،
عن لهفة الشاعر وأمله وشدة ثقته بالملك وأعجابه بما بذله هو نفسه من
جهد في نظم قصيدته .

ويقول معاتب ابن زيدون :

واذكر على زمنٍ قطع — ناه بصافية شمول
إن نسحب الأذيال ما — بين الخليج إلى النخيل
ونحل من سيف الغدي — ر بقية الظلّ الظليل
والفروخ مطور تنم — عليه أنفاس القبول
يا برق أُرِّ رسالتني — تفديك نفسي من رسول (٢)

يتضح لنا من أول وهلة أن في هذه الأبيات قوة التركيب ومتانة التعبير
وإحساسا قويا ورغبة شديدة في شفاعته صديقه ابن زيدون لدى المعتضد .
وله أبيات يذكر فيها ملك إشبيلية بخدماته السابقة ويشير إلى أن
الوشايات والنمائم هي التي سببت هذه القطيعة وأوجدت سوء الظن .
يقول ابن عمار :

أبعد مضت خمس وعشرون حجة تحافت بنا تلك الخطوب الكوارث

(١) ابن خاقان : قلائد المعيان ، ص ٨٩

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ١ ج ١ ص ٣٧٣

مضت لم تُربّ مني أمورٌ شوائبٌ ولا تُلِيَتْ عني مساعٍ خبائثُ
 حللت يدًا بي هكذا وتركتني نهابًا ، وللايام أيدٍ عوابثُ
 وهل أنا إلا عبدٌ طاعتك التي إذا متُّ عنها قام بعدى وارثُ (١)
 فهذه الأبيات إذا تمعنا فيها نلمس من خلالها حالة الشاعر النفسية
 وموقفه الحقيقي من الملك إذ أن الوشايات والنماذج هي التي سببت هذه
 القطيعة وأوجدت سوء الظن .

كل ذلك بأسلوب وعبارات متماسكة تنسجم مع غايات الشاعر ومقاصده .
 وتظهر الفاظه القوية المتينة وتعابيرهِ الرائعة في قصائده الأخيرة التي
 أرسلها يستعطف أولاد المعتمد لدى والدهم .
 فيقول في قصيدة بعثها إلى الرشيد بن المعتمد يقارن بين حاله أيام
 الصفاء بما هو فيه من عنت وتعاسة في سجنه :

كيف أشدو عليك يا دوحةَ المجدِّ يا روضةَ الندى والجودِ
 إن جناحي ندي بظلك طلقَّ ولساني رطبٌ على التفريدِ
 وأنا اليوم تحت ظلِّ عقابٍ لقوةِ محوِّ الجناحِ صيودِ
 أتقيها بناظرٍ خافٍ اللحى طِ مروعٍ وخاطرٍ مروءٍ (٢)
 والأبيات كما نرى تحتوى على مجموع من التعابير الأدبية البارعة تلفت
 النظر وتجلب الانتباه وتدل على رقة الحس وقوة الإدراك .
 وأرسل إلى الفتح بن المعتمد المطقب بالمأمون يتوسل أن يشفع له
 مما هو فيه من العذاب ويصف حظه العاثر مقارنا بين ماضيه
 وحاضره :

كم أسكبُ العذبَ الفراتَ على في يرمي يدى باللولؤ المكنونِ
 واليوم قد أصبحتُ في غمراتِهِ إن لم تفتني رحمةٌ تنجيني
 بعدت سواحلُهُ عليَّ وأدركتُ أواجه فتلاعبت بسفيني
 لا شكَّ في أنني غريقٌ عابسه إن لم يمدَّ الفتحُ لي بيمينِ (٣)
 فهذه الأبيات تلفت النظر بتمايزها البارعة فهو في بحر يكاد يفرق
 ويحتاج إلى من ينقذه من الفرق وسواحلِهِ بصيدة عليه ، كما تزدحم فـ

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة "٦"
 (٢) ديوان ابن عمار : قصيدة "٧٣"
 (٣) ديوان ابن عمار : قصيدة "٧٤"

جوانبها المشاعر والأحاسيس الصادقة .

ولشاعرنا أبيات رائعة في قصيدته الحائية التي أرسلها إلى المعتمد وهي آخر قصيدة يرسلها إليه وقد حصلت على إعجاب الأدباء .

ففيها يمتزج الخوف بالأمل واليأس بالرجاء ، هاجم أعداءه وحاول أن يستعطف المعتمد ويثير في نفسه الرحمة والشفقة :

هنايكَ في أخذى برأيكَ لا تُطع عداتي وان أثوا عليّ وأفصحوا
وماذا عسى الأعداءُ أن يتزَيّدوا سوى أنْ ذنبي واضحٌ متصحُّجُ
أَقْلَنِي بما بيني وبينك من رضى له نحوَ روحِ اللهِ بابٌ مفتَحُ
وعفَّ على آثارِ جرمٍ هَنِيتُـهُ بهبّةِ رُحْمى منه تمحو وتُصَحِّجُ
سلامٌ عليه كيفَ دارَ به الهوى إليّ فيدنو أو عليّ فينزحُ
وبهنيه إن مّا السُّلُو فإنني أموتُ ولي شوقٌ إليه مَبِجٌ (١)
وهذه الأبيات كما نرى متينة في تركيبها رائعة في أسلوبها فيها كل ما يتطلبه الفن من فيض المواقف وتدفق الشعور وقوة التعابير .

بعد أن عرضنا للخصائص الفنية لشعر ابن عمار نلخصها فيما يلي :

١- كان شاعرنا متمكناً من صياغة القصيد وصناعة النظم ، قادر على التعبير عن أفكاره ومشاعره في أبيات متماسكة وقافية متينة وأسلوب يجمع بين الشكل المبرهي والركة الأندلسية .

٢ - كان متأثراً كل التأثير بذوق العصر الذي عاش فيه فاستعمل الصور البيانية والمحسنات البديعية التي كانت تزيد أسلوبه قوة وعباراته متانة .

٣ - لم يكن ابن عمار يستخدم قدرته على الصياغة الشعرية والنظم

للتعبير عن مشاعره الحقيقية وعواطفه دائماً ، وإنما كان مضطراً في

أكثر الأحيان إلى استخدامها في المناسبات التي تتطلب ذلك ،

وكانت هذه المناسبات بالنظر لمركزه الاجتماعي والسياسي كثيرة متعددة ،

(١) ديوان ابن عمار : قصيدة "٧٦" / ابن خاقان : قلائد الحقيان :

لذا جاء مثل هذا الإنتاج الأدبي على رغم قوة صياغته متكلفا خاليا من الحرارة والشعور الفياض اللذين يتطلبهما الشعر الجيد .

٤ - ولكن عندما كان ابن عمّار يتألم ويقلق وتفيض عواطفه ، كانت قدرته على الصياغة الشعرية خير عون له على إنتاج أدب قيم فيه حرارة الإخلاص وقوة الشعور والتصوير ، وعلى ذلك فإن هذا الجزء من إنتاجه الأدبي ، وهو الذي رأيناه عندما تضطرب العلاقات بينه وبين المعتمد أو ما نظمه وهو في القيود والأغلال .

نقول إن هذا الجزء من أدبه ذو قيمة أدبية لا تجحد ، فيه رؤية التصوير وقوة البناء وتدفق العواطف والمشاعر وهذا على قلته ، هو الذي يسمح لنا أن نضع ابن عمّار في الطبقة الأولى من شعراء عصره . ونعتقد أن اكتشاف شعر ابن عمّار كاملا أو اكتشاف جزء كبير منه كفيل بأن يلقي أضواء جديدة على قيمة شعره ويكشف النقاب عن جزء آخر

من إنتاجه الرائع الذي يستحق كل عناية وتقدير .

=

=

=

خاتمة

=====

بدأنا هذا البحث وكنا نقدر له جهدا يسيرا فاذا بنا نجد الطريق وعرا غير ممهد ، والمطاف بعيدا ، والظلام مخيما ، ولكننا بعد جهد ومشقة بالذين وجدنا ما يشرينا ببذل الجهد واحتمال المشاق ، فكل خطوة نخطوها تبعث فينا الأمل ، وتمهد أمامنا الطريق .
فالأندلس غابة وارفة الظلال ، يضل فيها الهداة ، ولكن ما فيها من كنوز المعرفة وفرائد الأدب يحمل الباحثين على البذل في سبيلها كل الجهود .

لقد تعرضنا في الباب الأول لتاريخ الأندلس في عصرنا الذي تحدثنا عنه ، فوجدناه محوطا بالغموض ، مليئا بالتناقض ، غاصا بالخرافات ، فأردنا أن نتعرف على طبيعة هذا الشعب وصفاته منذ أن وطئت قدماه أرض الأندلس إلى أن قامت دول الطوائف .

فهدانا البحث إلى أن هذا الشعب غير متماسك لكثرة العناصر المكونة له ، تفرقه العصبية القبلية من يمنية ومصرية ، والعصبية الجنسية من عرب وبربر وأسبان وصقالية ، وتحطمه النفرة الحزبية التي فشت بين هذه العناصر . وقد عجلت هذه الإحن والحزازات بالأندلس إلى مصيره المحتوم ، حيث بدأت حركة الاسترداد الأسبانية .
وتعرضنا في الباب الثاني لحياة ابن عمار وما أحاط بها من الروايات المتعددة حول نشأته ورفقه سلم المجد وبلوغه ذروة العظمة والسلطان ، وتابعناه في انحداره الموهل الذي أدى به إلى حالة الذل والأسر حتى بلغ نهايته المفجعة . وقد بينا آراء المؤرخين المسلمين الذين عاصروا الشاعر واطلعوا على أخباره من قريب أو بعيد ، فوجدناهم قد تحاملوا عليه . ولم يعطه حقه وينصفه سوى لسان الدين ابن الخطيب .

وعرضنا في الباب الثالث لشعره ، وقد استقينا كثيرا من الأشعار التي

لا تزال مخطوطة أو متناثرة بين طيات المصادر الأندلسية القديمة والحديثة ، وأوردنا نماذج كثيرة منها في مختلف فنونه الشعرية . وأشرنا إلى مظانها ، وأبرزنا أهم الخصائص الفنية لشعره ، فتبين لنا أنه كان متأثراً بروح عصره .

ولا تزال الحاجة ماسة :

- ١ - إلي الكشف عن نشأته المحيطة بالفموض والابهام ، فليس فيما بين أيدينا من مصادر ، ما يلقي الضوء على هذا الابهام ، وخاصة عن الفترة الأولى من حياته ، قبل لقائه بالمعتضد في إشبيلية .
 - ٢ - معظم آثار الشاعر عدا عليها الزمان ، فديوانه لم يصلنا ، وقيل إنه اندثر مع التراث الأندلسي ، وما بقي من آثاره وأشعاره المتناثرة ، في حاجة ماسة إلى تحقيق علمي دقيق .
 - ٣ - ما زالت أسرته مغمورة ، فلم نجد في أي من المصادر ما يشير إلى حياته الزوجية . وكل ما وجدناه بشأن أمه ، بيت من الشعر في قصيدة بحث بها المعتضد إليه .
 - ٤ - ومع أننا لم نأل جهداً في البحث عن المصادر المطبوعة والمخطوطة في مظانها ، مع ذلك فلنا كبير الأمل بالعثور على مخطوطات جديدة ؛ قد تملأ بعض الفترات التي لا تزال نجعلها في حياة شاعرنا .
- ونرجو أن يوءتي ما بذلناه من جهد بعض الثمرات المرجوة في توضيح بعض الجوانب الفاضلة في تاريخ الآداب الأندلسية وفي حياة شاعرنا ودراسة شعره .

" وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين "

المصادر والمراجع

=====

- ابن الأثير : محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (٦٥٨ هـ)
الحلة السرياء ، الجزء الثاني ، تحقيق حسين مؤنس ، مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ .
- إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)
الطبعة الرابعة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٤ .
- أحمد الشايب : الأسلوب ، المطبعة الفاروقية بالأسكندرية ١٩٣٩ .
- أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ، الطبعة الثانية ، مطبعة
الاعتماد ، القاهرة ١٩٤٢ .
- أحمد أمين : ظهر الاسلام ، الجزء الثالث ، الطبعة الرابعة ،
مطبعة مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ .
- أحمد بلا فريج ، عبدالجليل خليفه : الأدب الأندلسي ، الجزء
الأول ، مطبعة الوحدة المغربية ، تطوان ١٩٤١ .
- أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، الطبعة الثانية ، مكتبة
الأنجلوالمصرية ١٩٦٠ .
- أحمد ضيف : بلاغة العرب في الأندلس ، مطبعة مصر ، ١٩٢٤ .
- أحمد هيكل : الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ،
دار المعارف بمصر ١٩٦٧ .
- أشباح يوسف : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ،
الجزء الأول ، ترجمة محمد عبدالله عقان ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة ، ١٩٤٠ .
- أشباح يوسف : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ،
الطبعة الثانية ، ترجمة محمد عبدالله عقان ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٨ .
- الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، الجزء الثاني ، تحقيق
آدرتاش آدرتوش ، الدار التونسية للنشر ١٩٧١ .

- بالنشيا ، آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، دار النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٥ .
- بروفنسال ليفي : محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة محمد عبد الهادي شعيره ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ابن بسام : أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، (٥٤٢ هـ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول (جزآن) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٢ .
- ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، مخطوط رقم ٢٣٣٨ أدب ، دار الكتب المصرية .
- ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٨ .
- ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبدالله (٥٧٨ هـ) الصلّة (جزآن) الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦ .
- بطرس البستاني : دائرة المعارف ، دار المعرفة ، بيروت لبنان .
- ثروت أباطه : ابن عمّار ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر .
- جودت الركابي : في الأثب الأندلسي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ .
- ابن حمديس : ديوان ابن حمديس ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٠ .
- الحميري : محمد عبدالمنعم ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت .
- ابن خاقان : قلائد الحقيان ، (٥٢٩ هـ) أو (٥٣٥ هـ) المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .
- ابن الخطيب : لسان الدين ، (٧٧٦) هـ الإحاطة في أخبار غرناطة ، مطبعة الموسوعات ، القاهرة ١٣١٩ هـ .
- ابن الخطيب : أعمال الأعلام في من بويغ قبل الإحتلام من ملوك الإسلام ، الجزء الثاني ، تحقيق بروفنسال ، الطبعة الثانية ، مطبعة دار المكشوف ، بيروت ١٩٥٦ .

- ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦١ .
- ابن خلدون : عبد الرحمن (٨٠٨ هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المجلد الرابع ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ١٩٧١ .
- ابن خلدون : عبد الرحمن (٨٠٨ هـ) المقدمة ، دار القلم ، بيروت
- ابن خلكان : (٦٨١ هـ) وفیات الاعیان وأنباء أبناء الزمان ، الجزء الرابع ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .
- الخشني : عبدالله محمد بن حارث بن أسد (٣٦١ هـ) قضاة قرطبة ، طبعة مصر ١٣٧٢ هـ .
- ابن دحية : عمر بن دحیه ، المطرب في أشعار أهل المغرب ، تحقيق مصطفى عويس عبدالكريم ، الطبعة الأولى ، مطبعة مصر بالخرطوم ١٩٥٤ .
- دوزي ، رينهارت : ملوك الطوائف ، ترجمة كامل كيلاني ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٣ .
- الذهبي : (٧٤٨ هـ) العبر في خبر من غير ، الجزء الثالث ، تحقيق فؤاد سيد ، الكويت ١٩٦١ .
- ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ، تحقيق علي عبدالعظيم ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٥٧ .
- زماور ، ادوارفون : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ترجمة زكي محمد زكي ، مطبعة فؤاد الأول ١٩٥١ .
- الزركلي : الأعلام ، قاموس تراجم ، الجزء السابع ، الطبعة الثالثة .
- سعد شلبي : البيعة الأندلسية وأثرها في الشعر ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٨ .
- سعد شلبي : دراسات أدبية في الشعر الأندلسي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٣ .
- ابن سعيد الأندلسي : علي بن موسى بن عبدالمطك (٦٨٥ هـ) المغرب في حلى المغرب ، الجزء الأول ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٥٢ .

- ابن سميد : رايات المبرزين ، تحقيق النعمان عبدالمعتال ، مطبعة
الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٣ .
- شبيب أرسلان : الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ،
المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٩٣٦ .
- ابن شهيد : رسالة التوابع والزوابع ، تحقيق بطرس البستاني ،
دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٧ .
- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، الطبعة السابعة ،
دار المعارف بمصر ١٩٦٩ .
- شوقي ضيف : ابن زيدون ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر .
- صاعد القاضي : صاعد بن أحمد بن صاعد (٤٦٢ هـ) طبقات
الأمم ، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين ، بيروت ١٩١٢ .
- الصفدي : صلاح الدين ، الوافي بالوفيات ، الجزء الرابع ،
المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٥٣ .
- صلاح خالص : إشبيلية في القرن الخامس الهجري ، دار الثقافة
بيروت ١٩٦٥ .
- صلاح خالص : محمد بن عمار ، مطبعة الهدى ، بغداد ١٩٥٧ .
- الرضوي : أحمد بن يحيى بن عميره (٥٩٩ هـ) بغية الملتبس في
تاريخ رجال الأندلس ، دار الكاتب العربي ، بيروت ١٩٦٧ .
- ابن ظافر : علي بن ظافر الأزدی (٦٢٣ هـ) تحقيق محمد أبو
الفضل ابراهيم ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٠ .
- عبدالله بن بلقين : التبيان أو مذكرات الأمير عبدالله ، نشر
ليفني بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٥ .
- عبدالجليل شلبي : مذكرات في الأدب الأندلسي ، معهد
الدراسات الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٧ .
- عبدالحميد حسن : الأصول الفنية للأدب ، مطبعة العلوم ،
القاهرة ١٩٤٩ .

- عبدالرحمن البرقوقي : حضارة العرب في الأندلس ، المكتبة التجارية ،
القاهرة ١٩٢٣ .
- عبدالسلام الطود : بنو عباد بإشبيلية ، مطبعة كريمادس ، تطوان
١٩٤٦ .
- عبدالعزيز عتيق : الألبان المربي في الأندلس ، دار النهضة المصرية
للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٥ .
- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، الجزء الثاني ، تحقيق
س. كولان ، وليفي بروفنسال ، مطبعة ليدن ١٩٥١ .
- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق ليفي
بروفنسال ، طبعة باريس ١٩٣٠ .
- ابن الصماد : أبو الفلاح عبدالحى بن الصماد الحنبلي (١٠٨٩ هـ)
شظرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع
والنشر ، بيروت ، لبنان .
- عباس العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، الطبعة الثانية ،
دار المعارف بمصر ، ١٩٧٣ .
- عبدالواحد المراكشي : (٦٤٧ هـ) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ،
تحقيق محمد سعيد المريان ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة
١٩٦٣ .
- علي أدهم : المعتمد بن عباد ، (سلسلة أعلام العرب) دار مصر
للطباعة بالقاهرة .
- علي عبدالعظيم : ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ، مكتبة الأنجلو
بمصر ١٩٥٥ .
- عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ، الطبعة الثانية ، مكتبة نهضة
مصر بالقاهرة .
- غرسية غومس : الشعر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، الطبعة الثالثة ،
مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ .

- أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن عمر (٧٣٢ هـ) تقويم البلدان ،
دار الطباعة السلطانية ، باريس ١٨٤٠ .
- ابن القوطية (٣٦٧ هـ) تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق عبدالله أنيس
الطباع ، دار النشر للجامعيين .
- محمد البتانوني : رحلة الأندلس ، مطبعة الكشكول ، القاهرة ١٩٢٧ .
- محمد ثابت الفندى ، أحمد الشنتاوى : دائرة المعارف الإسلامية ،
القاهرة ١٩٣٣ .
- محمد رضوان الداية : مختارات من الشعر الأندلسي ، المكتب الإسلامي
للطباعة والنشر .
- محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، (دول الطوائف)
مطبعة الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٩ .
- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ، الطبعة الثانية ، مطبعة مصر
١٩٥٨ .
- محمد كرد علي : غابر الأندلس وحاضرها ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة
١٩٢٣ .
- محمود مصطفى : الأدب العربي وتاريخه ، الجزء الثالث مطبعة مصطفى
البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٧ .
- مصطفى الشكعة : صور من الأدب الأندلسي ، دار النهضة العربية
للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧١ .
- المعتمد بن عباد : ديوان المعتمد ، تحقيق أحمد بدوى وحامد
عبدالمجيد ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٥١ .
- المقرئ : أحمد بن محمد (١٠٤١ هـ) نفح الطيب من غصن الأندلس
الرطيب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي
بيروت .
- المقرئ : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ،
دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ .

— ميشال عاصي : الشعر والبيئة في الأندلس ، المكتب التجاري

للطباعة والنشر ببيروت .

— ياقوت الحموي في شهاب الدين أبو عبدالله، (٦٢٦ هـ) معجم

البلدان ، المجلد الثالث ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت

• ١٩٥٥

الدوريات

=====

— صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، العدد التاسع والعاشر ،

معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٦١ - ١٩٦٢ .

— مجلة العربي : العدد ٢١٩ ، وزارة الإعلام ، الكويت ، فبراير

(شباط) ١٩٧٧ .

الفهرس

=====

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١ - ز
تمهيد :	٢ - ١٥
- تسمية الأندلس	٣
- عرض إجمالي لحال الأندلس قبيل قيام دول الطوائف	٦
الباب الأول	
- عصمه -	
الفصل الأول :	
الحياة السياسية	١٦ - ٥٢
- عوامل الانحلال والتفكك	١٧
- بنو جهور في قرطبة	٢٥
- أسطورة هشام الموءيد	٣٠
- بنو عباد في إشبيلية	٣٤
- نظم الحكم في الأندلس	٤٧
الفصل الثاني :	
الحياة الاجتماعية	٥٣ - ٧٠
- التكوين الاجتماعي للسكان	٥٤
- صفات أهل الأندلس وفضائلهم	٥٨
- مكانة المرأة الأندلسية	٦٦
الفصل الثالث :	
الحياة العقلية	٧١ - ٨٢
- الحركة الفكرية	٧٢
- الحياة الأدبية	٧٨

الباب الثاني

- حياته -

الفصل الأول :

- ٨٤ - ٩٥ مهد طفولته ومدح شبابه
- ٨٥ - أسرة ابن عمّار
- ٨٧ - ثقافته
- ٨٨ - صفاته وأخلاقه
- ٩١ - تنقلاته بين ممالك الأندلس
- ٩٣ - عودته إلى شلب

الفصل الثاني :

- ٩٦ - ١٢٦ في بلاط بني عباد
- ٩٧ - مع المعتضد بن عباد
- ١٠٠ - في ظل المعتضد بن عباد
- ١٠٧ - عودته إلى إشبيلية
- ١٠٨ - ابن عمّار في المنفى
- ١١٠ - ولايته شلب
- ١١٤ - ذوالوزارتين في إشبيلية
- ١١٨ - ابن عمّار السياسي
- ١٢٢ - ابن عمّار ومسيحيو الشمال

الفصل الثالث :

- ١٢٧ - ١٥١ قمة المجد
- ١٢٨ - إسهامه في فتح قرطبة
- ١٢٩ - محاولته ضم غرناطة
- ١٣٣ - مطامعه في مرسية
- ١٣٦ - فتح مرسية

- ١٤١ - تمرد ابن عمّار في مرسية
١٤٣ - علاقاته مع ملوك الأندلس
١٤٧ - شقة الخلاف مع المعتمد
١٥٠ - محاولته قلب الحكم في طليطلة

الفصل الرابع :

- ١٥٢- ١٦٥ محنة ابن عمّار
١٥٣ - الإطاحة بابن عمّار في مرسية
١٥٤ - ابن عمّار في سرقسطة
١٥٦ - ابن عمّار في سجن شقورة
١٥٨ - ابن عمّار في سجن إشبيلية
١٦١ - مصرع ابن عمّار
١٦٤ - أحكام المؤرّحين المسلمين على ابن عمّار

الباب الثالث

- شعره -

- ١٦٨ - ١٧٥ الفصل الأول :
١٦٨ - ديوانه
١٧١ - منزلته الشعرية
١٧٦ - ٢٣٠ الفصل الثاني :
١٧٦ - فنونه الشعرية
١٧٩ - الممدح
١٩١ - الوصف
٢٠٠ - الغزل

الموضوع	الصفحة
— الهجاء	٢٠٦
— الشكوى والاستعطاف	٢١٣
— فنون أخرى	٢٢٨
الفصل الثالث :	
الخصائص الفنية لشعره	٢٣١ - ٢٤٤
— الفكرة	٢٣٣
— العاطفة	٢٣٤
— الصور	٢٣٦
— الخيال	٢٣٨
— الموسيقى	٢٣٩
— الألفاظ والتراكيب	٢٤١
خاتمة	٢٤٥ - ٢٤٦
المصادر والمراجع	٢٤٧ - ٢٥٣
الفهرس	٢٥٤ - ٢٥٧

=====

=====

=====

تمت الرسالة

والحمد لله رب العالمين

أعدها :

أحمد محمد الشريف

بإشراف

فضيلة الأستاذ الدكتور

أحمد الشرباصي

الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف

ومعهد الدراسات الإسلامية